عالم نارنيا

سي اس لويس

رحلة جوابة الفجر

Rewity.com
Dalyai

عالم
نارنيا



رحلةً إلى أقصى العالم

نارنيا ... حيث يستيقظ تنين ... حيث تمشي النجوم على الأرض ... حيث يمكن حدوث أيّ شيء.

بدأ ملكٌ ورفيقان غيرُ متوقّعينَ في رحلةٍ تأخذهم إلى ما وراء كل الأراضي المعروفة. وبينما هم يبحرون مبتعدين أكثر فأكثر عن البحار الموصوفة في خرائط البحّارة، اكتشفوا أن سعيهم كان أكثر مما تخيّلوه، وأن نهاية العالم ما هي سوى البداية.

www.[illegible]y.com
Dahia


ISBN 90-5950-020-2
9 789059 500204

Narnia™ © Disney/Walden
www.narnia.com

رحلَة جوَابة الفَجر

كان قضاء إدمون ولوسي عطلةَ الصيف مع ابن عمتهم البغيض يُسطاس أمراً رائعاً جداً. كانوا يحملقون بكآبةٍ إلى صورةِ سفينة مُقدّمُها تنين، حين ببطءٍ بدأت السفينة تترجّح، والريح تهب. وفي لمحةِ بصرٍ، اختفى إطار الصورة، ودُفِع بالأولاد الثلاثة إلى الأمواج. وإذ أمسك الأولاد بالحبال التي أُلقيت إليهم، تسلقوا لينعموا بأمانِ السفينة.

حين استقرت لوسي في حجرتها، تولّد لديها يقين بأنهم سيقضون وقتاً ممتعاً. وقد كان الأمر كذلك فعلاً. فقد انضموا إلى الملك كاسبيان في بحثه عن أصدقاء والده السبعة، الذين اختفوا قبل فترةٍ طويلة في رحلةٍ خطِرة قاموا بها إلى الجزر الشرقية.

هذه هي المغامرة الشيّقة الخامسة

في عالم نارنيا.

رحلة جوابة الفجر

سي أس لويس

رسوم: بولين بينز

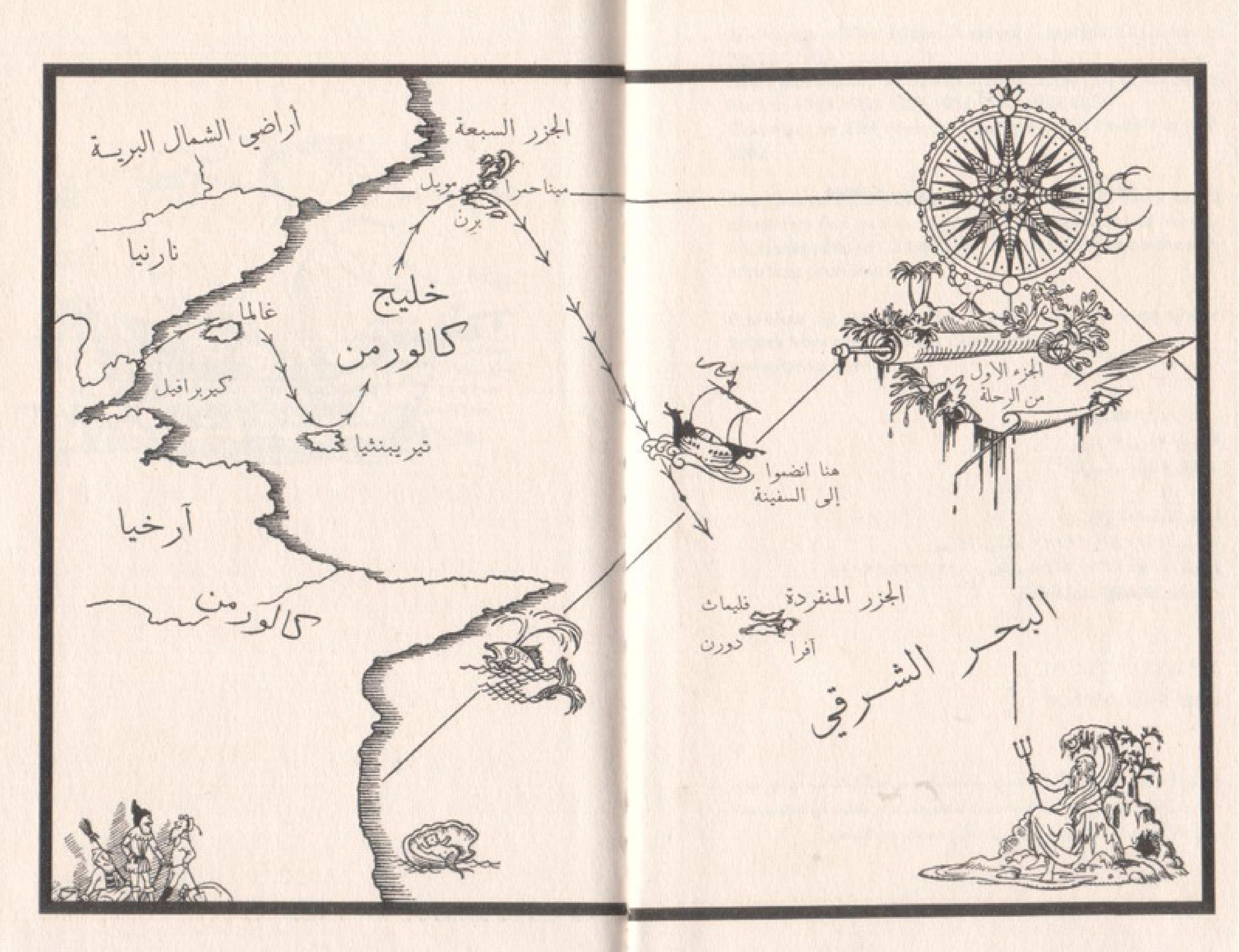
ترجمة: سعيد باز



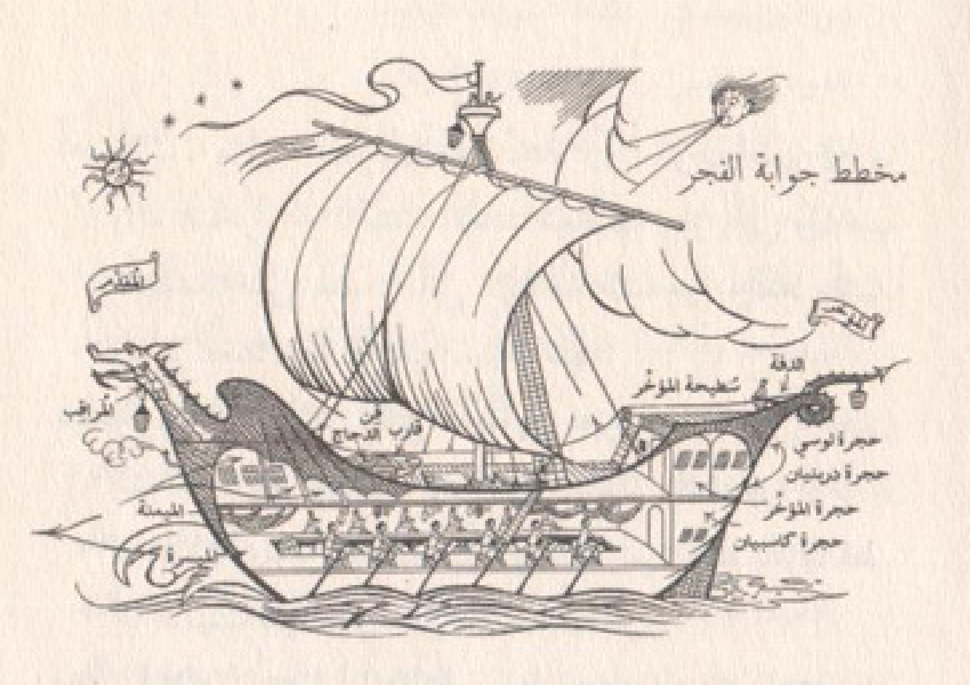
اوفير

www.rewity.com

مُهدى إلى جيوفري بارفيلد



أراضي الشمال البرية
الجزر السبعة
ميناحمرا
موبل
برن
نارنيا
خليج كالورمن
غالما
كيربرافيل
تيريبنثيا
آرخيا
كالورمن
هنا انضموا
إلى السفينة
الجزء الاول
من الرحلة
الجزر المنفردة
فليمات
آفرا
دورن
البحر الشرقي


مخطط جوابة الفجر
قارب الدجاج
حجرة الوصي
حجرة المؤخر
حجرة كاسبيان

تعريف الشخصيات

أصلان: ملك الغابات وسيِّدُها، ابن الإمبراطور في ما وراء البحر. إنه الأسد، الأسد العظيم. وهو يأتي ويذهب كيفما ومتى شاء، ويأتي لإطاحة الساحرة وإنقاذ نارْنيا. ويظهر أصلان في الكتب السبعة كلِّها.

ديغوري كيرك: نقابل ديغوري من بداية «ابن أخت الساحر»، وهو مذكورٌ أيضاً في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». ولولا شجاعة ديغوري، لربما لم نسمع بنارْنيا قط. أما السبب فتجده في «ابن اخت الساحر».

پولي پلامر: وهي أول شخصٍ يغادِر عالمنا إلى نارْنيا. وتشترك مع ديغوري في بداية كل شيءٍ في «ابن أخت الساحر».

جاديس: آخر ملكات شارْن التي دمَّرتها هي نفسُها. تظهر جاديس مع ديغوري و پولي في «ابن أخت الساحر»، وقد استولت على البلاد في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». وفضلاً عن كونها شرّيرةً كُلّياً، فهي خطِرة جدّاً أيضاً، حتى في «الكرسيُّ الفضيُّ».

الخال أندرو: يعتقد السيِّد أندرو كِترلي أنّه ساحر. ولكنه مثلُ جميع الذين يعبثون بأمور السحر لا يعرف بالحقيقة ما يفعله. وتأتي النتائج رهيبة في «ابنُ أختِ الساحر».

آل پيفِنسي:

بطرس پيفِنسي: الملك بطرس العظيم، الملك الأعلى

سوزان پيفِنسي: الملكة سوزان الرقيقة

إدمون پيفِنسي: الملك إدمون العادل

لوسي پيفِنسي: الملكة لوسي الباسلة

هؤلاء الأربعة من آل پيفِنسي، وهم أخوان وأختان، قدِموا إلى نارْنيا في زمان الشتاء الدائم إبّان حكم الساحرة البيضاء، ومكثوا هناك سنين نارْنيانيَّة كثيرة، وأقاموا عصر نارْنيا الذهبي. وبطرس هو الأكبر سناً، تليه سوزان، ثُمَّ إدمون ولوسي. وهم جميعاً متواجدون في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وفي «الأمير كاسبيان». كذلك يظهر إدمون ولوسي أيضاً في «رحلة جوّابة الفجر»، كما يظهر إدمون ولوسي وسوزان في «الحصان وصبيُّه»، فيما يظهر بطرس وإدمون ولوسي في «المعركة الأخيرة».

شصطى: يحيطُ سرٌّ بهذا الولد الذي تبنّاه صيّاد سمكٍ من كالورمِن. فهو ليس الشخص الذي يبدو أنّه هو، مثلما يكتشف هو نفسه في «الحصان وصبيه».

بري: هذا الجواد الحربي أيضاً فائقٌ للعادي. فقد اختُطِف وهو مُهرٌ من غاباتِ نارْنيا، وبيع حصاناً عبداً في كالورمِن، وهو بلدٌ واقعٌ وراء بلا آرخيا وفي أقصى جنوبي نارْنيا. وتبدأ مغامرات بري عندما يحاول الفرار في «الحصان وصبيُّه».

أرافيس: هي طرقانة، نبيلةٌ من كالورمن. إلا أنّ فيها مزايا خيِّرة كثيرة تبرز إلى النور في «الحصان وصبيُّه».

هُوين: فرسٌ حسّاسة حسنة الطباع، تتصادق مع أرافيس في «الحصان وصبيُّه».

الأمير كاسبيان: إنه ابن أخي الملك ميراز، ويُعرَف بلقب كاسبيان العاشر ابن كاسبيان، وهو ملك نارنيا الحقيقي (ملك النارْنيانيّين القدامى). كذلك يُعرَف بألقاب «تلماري نارْنيا»، و«سيِّد كيربرافيل»، «وإمبراطور الجُزُر المنفردة».وهو يظهر في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوّابة الفجر»، و«الكرسيُّ الفضي»، و«المعركة الأخيرة».

ميراز: هو تلماريّ من بلاد تلمار الواقعة بعيداً ما وراء الجبال الغربية (وأجداد التلماريِّين أصلاً كانوا من عالمنا). وميراز هو مغتصب عرش نارْنيا في «الأمير كاسبيان».

ريبيتشيب: هو الفأر الرئيس. وهو الخادم المتواضع المتطوِّع لخدمة الأمير كاسبيان، ولعلَّه أكثر الفرسان بسالةً في نارْنيا كلِّها. فروسيَّتُه لا تُدانى، وكذلك شجاعته ومهارته في استعمال السيف. ويظهر ريبيتشيب في «الأمير كاسبيان»، و «رحلة جوّابة الفجر»، و«المعركة الأخيرة».

يُسطاس كلارنس (صغرون): يُسطاس ابن خالةِ لأولاد آل پيفِنسي، يُضطر إدمون ولوسي أن يذهبا ويزوراه. إلاّ أنه يجد نارْنيا أشبهَ بصدمة. وهو يظهر في «رحلة جوّابة الفجر»، و«الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

جِلّ پُول: هي البطلة في «الكرسي الفضّي»، تذهب إلى نارنيا مع يُسطاس في مغامرته النارْنيانيّة الثانية. وهي تأتي أيضاً لنجدة نارْنيا في «المعركة الأخيرة».

الأمير ريليان: ابن الملك كاسبيان العاشر. وهو الأمير الضائع في نارْنيا. فابحث عنه وجِدْه في «الكرسي الفضّيّ».

بِرْكهموم: ساكن مُستنقعات (سباخ) طويل القامة، من المُستنقعات الشرقية في نارْنيا. شخص طويل يشكِّل سلوكه الرزين جداً قناعاً لقلبِه الصادق الوافرالشجاعة. يظهر في «الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

الملك تِريان: رجلٌ نبيلٌ وشجاع، آخر ملوك نارْنيا. هو وصديقه «جوهر»، أحادي القرن، يخوضان القتال معاً في «المعركة الأخيرة».

شِفطة: قردٌ عجوز وقبيح، ينوي أن يتولَّى حكم نارْنيا، ويباشر أموراً لا يستطيع إيقافها في «المعركة الأخيرة».

لَغْزان: حمارٌ طيِّب لم ينوِ قطُّ إيذاء أحد. غير أنَّه ليس ذكيّاً جداً. وهو يقع ضحيَّة لخداع شِفطة في «المعركة الأخيرة».

المحتويات

www.rewity.com

www.rewity.com

رواية Dalyia

الفصل الأوّل

الصُّورة المعلَّقة في غرفة النوم

عاش مرّةً صبيٌ اسمُه يُسطاس كِلارنس صَغْرون. وقد كان يستحقُّ كُنيَتَه الأخيرة تقريباً. وكان والِداه يدعُوانِه يُسطاس كلارِنس، ومعلّموه يدعونه صَغْرون. ولا يمكنني أن أقول لك كيف كان أصدقاؤه يُكلّمونه، لأنّه لم يكن لديه أيُّ صديق. ولم يكن ينادي أباه وأُمّه «أبي» و«أُمّي»، بل هارولْد وألبِرتا. وكانوا قَوماً راقينِ وعصريّين، نباتيّين لا يأكلون اللحوم والمُنتجات الحيوانية، ولا يُدخّنون، ولا يَقربون المُسكِرات، ويلبسون ملابس داخليّة من نوعٍ خاصّ. وكان في بيتهم أثاثٌ قليلٌ جدّاً، وعلى أسِرّتهم أغطِيةٌ قليلة جدّاً، كما كانت نوافذهم مفتوحةً دائماً.

وكان يُسطاس كِلارِنس يحبُّ

الحيوانات، وخُصوصاً الخنافس إذا كانت ميّتة ومُثبّتة على قطعة كرتون بالدّبابيس. وكانت تُعجِبه الكتب إذا تضمّنت معلوماتٍ علميّة وكان فيها صُوَر لرافعات الحنطة أو لأولاد أجنبيّين سِمان يقومون بالتمارين الرياضيّة في مدرسة نموذجيّة.

وقد كان يُسطاس كِلارِنس يكره أقرباءه الأربعة من آل بيفِنسي: بطرس وسوزان وإدمون ولوسي. غير أنّه سُرّ كثيراً لمّا سمع أنّ إدمون ولوسي سيزوران عائلته ويمكثان مُدّة هُناك. إذ إنّه في قرارة نفسه كان يحبّ التنمّر والتسيُّد، ورُغمَ كونه ولداً صغيراً ضئيلاً لا يمكنه أن يصمد في وجه لوسي — فضلاً عن إدمون — في عِراكِ أولاد، فقد علم أنّ هناك عَشراتٍ من الطُرق لتنغيص عَيش الآخرين إذا كنتَ في بيتك وكانوا هُم مجرّد زُوّار.

لم يكُن إدمون ولوسي يرغبانِ قطّ في زيارة العمّ هارولد والخالة ألبرتا، وفي الإقامة عندهما. إنّما لم يكونا يستطيعان تجنّب ذلك. فقد حصل أبوهما على وظيفة تعليميّة في أميركا لستّة عشر أُسبوعاً ذلكَ الصّيف، وتقرّر أن تُرافِقه الوالدة لأنّها لم تكن قد نالت أيّ عُطلة حقيقيّة على مدى عشر سنين. وكان بطرس يدرس باجتهادٍ استعداداً لامتحانٍ مدرسيّ، وقد تقرّر أن يقضيَ أيّام العُطَل في عهدة الأستاذ كِيرك المُسِنّ الذي في بيته كانت لهؤلاء الأولاد الأربعة مغامراتٌ رائعة من زمانٍ بعيد في سنَوات الحرب. ولو أنّ الأستاذ كان ما يزال ساكناً في ذلك البيت لرحّب

بأن يبقى الأولاد الأربعة كلُّهم عنده. إلّا أنّه كان قد صار فقيراً بطريقةٍ ما منذ سِني الكهولة، وبات يُقيم في كوخ صغير ليس فيه إلّا سريرٌ واحد إضافي. ولأنّ اصطحاب الثلاثة الآخرين جميعاً إلى أميركا كان سيُكلّف كثيراً من المال، فقد رافقت الوالدَين سوزانُ وحدها.

كان الكبار في العائلة يعتبرون سوزان حسناء الأُسرة، ولَمْ تَكُنْ نتائجها المدرسيّة جيّدة (مع أنّها في غير ذلك كانت تبدو أكبر من عمرها)، فقالت الوالدة إنّ «ذهابها في رحلة إلى أميركا سيُفيدها أكثر بكثير ممّا قد يُفيد الصّغار». وحاول إدمون ولوسي ألّا يحسدا سوزان ويحقدا عليها لِحسن حظّها، ولكنّ اضطِرارَهما إلى قضاء عطلة الصيف في بيت خالتهما كان أمراً رهيباً بالنسبة إليهما. وقد قال إدمون لِلُوسي: «ولكنْ سيكون الأمر أسوأ بكثير بالنسبة إليّ، لأنكِ على الأقلّ ستُقيمين وحدَكِ في غُرفة خاصّة، وسأُضطَرّ أنا إلى مشاركة ذلك الحقير يُسطاس في غُرفةٍ واحدة».

تبدأ القصّة بعد ظُهرِ ذات يوم، فيما كان إدمون ولوسي يختلسان بضع دقائق ثمينة معاً على انفراد. وبطبيعة الحال، كانا يتحدّثان عن نارْنيا: وهذا اسمُ بَلَدهما السرّيّ الخاصّ. وأعتقد أنّ لمعظمنا بلداً سرّياً، لكنّه بالنسبة إلى أغلَبنا مجرّد بَلَد وهميّ. إنّما إدمون ولوسي كانا أسعد حظّاً من غيرهما في هذا المجال، فإنّ بلدهما السرّيّ كان حقيقيّاً، وكانا قد زاراه فعلاً مرّتين — لا في لعبة ولا

في حلم بل في الواقع. وقد ذهبا إلى هُناك طبعاً بالسّحر، وهو الطريقة الوحيدة للوصول إلى نارْنيا، وقُطِع لهما في نارْنيا نفسها وعدٌ — أو شِبه وعْد — بأنّهما ذات يوم سوف يرجعان إلى هناك. ولكَ أن تتصوَّر أنّهما كانا يتحدَّثان عن ذلك الأمر كثيراً كُلّما سنحت لهما فرصة.

كانا في غُرفة لوسي، جالسَين على حافة سريرها، ينظران إلى صورة مُعلّقة على الحائط المقابل. وكانت تلك هي الصورة الوحيدة التي أعجبتهما في البيت كلّه. ولم تكن تلك الصورة تُعجِب خالتهما ألبرتا قَطّ (لذلك أبعدتها إلى تلك الغرفة الخلفيّة في الطابق الأعلى)، إلاّ أنّها لم تستطع التخلُّص منها لأنّها كانت هديّة عُرس من شخصٍ لم تُرِد أن تُغيظَه.

كانت تلك صورةَ سفينة: سفينة مُبحِرة مُباشرةً نحوك. وكان مُقدَّمُها مَطليّاً بالذهب وله شكل تِنّين فاغِرٍ فَمَه، ولها فقط صَار* واحِدٌ وشراعٌ واحدٌ كبيرٌ مُربّع بلونِ الأُرجوان الزاهي. أمّا جانبا السفينة — أو ما تراه منهما حيث ينتهي جناحا التّنّين المُزخرفان — فكانا بلونٍ أخضر. وكانت السفينة قدِ ارتفعت توّاً فوق موجةٍ زرقاء رائعة، ومُنحَدرُ تلك الموجةِ الأقربُ هابطٌ نحوك وعليه أخاديدُ وفَقاقيع ماء. وكان واضحاً أنّها مندفعة بسرعة أمام ريحٍ عابثة، وهي تميل قليلاً إلى جهة فَتحة التحميل في جانبها

* صاري: عمود يرتكز في وسط السفينة يعلّق به الشراع.

الأيسر. (وبالمناسبة، إذا كنت ستقرأ هذه القصّة كلّها، ولا تعرف مُصطلحات الملاحة، فينبغي لك أن تتذكّر دائماً أنّ يسار السفينة وأنت على ظهرها ناظراً إلى مُقدَّمها يُدعى المَيسَرة، أمّا يمينُها فيُدعى المَيمَنة.) وقد كان ضوء الشمس كلُّه واقعاً عليها من الجانب الايسر، وكانت المياه عند ذلك الجانب زاخرة باللَّونَين الأزرق والأُرجوانيّ. ولكنْ عند الجانب الآخر كانت ذات زُرقة أشدَّ من جرّاء ظِلّ السفينة.

قال إدمون: «إنّي أتساءل: ألا يزيد الأُمور سوءاً أن نُشاهِد سفينة نارْنيانيّة ونحنُ لا نستطيع الذهاب إلى هُناك؟»

فقالت لوسي: «حتّى المُشاهَدة وحدها أفضلُ من لا شيء. ويا لها من سفينة نارنيانيّة رائعة!»

وقال يُسطاس كلارِنس: «أما زلتما تلعبان لعبتَكما القديمة؟» وقد كان يتسمَّع خارج الباب ثمّ دخل الغرفة مُكشّراً. وكان في السنة الماضية قد تمكّن من سماع أولاد آل پيڤِنسي جميعاً يتحدَّثون عن نارنيا، عندما أقام عندهم مُدّة، وأحبَّ أن يُناكِدَهم ويُغيظَهم بشأن ذلك. فإنّه حسب بالطبع أنّهم يختلقون القصّة كلّها، ولم يستحسِن ذلك لأنّه كان أغبى بكثيرٍ جداً من أن يتمكّن من اختلاق أيّة قصّة. لذلك قال له إدمون بجفاء:

«ليس مرغوباً فيكَ هُنا!»

فقال يُسطاس: «إنّني أُحاوِل تأليف بضعة أبيات فُكاهيّة، من قَبيل ما يلي:

أولادٌ لعبوا ألعاباً عن نارْنيا
صاروا بالتدريج أغبى فأغبى..».

وقالت لوسي: «حسناً، أوّلَ كلّ شيء: 'نارنيا' تختلف عن 'أغبى' في القافية!»

فقال يُسطاس: «بينهما شبهُ جِناس!»

وقال إدمون: «لا تسأليه عن الفرق بين الجناس والتَّورية. فهو إنَّما يتلهَّف أن يُسأل أيَّ سؤال. لا تقولي شيئاً، فرُبَّما يذهب من تلقاء نفسه».

من شأن مُعظَم الأولاد، إذا استُقبِلوا مثل هذا الاستقبال، إمّا أن يمضُوا في سبيلهم وإمّا أن ينفجِروا غاضِبين. أمَّا يُسطاس فلم يفعل أيّاً من هذَين، بل ظلَّ في مكانه مُكشِّراً تكشير استهزاء، واستأنف الكلام حالاً، فسأل:

«هل تعجبكما هذه الصورة؟»

وقال إدمون على عَجَل: «بحقّ السماء، لا تدَعيه يبدأ الكلام عن الفنّ وما شابه!» ولكنَّ لوسي، وقد كانت صادقةً دائماً، كانت قد قالت توّاً: «نعم، إنَّها تُعجِبني، بل تروقُني كثيراً!»

فردَّ يُسطاس: «إنَّها صورة رديئة جدّاً».

وقال إدمون: «لَن تراها إذا خرجتَ من هنا!»

إنَّما قال يُسطاس لِلُوسي: «لماذا تُعجِبكِ؟»

فردَّت: «حسناً، أوّل كلّ شيء، تعجبني لأنَّ السفينة تبدو كما لو كانت مُبحِرةً فعلاً، والمياه تبدو

كما لو كانت رطبةً حقّاً، والأمواج تبدو كما لو كانت تعلو وتهبط حقّاً».

ومع أنَّ يُسطاس طبعاً كان يعرف إجابات كثيرة عن ذلك، فإنَّه لم يقُل شيئاً. أمَّا السبب فكان أنَّه في تلك اللحظة عينها نظر إلى الأمواج فرأى أنَّها تبدو حقيقيَّة جِدّاً بحيث ظهرت كما لو كانت ترتفع وتهبط فعلاً. وكان يُسطاس قد ركِب في سفينة مرَّةً واحدة فقط (مسافةً غير طويلة جدّاً) فأُصيب بدُوار البحر بصورة رهيبة. حتَّى إنَّ منظر الأمواج في الصورة جعله يشعر بدُوار البحر من جديد، فشحب وجهه، وحاول إلقاء نظرة أُخرى. وعندئذٍ أخذ الأولاد الثلاثة جميعاً يُحدِّقون بأعيُنٍ ذاهلة وأفواه فاغرة.

إنَّ ما كانوا يُشاهِدونه قد يصعب أن تُصدِّقه وأنت تقرأه مطبوعاً. ولكنَّه يكاد يكون أيضاً صعب التصديق كذلك لو شاهدته جارياً أمامك. فإنَّ الأشياء الموجودة في الصورة كانت تتحرَّك. ولم يكن ذلك أيضاً شبيهاً بالسينما إطلاقاً، إذ كانت الألوان أكثر واقعيةً وصفاءً وطبعيَّةً من أن تكون كذلك. فقد غطس مُقدَّمُ السفينة في الماء بين الأمواج وتطاير رذاذٌ كثير. ثمَّ ارتفعت الموجة خلفها، فانكشفَ مؤخَّرها وظهرها أوّل مرّة، ثمَّ اختفيا إذ تقدَّمت الموجة التالية للقائها فارتفع مُقدَّمها من جديد. وفي اللحظة ذاتها رفرف دفترٌ كان مُلقىً بقرب إدمون على السرير وارتفع وطار في الهواء إلى الحائط خلفَه، وأحسَّت لوسي كلَّ شعرها مُتطايِراً على وجهها كما يحصل في

www.rewity.com
Dalgyia

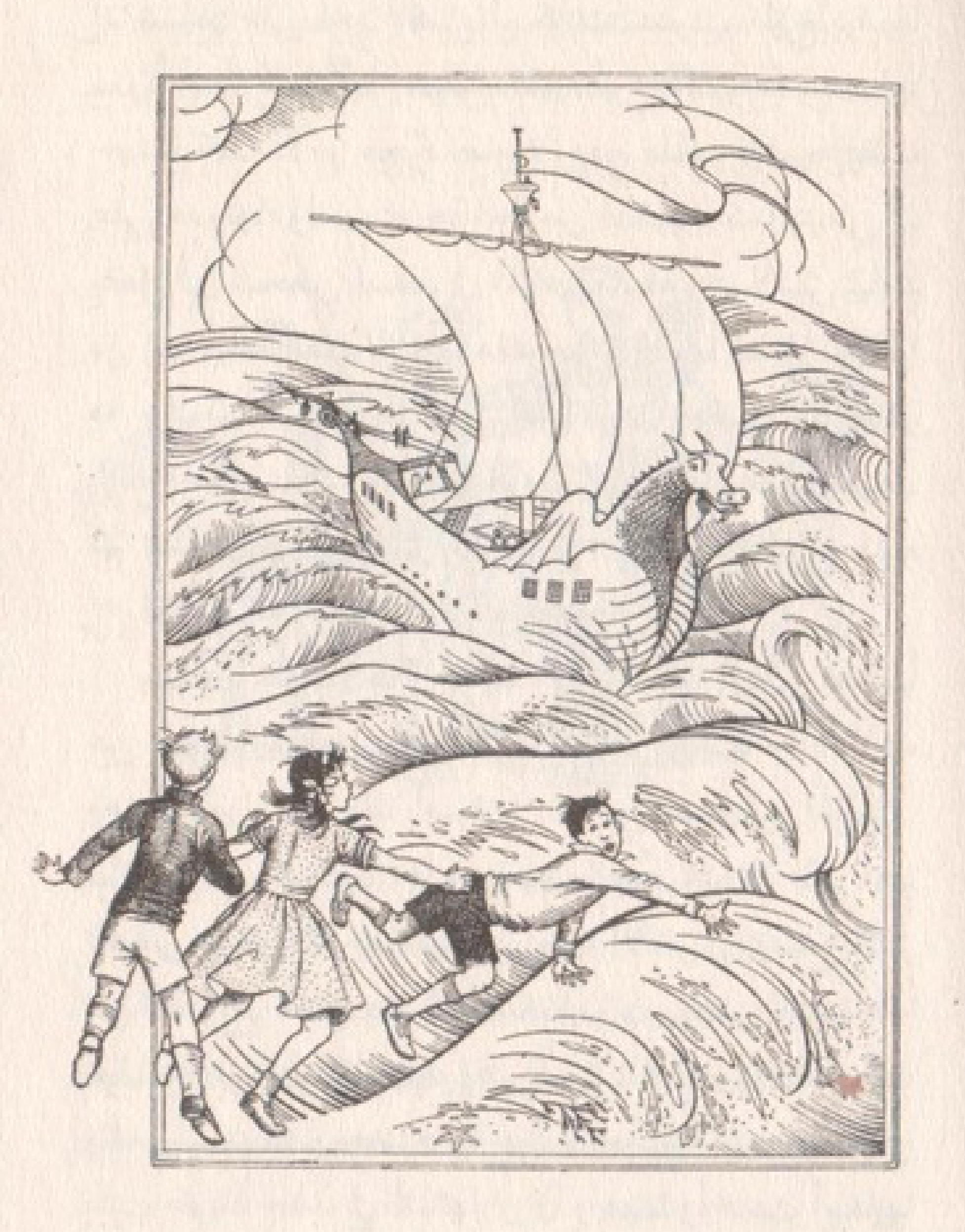
يومٍ عاصف. وقد كان ذلك اليوم عاصفاً بالفعل، غير أنَّ الريح كانت تهبُّ من الصورة نحوَهم. وفجأةً رافق الريحَ ضجيجٌ وعجيج: اصطخاب الموج، وملاطمة الماء لجانبي السفينة، وهدير الهواء والماء على نحوٍ طاغٍ وثابت. ولكنْ ما أقنع لوسي بأنّها حقّاً لم تكن تحلم إنّما كان رائحة البحر، تلك الرائحة الفائحة المالحة!

وتعالى صوت يُسطاس زاعقاً بالرعب وحدّة الطبع: «أوقِفا هذا! إنّها حيلة قبيحة تلعبانها. أوقِفاها! سأقول لألْبرتا... آو!»

وقد كان الاثنان الآخران أكثر تعوّداً للمغامرات، إلّا أنّهما حين قال يُسطاس كِلارِنس: «آو!» قالا كلاهما «آو!» أيضاً. وذلك لأنّ رَشاشاً مالحاً عظيماً بارداً انطلق مندفعاً خارجَ إطار الصورة، فانقطعت أنفاسُهم من صَفعهِ لهم، فضلاً عن تبلُّلهم بالماء كلّيّاً.

عندئذٍ صرخ يُسطاس: «سأُحطّم هذه القطعة اللعينة!» ثمّ حدثت بضعة أشياء في وقتٍ واحد. إذ اندفع يُسطاس نحو الصورة. وقفز وراءه إدمونُ الذي كان يعرف شيئاً عن السحر، طالباً منه أن ينتبه ولا يتصرّف تصرّفَ أحمق. وتشبّثت به لوسي من الناحية الأُخرى، فجُرَّت إلى الأمام. وفي أثناء ذلك، إمّا صاروا هم صغاراً جدّاً، وإمّا صارت الصورة أكبر جدّاً. فقد وثب يُسطاس ليُحاوِل أن يُزيلها عن الحائط فإذا به يقف على إطارها، وأمامَه لا زُجاجٌ بل بحرٌ حقيقيّ، ورياحٌ وأمواج تتدافع نحو الإطار

كما لو كانت تُلاطِم صخرةً. ففقد صوابه وتمسّك بالولدَين الآخَرين اللذين قفزا عالياً إلى جانبِه. ومرّت ثانيةٌ من الصّراع والصُّراخ، وإذ خُيّل إليهم أنّهم حقّقوا توازُنهم إذ ذاك تماماً اندفعت حواليهم موجةٌ عالية عاتية، وطوّحتهم



عن أقدامهم، وسحبتهم إلى قلب البحر. ثمَّ انتهى صراخ يُسطاس اليائس فجأةً عندما امتلأ فمه ماءً.

وشكرت لوسي ربَّها لأنَّها أبلَت بلاءً حسناً في مادَّة السباحة خلال الصيف الماضي. صحيحٌ أنَّه كان ممكناً أن تسبح على نحوٍ أفضل لو كانت تضرب الموج بيديها ضرباً أبطأ، كما أنَّها أحسَّتِ المياه أبرد بكثير مما بدت لها حينما كان الأمر مجرَّد صورة. ومع ذلك فقد حافظت على هدوئها، ونفضت حذاءها من قدمَيها، كما ينبغي أن يفعل أيُّ شخصٍ يسقط في المياه العميقة وهو لابسٌ ثيابه. بل إنَّها أيضاً أبقت عينيها مفتوحتين وفَمها مُطبَقاً. وكانوا ما يزالون بقرب السفينة تماماً، فرأت جانبها الأخضر يرتفع فوقهم عالياً وناساً ينظرون إليهم من على ظهرها. ثمَّ تشبَّث بها يُسطاس مذعوراً — كما قد يتوقَّع المرء — فغاصا كِلاهما إلى الأسفل.

وعندما صَعِدا من جديد رأت إصبعاً أبيض غاطِساً عن جانب السفينة. فقد غدا إدمون قريباً منها جدّاً الآن، وهو يُدوِّس الماء وقد أمسك بذراعَي يُسطاس المُولول. ثمَّ شاهدَت شخصاً آخر، وجهُه مألوفٌ عندها على نحوٍ غامض، يدسُّ ذارعه تحتها من الجهة الأخرى. وسُمع كثيرٌ من الصُراخ يتعالى من السفينة، وبرزت رؤوس تحتشد معاً فوق حاجز ظهر السفينة، وقد دُلِّيت الحِبال. وأخذ إدمون والغريب يربطان خصرها بالحبال. بعدئذٍ تلَت فترةُ تأخُّر بَدَت طويلةً جدّاً، في أثنائها ازرقَّ وجهها وأخذت أسنانها

تصطكّ. ولكنَّ التأخُّر لم يكن طويلاً في الواقع، بل كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة لسحبها إلى ظهر السفينة بغير أن ترتطم بجانبها. ورغم كلّ ما بذلوه من جهد فائق، كانت ركبتُها قد ترضَّضت لمَّا وقفت أخيراً على ظهر السفينة مرتجفةً والماء يتقطَّر منها. ومن بعدِها رُفع إدمون، ثمَّ يُسطاس البَئِس. وآخِرَ الكلّ صعد الغريب، وكان فتىً ذهبيَّ الشعر يكبر لوسي ببضع سنين.



وما إن استجمعت لوسي أنفاسها حتَّى قالت لاهثةً: «كا... كا... كاسپيان!» فقد كان ذلك بالفعل كاسپيان؛ كاسپيان ملك نارنيا الصغير الذي ساعداه على استرجاع العرش في زيارتهما الأخيرة. وفي الحال عرفه إدمون أيضاً. فتصافح الثلاثة وربَّت بعضُهم ظهرَ بعض بابتهاج عظيم.

وفي الحال تقريباً قال كاسپيان ملتفتاً إلى يُسطاس بابتسامته البهيجة: «ولكنْ مَن هو صديقكما؟» إلّا أنّ يُسطاس مضى يبكي بكاءً أمرّ مما يحقّ أن يبكيَه أيّ صبيٍّ بعُمره لم يُصِبه ما هو أسوأ من تبلُّل جسمه بالماء، وظلّ يزعق فقط: «دعُوني أذهب. دعُوني أرجع. أنا لا أُحبّ هذا!»

فسأله كاسپيان: «ندعُك تذهب؟ ولكن إلى أين؟»

فاندفع يُسطاس إلى حافة السفينة، وكأنّه يتوقّع أن يرى إطار الصورة معلّقاً فوق البحر، وربّما لمحةً على غرفة نوم لوسي. وما رأى غير موجٍ يتخلّله الزَّبَد، وفضاءٍ ذي زُرقةٍ أخفّ، يمتدّان كلاهما إلى الأفق. ولعلّنا لا نكاد نلومه إذا هوى قلبُه داخل صدره، فقدِ استبدّ به المَرَض حالاً.

ونادى كاسپيان أحد البحّارة: «هاي! راينِلف، أحضِر نبيذاً مُنكّهاً لجلالتهما. إنكم تحتاجون إلى ما يُدفئكم بعد تلك الغطسة». وقد دعا إدمون ولوسي «جلالتهما» لأنّهما مع بطرس وسوزان كانوا جميعاً مَلِكَين ومَلِكتَين في نارنيا قبل عهده بزمان طويل. والوقتُ في نارنيا هو غيرُ الوقت عندنا. فإذا قضيتَ مئة سنة في نارنيا، فإنّك مع ذلك ترجع إلى عالمنا في الساعة عينها من اليوم عينه الذي قد غادرتَه فيه. ثمّ إذا رجعتَ إلى نارنيا بعد قضاء أُسبوعٍ واحد هنا، فقد تجد أنّ ألف سنةٍ نارْنيانيّة قد مضت، أو أنّ يوماً واحداً قدِ انقضى، أو أنّه لم يمرّ أيُّ وقتٍ على الإطلاق. ولا يمكنكَ أن تعرف كم مضى من الزمن إلّا عندما تصل إلى هناك. وعليه، فعندما رجع أولاد آل پيڤِنسي إلى نارنيا

آخِر مرّة في زيارتهما الثانية إلى هناك، كان ذلك (بالنسبة إلى أهل نارْنيا) كما لو أنّ الملك آرثر قد رجع إلى إنكلترة، مثلما يقول بعضُهم إنّه سيرجع فعلاً. وأنا أقول إنّ خيرَ البرّ عاجِلُه!

ثمّ عاد راينِلف حاملاً النبيذ المُنكّه فائراً في إبريق، وأربعَ كؤوس فضّيّة. وقد كان ذلك تماماً ما يتمنّاه المرء، وما إنِ ارتشف إدمون ولوسي كأسيهما حتّى أحسّا الدفء يغمر جسمَيهما كلّهما. ولكنّ يُسطاس اشمأزّ وبَقبَق وبصق النبيذ، واعتراه المَرَض من جديد، فأخذ يبكي مجدّداً، وسأل إن كان لديهم شيءٌ من الشراب المُقوّى بالڤيتامين والمُغذّي للأعصاب وإن أمكن أن يُصنعَ بالماء المُقطّر، وعلى كلّ حالٍ أصرّ على أن يُنزلوه إلى الشاطئ في المحطّة التالية.

وهمس كاسپيان في أُذن إدمون بضحكةٍ مكبوتة: «يا له مِن زميل مِلاحةٍ مَرِح أحضرتَه إلينا، يا أخي!» ولكنْ قبل أن يتمكّن من إضافة أيّة كلمة أُخرى، انفجر يُسطاس من جديد باكياً شاكياً:

«آه! أُفّ! أيّ شيءٍ هو ذلك؟ أبعِدوه عنّي... ذلك الشيء الكريه!»

وفي الواقع أنّه كان معذوراً بعض الشيء هذه المرّة عن إحساسه قليلاً من المفاجأة. إذ خرج شيء غريبٌ جدّاً من حُجرة المؤخّر وأخذ يقترب منهم على مهل. ولك أن تُسمّيه — وهكذا كان بالفعل — فأراً. غير أنّه كان فأراً

يسير على قائمتيه الخلفيَّتين، وطوله يزيد عن نصف متر. وكان شريطٌ رقيق من الذهب معقوداً حول رأسه تحت إحدى أُذنيه وفوق الأخرى، وقد شُكَّت فيه ريشة قرمزيَّة اللون طويلة. (ولمَّا كان فروُ الفأر قاتماً جدّاً، بل شِبهَ أسود، فقد بدا المنظر لافتاً ومُضحِكاً.) وقد استقرَّت كفُّه اليُسرى على مِقبَضِ سيفٍ يكاد يُعادِل ذيله طولاً. وكان توازُنه كاملاً وهو يخطو بوقار على طول ظهر السفينة المتمايلة، كما كانت تصرُّفاته مؤدَّبة تماماً. وقد عرفه إدمون ولوسي في الحال: ريبيتشيب، أشجع الحيوانات الناطقة في نارنيا، الفأر الرئيس؛ وكان قد حقَّقَ إنجازاتٍ عظيمةً وفخراً لا يذوي في معركة بيرونا الثانية. واشتاقت لوسي — مثلما كانت تشتاق دائماً — أن تحمل ريبيتشيب على ذراعيها وتحتضِنه. غير أنَّ ذلك كان متعة لا يمكنها أبداً أن تحوزها، لأنَّ من شأن ذلك أن يُغيظَه جدّاً. فركعت على إحدى ركبتيها، بدلاً من ذلك، كي تتحدَّث إليه.



فقدَّم ريبيتشيب رجله اليُسرى، وأخَّر رجله اليُمنى، وانحنى وقبَّلَ يدها، ثمَّ نهض منتصباً، وفتل شاربَيه، وقال بصوته الحادِّ الصافر:

«احترامي وخضوعي لجلالتكِ! وللملك إدمون أيضاً وهُنا انحنى انحناءةً ثانية. لم يكُن ينقصُنا سوى حضور جلالتَيكما في هذه المغامرة الجليلة».

وقال يُسطاسٍ صائحاً: «يَعْق! أبعدوه من هنا! أنا أكره الفئران. ولستُ أُطيق أبداً الحيوانات المُمثِّلة. فهي سخيفة وفظَّة و... عاطفيَّة بإفراط».

فقال ريبيتشيب للوسي بعدما حدَّق طويلاً إلى يُسطاس: «أينبغي لي أن أفهم أنَّ هذا الشخص غير المؤدَّب بشكلٍ استثنائيّ هو تحت حماية جلالتكِ؟ لأنَّه، لَولا..».

في تلك اللحظة عطس إدمون ولوسي كِلاهما. فقال كاسپيان:

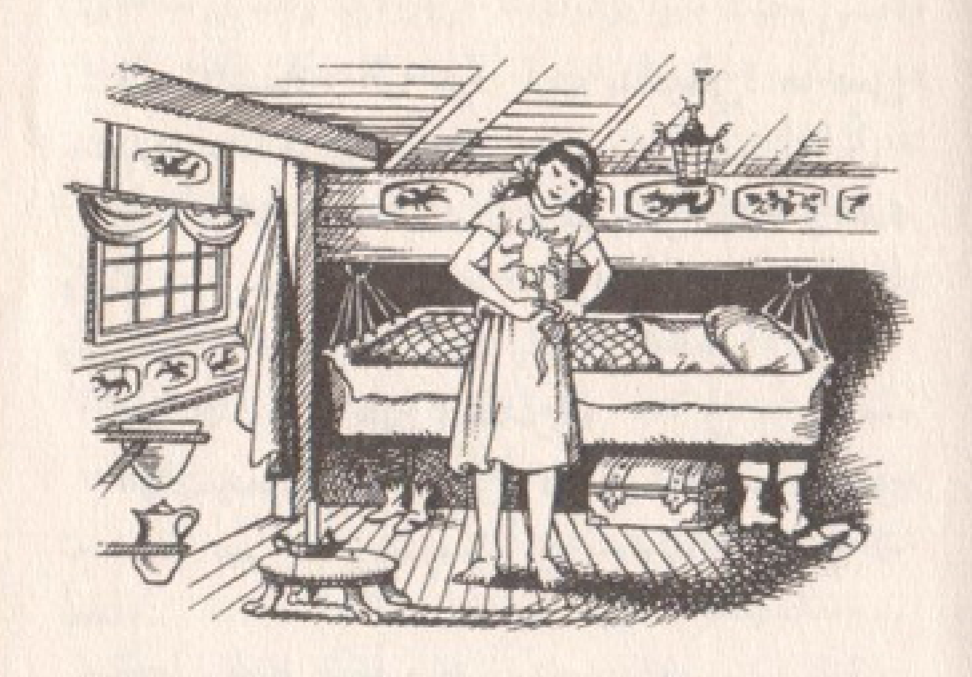
«كم أنا مُهمِل لأترككم جميعاً واقفين هنا بثيابكم المُبلَّلة! انزلوا إلى تحت وغيِّروا ثيابَكُم. سأعطيكِ حُجرتي — يا لوسي — طبعاً، ولكنْ أظنُّ أنْ ليس عندنا في السفينة ثيابٌ نسويَّة. فعليك أن تُدبِّري أمركِ بشيءٍ من ثيابي. امشِ في الطليعة، يا ريبيتشيب، كفتىً كريم، حسْبَما يقتضي الشرف!»

فقال ريبيتشيب: «إكراماً لسيِّدةٍ رقيقة، حتَّى قضايا الشرف يجب أن تُنحَّى جانباً، على الأقلّ في الوقت

الخاصر..». وهنا نظر إلى يُسطاس نظرة تحديق. ولكنّ كاسپيان استعجلهم، وبعد لحظةٍ وجدت لوسي نفسها داخلةً باب حُجرةِ مؤخّرِ السفينة. وفي الحال شُغِفت بها وبما فيها: الشبابيك الثلاثة المُربّعة المُطِلّة على المياه الزرقاء المُدوَّمة خلف المؤخّر، المقاعِد المُنخَفِضة ذات الوسائد الوطيئة حول ثلاثةٍ من جوانب الطاولة، المصباح الفضّيّ المُدلّى من السقف مُتمايلاً (من صنعة الأقزام، كما عرفَت من إتقانه الفائق)، صورة أصلان الأسد الذهبيّة المسطّحة المعلّقة على الحائط الأماميّ فوق الباب. وقد التقطت عيناها ذلك كلّه بسرعة البرق، لأنّ كاسپيان فتح باباً عند المَيمَنة وقال: «ستكون هذه غرفتكِ، يا لوسي. إنّما سأُحضِر بعض الثياب الجافّة لي (وكان يُفتّش في أحد الجوارير وهو يتكلّم) ثمّ أتركُكِ لتبدّلي ثيابكِ. وما عليكِ إلّا أن تطرحي الثياب المبلّلة خارج الباب، حتّى آخذها إلى مطبخ السفينة لتجفيفها».

استراحت لوسي في حُجرة كاسپيان كما لو أنّها في بيتها، وكأنّ أسابيع قد مضت على وجودها فيها. ولم تُزعِجها رجرجة السفينة، لأنّها في الأيام القديمة، عندما كانت ملكة في نارنيا، قامت بكثير من الرّحلات البحريّة. وقد كانت الحُجرة صغيرة جدّاً، لكنْ زاهيةً باللوحات المرسومة بالألوان المُشرقة (وكلّها طيور وحيوانات وتَنانينُ قرمزيّة اللون وأشجار عِنَب)، ونظيفةً نظافةً فائقة. وكانت ثياب كاسپيان كبيرة جدّاً عليها، لكنّها دبّرت حالها بها.

كما كانت أحذيتُه وصنادلُه وجَزماته البحريّة كبيرة جدّاً جدّاً، غير أنّها لم تنزعج من التنقُّل حافيةً على ظهر السفينة. ولمّا فرغت مِنِ ارتداء ثيابها، تطلّعت عبر الشبّاك إلى المياه المتدافعة إلى الوراء، وسحبت نفساً عميقاً، إذ تيقّنت تماماً بأنّهم على وشك التمتُّع بوقتٍ رائع.



الفصل الثاني

على مَتن جوّابة الفَجر

قال كاسپيان: «آه، هوذا أنتِ يا لوسي! ها نحن بانتظارك. هذا هو رُبّان سفينتي، اللورد درينيان».

وإذا برجُل فاحِم الشعر يركع على ركبة واحدة ويُقبّل يد لوسي. وكان الآخران الوحيدان الحاضران هما ريبيتشيب وإدمون.

فسألت لوسي: «أين يُسطاس؟»

أجاب إدمون: «في السرير، ولا أظنُّ أنّنا نقدر أن نفعل له شيئاً. فهو إنّما يزداد سوءاً إذا حاولنا أن نُبديَ له لُطفاً».

وقال كاسپيان: «وفي هذه الأثناء، علينا أن نتحدَّث».

فقال إدمون: «وحقّ الأسد! ولنتحدَّثْ أوّلاً عن الوقت. منذ سنة واحدة غادرْنا نارنيا، حسب توقيتنا نحن، قبل قليلٍ من تتويجك مَلِكاً. فكم مضى من الزمان في نارنيا؟»

أجاب كاسپيان: «ثلاث سنين تماماً».

وسأل إدمون: «أكلُّ شيء بخير؟»

فردَّ الملك: «لَن تحسبا أنّني أُغادر مملكتي وأركب البحر إلّا إذا كان كلُّ شيء بخير. فالأحوال على أحسن ما يُرام. وليس من مشكلة على الإطلاق بين التلماريّين والأقزام والحيوانات الناطقة والفونات والآخرين أجمعين. وقد أنزلنا بأولئك المَرَدة على الحدود ضربةً عظيمة في الصيف الماضي بحيث باتوا يؤدُّون لنا جزيةً الآن. وعندي شخصٌ ممتاز أسلّمه الحُكم في غيابي، ألا وهو طَرمبكِن القَزَم. أنتما تتذكّرانه؟»

أجابت لوسي: «طَرمبكِن العزيز، طبعاً أتذكَّره. واختيارك له هو الأفضل».

فقال كاسپيان: «هوَ وفيٌّ ومُوالٍ كما يكون الغُرَير، يا سيِّدة، وشُجاعٌ كما... كما يكون الفأر»، وكان قد همَّ بأن يقول: «كما يكون الأسد» لكنّه لاحظ عيني ريبيتشيب شاخصتَين إليه.

وسأل إدمون: «وإلى أين نتوجّه الآن؟»

فقال كاسپيان: «حسناً، هذه قصّة تطول. لعلّكما تتذكّران أنّه لمّا كنتُ ولداً صغيراً تخلّى عمّي المُغتصِب للعرش من سبعةٍ من أصدقاء أبي (كان من شأنهم أن يقفوا في صفّي) بأن أرسلهم لاستكشاف البحور الشرقيّة ما وراء الجُزُر المُنفرِدة».

فقالت لوسي: «نعم، أنا أتذكَّر، ولم يرجع أيُّ واحدٍ منهم قطّ».

«صحيح. حسناً، وفي يوم تتويجي – بمُباركةٍ من أصلان – حَلفتُ يميناً بأنّني ما إن أرسِّخ السلام في نارنيا حتّى أركب البحر بنفسي مدّةَ سنةٍ ويوم للعثورعلى أصدقاء أبي، أو لأتحقّق من موتهم وأنتقم لهم إذا قدرتُ. وقد كانت أسماؤهم: اللورد ريڤليان، واللورد بِيرْن، واللورد أرغوز، واللورد مَڤرَمُورن، واللورد أُكتيشيان، واللورد رَستيمار، و...أه، ذلك الآخر الذي يصعب تذكُّره جدّاً».

فقال دِرينيان: «اللورد رُهوب، يا مولاي!»

وقال كاسپيان: «رُهوب، رُهوب، طبعاً. ذلك هو مَقصِدي الأوّل. ولكن لدى ريبيتشيب هنا أملاً أسمى بعد». فالتفتتْ أعيُنُ الجميع إلى الفأر الذي ما لبث أن قال:

«هو أملٌ سامٍ سُمُوَّ روحي، وإن كان ربّما صغيراً صِغَرَ قامتي: لماذا لا نصل إلى أقصى العالَمِ الشرقيّ تماماً؟ وماذا يمكن أن نجد هناك؟ أتوقّع أن نجد موطن أصلان الخاصّ. فمن الشرق دائماً، عبْرَ البحر، يأتينا الأسد العظيم».

فقال إدمون بصوتٍ مَهيب: «أعتقد أنّ هذه فكرة عظيمة».

وقالت لوسي: «ولكنْ هل تحسب أنّ موطن أصلان هو بَلَد من هذا النوع...أعني من النوع الذي يمكنك أن تُبحِرَ إليه؟»

فردَّ ريبيتشيب: «لستُ أدري يا سيِّدتي. ولكنَّ عندي هذا: لمّا كنتُ صغيراً في المَهْد، تكلَّمت عروسٌ من عرائس الغابة، حوريّةُ غابات، بهذه الأبيات فوق سريري:

حيثُ مُلتقى الفضاءِ والماءْ،
حيث يحلو الموجُ كمنٍّ السماءْ،
لا تشكَّ أبداً، يا ريبيتشيب،
بأنْ تجدَ كلَّ مرغوبٍ مطلوبْ:
أنَّ هنالك الشرقَ المُطلَقَ الحبيبْ!

ولست أدري معنى ذلك بالضبط. غير أنّ السحر الكامن فيه بقيَ مسيطراً عليَّ كلَّ حياتي».

وبعد صمتٍ قصير، سألَت لوسي: «وأين نحن الآن، يا كاسپيان؟»

فردَّ كاسپيان: «يستطيع الرُّبّان أن يقول لك أفضل منّي». وعندئذٍ أخرج دِرينيان خريطته ونشرها على الطاولة.

ثمّ قال واضعاً إصبعه على الخريطة: «هذا هو موقِعُنا. أو بالأحرى كُنّا فيه عند ظُهر اليوم. قد هبَّت علينا ريحٌ معتدلة من كَيرپراڤيل، فتوجّهنا إلى الشمال قليلاً نحو غالما ووصلنا إليها في اليوم التالي. ثمّ رسَونا في الميناء هناك مدّة أسبوع، لأنّ دوق غالما أقام مُباراة فروسيَّةٍ عظيمة على شرف جلالته، حيث أسقط فُرساناً كثيرين عن أحصِنَتهم..».

وهنا قاطعه كاسپيان: «ونلتُ أنا أيضًا بضع سقطاتٍ بغيضة، يا دِرينيان. وما تزال آثار بعض الرُّضوض في جسمي».

فتابع دِرينيان بابتسامةٍ عريضة: «...وأسقطتَ فُرساناً كثيرين عن أحصنتهم. وقدِ اعتقدنا أنَّ الدُّوق يَسرُّه أن يتزوَّج جلالة الملك بابنته، ولكنْ لم يحصل شيء من ذلك..».

وقال كاسپيان: «إنَّها حَولاء، وفي وجهها نَمَش».

فعلَّقت لوسي: «يا لها من فتاة مسكينة!»

وتابع دِرينيان: «ثمَّ أقلعنا من غالمًا، وسكنت الريح مدَّة يومين تقريباً، فاضطُرِرنا إلى التجذيف، ثمَّ هبَّت الريح من جديد ولم نصل إلى تِريبِنثيا إلَّا في اليوم الرابع بعد مغادرتنا غالمًا. وهناك نبَّهَنا مَلِكُهم إلى ضرورة عدم الرُّسُوّ بسبب انتشار وباء في تِريبِنثيا. ولكنَّنا أبحرنا حول الرأس الساحليّ ورسَونا في نهرٍ صغير بعيداً عن المدينة، وتزوَّدنا بماء الشُّرب. ثمَّ اضطُرِرنا إلى البقاء هناك ثلاثةَ أيام حتَّى هبَّت ريح جنوبيَّة شرقيَّة فتوجَّهنا إلى الجُزر السَّبع. وفي اليوم الثالث من الإبحار لحقت بنا سفينة قراصنة (عرفنا أنَّها تِربِنثينيَّة من أشرعتها). ولكنَّهم لمَّا رأونا مُسلَّحين جيِّداً، ابتعدوا عنَّا بعد شيءٍ من تبادُل إطلاق السِّهام بيننا وبينهم..».

عندئذٍ قال ريبيتشيب: «وكان ينبغي أن نُطارد سفينة القراصنة ونقتحمها ونشنق كلَّ ابنِ امرأةٍ منهم».

ومضى دِرينيان يقول: «... وبعد خمسة أيَّام أُخرى شاهدنا مُوِيل، وهيَ كما تعرفان، أبعدُ الجُزر السبع إلى جهة الغرب. ثمَّ جذفْنا عبر المضيق حتَّى وصلنا حوالَى الغروب إلى مِيناحَمرا في جزيرة برِنَ، حيث أُقيمت لنا ولائم سخيَّة بكلِّ محبَّة وتزوَّدنا بالمؤونة والماء بقدْر ما شئنا. وقد غادرنا ميناحمرا منذ ستَّة أيَّام، وأبحرنا بسرعةٍ مُذهلة، حتَّى إنَّني أرجو أن نُشاهد الجزر المنفردة بعدَ غد. والخلاصة أنَّه قد مضى على ركوبنا البحر ثلاثون يوماً، وقد أبحرنا مسافةً تزيد عن أربع مئة فَرسخ من نارْنيا».

وسألت لوسي: «وبعد الجُزُر المنفردة؟»

فردَّ دِرينيان: «لا أحد يعلم، يا صاحبة الجلالة. إلَّا إذا استطاعت الجُزر المنفردة ذاتُها أن تقول لنا».

وقال إدمون: «لم تستطع أن تقول لنا في أيَّامنا».

فقال ريبيتشيب: «إذاً، بعد الجُزر المنفردة تبدأ المغامرة حقًّا».

ثمَّ اقترح كاسپيان أن يتفرَّجوا على السفينة، إذا أحبُّوا، قبل العشاء. ولكنَّ ضمير لوسي أنَّبها فقالت: «أظنُّ أنَّه يجب عليَّ فعلاً أن أذهب لرؤية يسطاس. فدُوارُ البحر مُروِّع، كما تعلمون. ولو كان بَلسمي الشافي القديم معي لتيسَّر لي علاجُه».

فقال كاسپيان: «ولكنَّ بلسَمَكِ هُنا. وكنتُ قد نسيتُ أمره تماماً. فإذ تركتِه في نارنيا عند رحيلكم، حسبتُ أنَّه قد

يُعَدُّ واحداً من الكنوز الملوكيّة، وهكذا أحضرتُه معي... هذا إذا كنتِ تظنّين أنْ لا بأس في تبديده من أجل شيءٍ مثل دُوار البحر!»

أجابت لوسي: «سآخذ منه قطرةً واحدة فقط».

وفتح كاسپيان أحد الجَوارير تحت المقعد، ثمّ أخرج القِنّينة الماسيّة الصغيرة الجميلة التي تذكّرتها لوسي جيّداً، وقال: «خُذي ما هو لكِ، يا مَلِكة!» ثمّ غادروا الحُجرة وخرجوا إلى ضوء الشمس.

كان على ظهر السفينة فتحتان طويلتان كبيرتان، قبل الصاري وبعده بالطول، وكانتا كلتاهما مفتوحتين، كحالهما دائماً في الطقس اللطيف، لإدخال النور والهواء إلى جوف السفينة. فتقدّمهم كاسپيان على سُلّم نزولاً إلى ما بعد الفتحة، حيث وجدوا أنفسهم في مكانٍ تمتدّ فيه مقاعد التجذيف من جانب إلى جانب، وقد تسرّب الضوء من ثقوب المجاذيف وتراقص على السقف. وبالطبع، لم تكنْ سفينة كاسپيان قادساً، أي سفينة كبيرة مُروِّعة يُجذِّف فيها العبيد. وقد كانت المجاذيف تُستَخدم فقط للدخول إلى الموانئ والخروج منها، أو عند تقصير الرياح، وغالباً ما كان كلُّ واحدٍ من البحّارة (ما عدا ريبيتشيب الذي كانت رِجلاه قصيرتين جدّاً) يُسهِم في التجذيف بدوره. وعند كِلا جانبي السفينة كانت المساحة تحت المقاعِد متروكةً خالية لأجل أقدام المُجذّفين، ولكن في الوسط كلّه كان ما يُشبه خندقاً عميقاً يصل إلى عارضةِ

قعر المركب تماماً، وكان ذلك الخندق مملوءاً بأشياء من كلّ نوع: أكياس طحين، براميل خشب فيها مياه أو نبيذ، براميل لحم مُقدَّد، جِرار عسل، قِرَب نبيذ من جلد، تُفّاح، جوز، جُبن على أنواعه، لِفْت، شرائح لحم مُملّح. ومن السقف، أي من تحت ظهر السفينة تماماً، تدلّت أفخاذُ ذبائح، وجدائل بَصَل، وكذلك أيضاً الحُرّاسُ الذين انتهت مُناوَبتُهم في أراجيحهم الشَّبَكيّة. ثمّ تقدّمهم كاسپيان نحو المؤخَّر، وهو يخطو من مقعد إلى مقعد؛ على الأقل، كان ذلك خَطواً بالنسبة إليه وشيئاً ما بين الخطو والقفز بالنسبة إلى لوسي، وقفزاً طويلاً حقيقيّاً بالنسبة إلى ريبيتشيب. وفتح كاسپيان الباب، ثمّ أدخلهم إلى حجرة تحتلّ مؤخَّر السفينة كُلّه تحت حُجرات السُّطَيحة الخلفيّة. ولم تكن تلك الحجرة بالطبع حسنة المنظر كثيراً. فقد



كانت منخفضة جداً وقد انحدرت جوانبها مائلةً بحيث لم تبقَ أيّة أرضيّة تقريباً. ومع أنّه كان لها نوافذُ من الزجاج الثخين، فلم تكن قابلة للفتح لأنّها تحت مستوى الماء. بل إنّ تلك النوافذ لحظتئذٍ، عند ترجُّح مُقدَّم السفينة صعوداً وهبوطاً، راوحَت بين اللون الذهبيّ الناجم عن ضوء الشمس والأخضرِ الباهت من جرّاء مياه البحر.

وقال كاسپيان: «علينا أن نَبيت هنا، أنت وأنا، يا إدمون. وسنترك لنسيبك السرير الجانبيّ، فيما نُعلّق لنا أرجوحتين شبكيّتين في السقف».

فقال دِرينيان: «أرجو من جلالتك..».

وقال كاسپيان: «لا، لا، يا رفيقي الملّاح! لقد حسَمنا الجدال في هذا كلّه. أنت ورِنْس (مُساعِد الرُّبّان) تُبحِران بالسفينة، وستكون لكما همومٌ ومتاعب لياليَ عديدة فيما نكون نحن مُنصرفين إلى غناء أغاني البحّارة أو حكاية القصص، فلا بدَّ أن تشغلا أنت وهو حُجرة المَيسَرة في الأعلى. ويمكننا أنا والملك إدمون أن نتمدّد ونستريح جيّداً هُنا في الأسفل. ولكنْ كيف حال الغريب؟»

فعبس يُسطاس، وقد شحب لونُ وجهه جدّاً، وسأل عن ظهور أيّة إشارة إلى تناقص حدّة العاصفة. إلّا أنّ كاسپيان قال: «أيّة عاصفة؟» فيما انفجر دِرينيان ضاحكاً ثُمّ جأر:

«عاصفة، أيُّها السيّد الصغير! إنّ هذا الطقس ألطفُ ما يمكن أن يتمنّاه أحد».

فقال يُسطاس مغتاظاً: «مَن هذا؟ أبعِدوه عنّي! إنّ صوته يصدع رأسي».

وقالت لوسي: «لقد أحضرتُ لك شيئاً يجعلك تصير أحسن حالاً يا يُسطاس».

فدمدم يُسطاس: «آه، اذهبي من هنا؛ ودَعيني وشأني!» إلّا أنّه رشف قطرةً من بلسَمِها، ورغم قوله إنّها مادّة مُقرِفة (مع أنّ الرائحة الطيّبة فاحت في الحجرة كلّها)، فقد عاد وجهه إلى لونه الطبيعيّ بعد لُحيظاتٍ من تناول البَلسم، ولا بدّ أن يكون قد تحسّن فعلاً، لأنّه بدل الوَلوَلة بشأن العاصفة ورأسه، بدأ يُطالِب بإنزاله على البرّ، وقال إنّه في أوّل مرفإٍ سوف «يرفع عليهم قضيّة» لدى القُنصليّة البريطانيّة. ولكنْ عندما سأل ريبيتشيب ما هي القضية وكيف تُرفع (وقد حسب أنّها إحدى الطُرق الجديدة لترتيب مُنازلة فرديّة)، لم يتمكّن يُسطاس من الإجابة إلّا بالقول: «تصوَّروا عدم معرفة ذلك!» وأخيراً نجحوا في إقناع يُسطاس بأنّهم مُبحِرون بأسرع ما يمكن إلى أقرب برّ يعرفونه، وبأنّه ليس لديهم من القُدرة على إرجاعه إلى كَمبِردج (حيث يسكن العمُّ هارولد) مثل عدم قدرتهم على إرساله إلى القمر. وبعد ذلك وافق عابساً على ارتداء الثياب المرتَّبة التي أحضروها له، والصعود معهم إلى ظهر السفينة.

عندئذٍ أراهم كاسپيان أنحاء السفينة، وإن كانوا بالفعل قد شاهدوا معظمها. وصعدوا إلى أعلى المُقدَّم



فرأوا المُراقِب واقفاً على رفٍّ صغير داخل رقبة التنّين المزخرفة وناظراً بانتباه من خلال فم التنّين المفتوح. وداخل حُجرات المُقدَّم كان مطبخ السفينة ومقرُّ أشخاصٍ مثل عريف الملّاحين ونجّار السفينة والطبّاخ وقائد رُماة السهام. وإذا استغربت وجود مطبخ السفينة في جُزئها الأماميّ، وتخيّلتَ الدُخان صاعداً من مدخنته وراجعاً فوق السفينة كلّها، فذلك لأنك تُفكّر في السُفن البُخاريّة حيث تحصل دائماً ريحٌ عكسيّة مُقاوِمة. ولكنْ في السفينة الشراعية، تهبُّ الريح من الوراء، وأيُّ شيء ذي رائحة تسوقهُ الريح إلى الأمام أبعدَ ما يكون.

ثمّ أصعدهم كاسپيان إلى بُرج القتال، فكان مُخيفاً أوّلَ الأمر أن يترجّحوا ذهاباً وإياباً ويروا ظهر السفينة يبدو صغيراً وبعيداً جداً تحتهم. وكان يمكنكَ أن تدرك أنّك إذا سقطت من هناك فلا سبب خاصّاً يُوجب سقوطك على ظهر السفينة وليس في البحر. ثُمَّ أخذهم إلى السُّطيحة الخلفيّة حيث كان رِنْس وبحّار آخر يتولّيان أمر ذارع الدفّة الكبيرة، وخلفَها يرتفع ذيل التنّين مُغشّىً بماء الذهب والزخارف، ويحيط به من الداخل مقعد صغير. أمّا اسم

السفينة فكان «جوّابة الفجر». وقد كانت مجرَّد دُميةٍ صغيرة مقارنةً بإحدى السُّفن الحديثة الضخمة، أو حتّى بواحدةٍ من السفن الشراعيّة المختلفة الأشكال والأحجام (من كُوغ ودَرمَند وقُرقور وغليون) مّما كانت نارنيا تملكه عندما ملَكَ إدمون ولوسي هنالك قديماً تحت إمرة بطرس الملك الأعلى، إذ إنّ الملاحة كانت قد تلاشت كلُّها تقريباً تحت حُكم أسلاف كاسپيان. ولمّا أرسل عمُّه ميراز مغتصبُ العرش اللوردات السبعة في رحلة بحريّة بعيدة، اضطُرّوا إلى شراء سفينة من غالمْا وتزويدها ببحّارة غالْميّين دفعوا لهم أُجورهم. أمّا الآن فكان كاسپيان قد بدأ تعليم النارنيانيّين أن يُتقِنوا صناعة البحر والمِلاحة من جديد، وكانت جوّابة الفجر أفخر سفينة بناها حتّى الآن. وقد كانت صغيرة جدّاً بحيث كادت تنعدم أيّة مساحة على ظهرها قُدّام الصّاري الكبير بين الفتحة المركزيّة وقارب السفينة من جهة وخُمّ الدجاج من الجهة الأُخرى (وقد طاب للوسي أن تُطعِم الدجاج). غير أنّ تلك السفينة كانت حسناءَ بناتِ جنسها، «سيّدة» بحقّ كما يقول البحّارة، دقيقة الخُطوط، زاهية الألوان، وقد صُنِعت كلّ سارية وحبل ووتد فيها أدقّ صنعة.

ولم يكن يُسطاس يُعجبه شيءٌ بالطبع، فراح يتباهى بالسُّفن التي لها خطوط مُواصلات ثابتة، وبالمراكب البخاريّة، وبالطائرات والغوّاصات (وقد تمتم إدمون: «كأنّه يعرف أيّ شيء عنها!»). إلّا أنّ الآخرَين سرّتهما

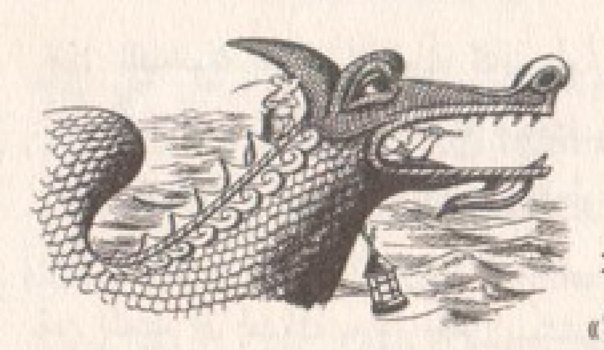
جدّاً. ومع ذلك فقد يتنبّه إلى أنّني سأمرض إن بقيتُ في تلك الحفرة وقتاً أطول. ويقول إدمون إنّ علينا ألّا نتذمّر لأنّ كاسپيان يُشاركنا في كلّ شيء بنفسه لتوفير مكانٍ لِلوُسي. وكأنّ ذلك لم يجعل المكان أكثر ازدحاماً وأسوأ بكثير. كدتُ أنسى أن أقول إنّ هناك أيضاً فأراً من نوعٍ ما يُسبّب للجميع أسوأ الارتعاب والارتباك. ويستطيع الآخرون أن يحتملوا سماجته إذا شاؤوا، وأما أنا فسوف أفتل ذنَبه قريباً إذا حاول اللعب معي. أمّا الطعام فهو رهيب أيضاً.

وقد وقعت المشكلة بين يُسطاس وريبيتشيب أسرع بكثير ممّا قد يُتوقّع. فقبل الغداء في اليوم التالي، بينما الآخرون حول المائدة ينتظرون (وركوب البحر يُسبّب شهيّة هائلة)، اندفع يُسطاس غاضباً وهو يلوي يديه المتشابكتين صارخاً من الألم:

«ذلك الوحش الصغير كاد يقتلني. أُصِرُّ على إبقائه تحت السيطرة دائماً. يُمكِنني أن أُقيم عليك دعوى، يا كاسپيان. يمكنني أن آمُرَك بإعدامه!»

في تلك اللحظة عينها ظهر ريبيتشيب أيضاً. وقد كان سيفُه مجرّداً، وشارباه مُخيفَي المنظر، إلّا أنّه كان بالغ التهذيب كعادته دائماً. وقال:

«ألتمِس عفوَكم جميعاً، ولا سيّما عفو صاحبة الجلالة. لو علمتُ



أنّه سيلجأ إلى هُنا، لانتظرتُ وقتاً أنسبَ لتأديبه!»

فسأل إدمون:

«تُرى، ماذا جرى؟»

وهذه حقيقةُ ما جرى. أحبَّ ريبيتشيب، إذ شعر بأنّ السفينة لا تسير أبداً بسرعةٍ كبيرة، أن يقعد على حافة مُقدَّم السفينة في الأعلى بجانب رأس التنّين تماماً، محدِّقاً إلى الأُفق الشرقيّ، ومغنّياً بصوته الخافت الصافر تلك الأغنية التي نظمتها له حوريّة الغابة قديماً. ولم يكن متمسّكاً بأيّ شيء مهما ترجّحت السفينة، بل حافظ على توازُنه بكلّ سهولة، ربّما بفضل ذيله الطويل المتدلّي نحو ظهر السفينة داخلَ حاجز ظهر السفينة. وكانت عادة ريبشيب تلك مألوفةً عند الجميع، وقد راقت البحّارة خصوصاً، لأنّه حين يكون أحدهم يؤدّي نوبة المراقبة المحدَّدة له تُتاح له فرصة التحدُّث مع الفأر المؤنِس. أمّا السبب الدقيق لتعثُّر يُسطاس وترنُّحه وانزلاقه، على طول طريقه إلى أعلى مُقدَّم السفينة، فلم أسمعه من أحدٍ قطّ (وكانت ساقاه لم تتعوّدا بعدُ السَّيرَ على

ظهر السفينة بثبات). لعلّه كان يأمل أن يرى البَر، أو لعلّه أراد أن يتسكّع في المطبخ ويختلس شيئاً. وعلى كلّ حال، فما إن رأى ذلك الذَنَب الطويل مُتدلّياً — وربّما أغراه باللّعب على الأرجح — حتّى تصوّر أنّه سيكون من المُمتع أن يُمسِكَ به ويُرجِّحَ ريبيتشيب بواسطته دائريّاً، أو رأساً على عَقِب مرّةً أو مرّتين، ثمّ يفرّ ضاحكاً. وفي بادئ الأمر، ظهر أنّ الخُطّة سارت سيراً حسناً. فلم يكُنِ الفأر أثقلَ بكثير من هرّةٍ كبيرة جدّاً. فطوّحه يُسطاس عن السياج بمثل لمح البصر... وكم بدا مُضحِكاً (كما حسب يُسطاس) بأطرافه الصغيرة المنبسطةِ كلّها إلى الخارج وبفمه المفتوح! ولكن من قِلّة حظّ يُسطاس أنّ ريبيتشيب الذي قاتل لأجل حياته مراراً عديدة لم يفقد صوابه قطّ ولو لحظة واحدة، ولا فقد مهارته أيضاً. وليس سهلاً جدّاً أن يَسحب الحيوانُ المُحارِب سيفه وهو يُدوِّم في الهواء مُمسكاً بذيله، إلّا أنّ ريبيتشيب فعل ذلك. وكان تالي شيء أدركه يُسطاس طعنتين مؤلمتين في يده أجبرتاه على إفلات الذنَب. أمّا ما تلى ذلك فكان أنّ الفأر استجمع قوّته من جديد كما لو كان كُرةً ترتدّ عن ظهر السفينة، وإذا به هناك يواجِه يُسطاس بشيءٍ حادٍّ طويل برّاقٍ كريه يُشبه سيخ اللحم، يُلوّح به ذهاباً وإياباً على مقربة بضع سنتيمتراتٍ فقط من معدته. (ولا يُعدُّ هذا مُخالفةً لأصول المُنازلة بالنسبة إلى الفئران في نارْنيا، لأنّك لا تكاد تتوقّع منها أن تبلغ أعلى من ذلك.)

وأخذ يُسطاس يُغمغِم: «كُفَّ عن هذا! قُمْ عنّي! أبعِد ذلك الشيء. إنّه خَطِر! كُفَّ عن هذا، كما قلتُ لك. سأقول لكاسپيان. سأجعله يُكمّم فمك ويربطك».

فصأصأ الفأر: «لماذا لا تجرِّد سيفك، يا جبان؟ اسحبه وقاتل، وإلّا ضربتك بباطن سيفي حتّى يَزرقّ جلدُك ويسوَدّ!»

وقال يُسطاس: «ليس لديّ سيف. أنا من دعاة اللّاعُنف. ولا أومن بالقتال».

فأزاح ريبيتشيب سيفه قليلاً وتكلّم بحزم قائلاً: «هل أفهم من كلامك أنّك لا تنوي أن تُبارِزَني بعد إهانتك لي؟»

فقال يُسطاس مُدارياً يده: «لا أعرف ماذا تقصد. وإن كنتَ لا تدري كيف تتقبّل مَزحة، فلن أُزعِج فكري من أجلك».

وقال ريبيتشيب: «إذاً خُذ هذه، وهذه... حتّى تتعلّم التهذيب... والاحترام الواجب تجاه فارسٍ من الفرسان، وتجاه فأر، وتجاه ذنب فأر..». وكان مع كلّ كلمة يوجّه إلى يسطاس ضربةً بجنب سيفه المصنوع من الفولاذ المصقول الرقيق الذي عالجه الأقزام، والفعّال واللّيّن مثل قضيب الخيزران. وقد كان يُسطاس (طبعاً) تلميذاً في مدرسة ليس فيها قِصاصٌ بَدَنيّ، فكان إحساس الضَّرب جديداً عليه. ولذلك السبب، مع أنّ ساقيه لم تكونا قد تعوّدتا حياة البحر بعد، لم يستغرق أكثر من دقيقة واحدة للنزول من

أعلى مُقدَّم السفينة وقطْع طول ظهرها بكامله والاندفاع عبر باب الحُجرة، وما يزال ريبيتشيب يُطارِده مطاردةً حامية. وبالحقيقة، بدا ليُسطاس أنَّ سيف الفأر كان حامياً أيضاً مثل المُطاردة. ولربّما كان أيضاً حامياً حُموَّ الحديد في الفُرن، بناءً على الإحساس الذي خلَّفه!

ولم تكن تسوية المسألة صعبة جداً حالما تبيَّن ليُسطاس أنَّ الجميع نظروا إلى فكرة المُبارزة نظرةً جدِّيَّة، وسمع كاسپيان يعرض عليه أن يُعيرَه سيفاً، ودِرينيان وإدمون يتباحثان في ضرورة إصابته بإعاقة ما للتعويض عن كونه أكبر بكثير من ريبيتشيب. فاعتذر مُقطِّباً، ثم ذهب مع لوسي لتُطهِّر له يده وتضمِّدها، ثمَّ مضى إلى سريره. وقد حرص على أن يُداريَ يده وهو يتمدَّد على جنبه.

الفصل الثالث

الجُزُر المُنفَرِدة

هتف المُراقِب من أعلى المُقدَّم: «إنّي أرى برّاً!» وإذا بلوسي، وقد كانت تُحادِث رِنْس على السُّطَيحة الخلفيَّة، تهبط السُّلَّم مُسرعةً وتركض نحو المُقدَّم. وسرعان ما انضمَّ إليها إدمون وهي ذاهبة، فوجدا كاسپيان ودِرينيان وريبيتشيب قد سبقوهما إلى أعلى المُقدَّم.

كان ذلك الصباح بارداً، وقد شحب وجه السماء وبات لون البحر أزرق قاتماً جداً تتخلَّله تلالٌ صغيرة من الزَّبَد.



وهنالك، على بُعدٍ غير بعيد جداً من حاجز الميمنة، كانت أقربُ الجُزر المنفردة، فِليماث، أشبه بتلّة خضراء صغيرة في البحر، ووراءها على مسافةٍ بعيدة، السُّفوح الخضراء لشقيقتها دُورْن.

فقالت لوسي مُصفّقةً بيديها: «فِليماث القديمة بعينها! دُورْن القديمة بعينها! أُوه، يا إدمون، ما كان أطول المُدّة منذ رأيناهما آخِر مرّة!»

وقال كاسپيان: «ما فهمتُ قطُّ سبب انتمائهما إلى نارْنيا. هل أخضعهما بطرس الملكُ الأعلى؟»

فأجاب إدمون: «أُوه، لا! فقد كانتا تنتميان إلى نارنيا قبل عهدنا... في أيّام الساحرة البيضاء».

(وبالمناسبة، لم أسمع بعدُ كيف صارت تلك الجُزر النائية مُنضوية تحت تاج نارنيا. فإذا سمعْت، وإذا كانت القصّة مشوّقة، فسأحكيها في كتابٍ آخر.)

وسأل دِرينيان: «أندخِل السفينةَ إلى الميناء هنا، يا مولاي؟»

فقال إدمون: «لا أعتقد أنّ من النافع كثيراً أن نُرسيَ على الشاطئ في فِليماث. فقد كانت غير مأهولة تقريباً في أيّامنا، ويبدو أنّها ما تزال كذلك اليوم أيضاً. وقد كان الناس يُقيمون بمُعظمهم في دُورْن، كما أقام قليل منهم في آڤْرا — وهي الجزيرة الثالثة؛ ولا يمكن أن نراها حتّى الآن. أمّا فِليماث فكانوا يستخدمونها لتربية الغَنَم فقط».

وقال دِرينيان: «إذاً، علينا أن ندور حول ذلك الرأس، كما أعتقد، ثُمّ نُرسي في دُورْن. وهذا يعني أنّ علينا أن نُجذِّف».

فقالت لوسي: «يؤسِفني ألّا نُرسيَ في فليماث. فقد كنتُ أتمنّى أن أسير عليها مرّةً أخرى. إنّها كانت منعزلة كلّياً عُزلةً من نوع حُلو، بكلّ ما فيها من عُشب وبَرسيم ومياه بحرٍ رائقة».

وقال كاسپيان: «وأنا أيضاً أُحِبُّ أن أُمدّد رجليّ قليلاً. سأقول لكم ماذا نفعل. لماذا لا نذهب إلى الشاطئ بالقارب ثُمّ نبعث به إلى السفينة، وعندئذٍ يمكننا أن نتمشّى في فِليماث، وبعد ذلك نصعد إلى جوّابة الفجر من جديد في الجهة الأُخرى؟»

ولو أنّ كاسپيان كان في هذه المرحلة خبيراً مثلما أصبح في وقتٍ تالٍ من هذه الرحلة لَما اقترح اقتراحاً كهذا. ولكنّ هذا الاقتراح بدا في حينه مُمتازاً. وقد قالت لوسي: «أُوه، لنفعلْ ذلك!»

وسأل كاسپيان يُسطاس: «ستذهب معنا، أليس كذلك؟» وكان يُسطاس قد صعد إلى ظهر السفينة ويده مُضمّدة.

فقال يُسطاس: «سأقبل أيّ شيء يُبعِدني عن هذا القارب البغيض!»

وقال دِرينيان: «بغيض؟ ماذا تقصد؟»

فأجاب يُسطاس: «في بلدٍ مُتمدّن كالذي أنا منه، تكون السفن كبيرة جداً بحيث إنّك حين تكون على متنها لا تشعر بأنّك تركب البحر أبداً».

وقال كاسپيان«في هذه الحال، يمكنك أيضاً أن تبقى على البرّ. هلاّ تقول لهم، يا دِرينيان، أن يُنـزلوا القارب!»

وهكذا صعد الملك والفأر وإدمون ولوسي ويُسطاس كلُّهم إلى القارب وأُخِذوا إلى شاطئ فِليماث. ولمّا تركهم القارب وجذَّف به الرجال عائدين إلى السفينة، التفتوا كلُّهم حوالَيهم، فأدهشهم جميعاً كم بدت جوّابة الفَجر صغيرة!

كانت لوسي بالطبع ما تزال حافية القدَمين، بعدما نفضت حذاءها عنها لمّا سبحت في البحر، ولكنْ لا صعوبة في ذلك حين يمشي المرء على التربة الليّنة الناعمة. وقد كان مبهجاً أن تنـزل على الشاطئ من جديد وتشمّ رائحة التّراب والعشب، حتّى لو بدا أنّ الأرض تترجَّح صعوداً ونزولاً أوّلَ وهلة، كما يحصل بعد ركوبك البحر مُدّةً. وكان الطقس هنا على الشاطئ أكثر دفئاً بكثير مما كان على متن السفينة، ووجدت لوسي الرمل مبهجاً لقدَميها وهم يمشون عليه. وكان هنالك قبَّرة تُغرِّد.

وتوغّلوا في الجزيرة حتّى صعدوا تلاً منحدراً باعتدال لكنْ منخفضاً. وعلى قمّته بالطبع التفتوا إلى الوراء، فإذا بجوّابة الفجر تتألّق كفراشة زاهية وتُبحِر ببطء نحو الشمال الغربيّ بواسطة مجاذيفها. ثمّ اجتازوا قمّة الجبل فلم يعودوا يقدرون أن يَرَوها بعد.

عندئذٍ انبسطت أمامهم جزيرة دُورْن، تفصلها عن

فليماث قناةٌ عرضها نحو كيلومتر ونصف، وقد انبسطت وراءها نحو اليسار جزيرةُ آفرا. وتيسَّرت لهم بسهولة رؤية مدينة مِيناصُغرى البيضاء على جزيرة دُورْن.

وفجأةً قال إدمون: «عجباً! ما هذا؟»

ففي الوادي الأخضر الذي كانوا نازلين إليه، كان ستّةُ أو سبعة من الرجال الخَشِني المظهر قاعدين في ظلّ شجرة وكلُّهم مُسلَّحون.



فقال كاسپيان: «لا تقولوا لهم مَن نحن».

وقال ريبيتشيب: «ولماذا لا، من فضلك يا صاحب الجلالة؟» وكان قد رضي بأن يركب على كَتِف لوسي.

فأجاب كاسپيان: «لقد خطر في بالي أنّه ربّما لم يسمع أحد بأخبار نارنيا منذ زمان بعيد. فمن المُحتمل تماماً أنهم لم يعودوا يعترفون بسيادتنا. وفي هذه الحالة قد يكون غير مأمون جداً أن يعرفوا أنّي الملك».

فقال ريبيتشيب: «لدينا سيوفُنا، يا مولاي!»

أجاب كاسپيان: «نعم، يا ريب، أعرفُ أنّها لدينا. ولكنْ إذا كانت المسألة هي إخضاع الجزر الثلاث من جديد، أُفضّل أن أعود بجيش أكبر طبعاً».

وعندئذٍ كانوا قد صاروا على مقربة من الغُرباء، فإذا بواحدٍ منهم — وكان رجلاً ضخماً أسود الشعر — يُنادي: «صباح الخير عليكم».

فقال كاسپيان: «وصباح الخير عليكم. أما زال في الجزر المنفردة حاكِم؟»

وأجابه الرجل: «بالتأكيد! إنّه الحاكم غُمباس. وسعادته في مِيناصُغرى. إلّا أنكم ستستريحون وتشربون معنا كأساً».

فشكرهم كاسپيان، مع أنّه لا هو ولا الباقون أعجبهم منظر معارفهم الجُدَد هؤلاء، ثمّ قعدوا كلُّهم. ولكن ما كادوا يرفعون كؤوسهم إلى شفاههم، حتّى أومأ الرجل ذو الشعر الأسود إلى رفقائه، فأطبقوا على الضيوف الخمسة بسرعة البرق، وسرعان ما وجد هؤلاء أنفسهم مطوَّقين بأذرعٍ قويّة. وحصل عِراك قصير، إلّا أنّ الأفضليّة كانت إلى جهةٍ واحدة، وبسُرعة جُرِّد الجميع من أسلحتهم وقُيِّدت أيديهم وراء ظهورهم... ما عدا ريبيتشيب، إذ كان يتلوّى في قبضة مُعتقِلِه وهو يُعضعِض بشِدّة.

وقال القائد: «انتبهْ لهذا الحيوان، يا تاكْس. لا تؤذِه. سيجلب لنا أفضل سعر بين المجموعة، ولا أشكّ في هذا!»

فزعق ريبيتشيب: «جبان! رِعْديد! أعطِني سيفي، وحرِّر مخالبي إن كنتَ تجرؤ!»

وصفر تاجر العبيد (إذ كان كذلك فعلاً): «ياي! إنّه ينطق! جيِّدٌ أنّني لم أؤذِه. أكون مُغفّلاً إن قبلتُ بيعَهُ بأقلّ من مئتَي هلال». وكان الهلال الكالورمِنيُّ — وهو العملة الرئيسيّة في تلك النواحي — يساوي ثُلث جنيه استرليني تقريباً.

فقال كاسپيان: «إذاً ذلك هو ما أنت: خَطّاف ونخّاس! آمل أن تكون فخوراً بهذا!»

وقال النخّاس: «والآن، الآن، الآن... لا تبدأ بالثرثرة أبداً. كلّما تقبّلتم الأمر بسهولةٍ أكثر، كان كلُّ شيء أحسن، أفهمت؟ فأنا لا أقوم بهذا على سبيل المتعة. هذا بابُ رِزقي، شأني شأنُ غيري».

فقالت لوسي، وهي تُخرِج الكلمات بشيء من الصعوبة: «إلى أين ستأخذنا؟»

أجاب تاجر العبيد: «إلى مِيناصُغرى، فهناك تُقام السوق غداً».

وسأل يُسطاس: «هل مِن قُنصليّة بريطانيّة هنا؟»

فقال الرجل: «هل مِن ماذا؟»

ولكن قبل أن يتعب يُسطاس من الشرح بوقتٍ طويل، قال النخّاس ببساطة: «طيِّب، كفاني ثرثرة. إنّ الفأر صفقة جيِّدة، ولكنّ هذا الثرثار لا يستحقّ إلّا رفسة حمار. فلنتقدَّمْ، يا أصحاب!»



ثُمَّ رُبط الأسرى الآدميُّون الأربعة معاً بحبلٍ واحد، لا ربطاً مُزعِجاً بل مُحكَماً، وأُجبروا على السير نزولاً نحو الشاطئ. أمَّا ريبيتشيب فقد حُمِل حملاً. وقد توقَّف عن العضّ بعدما هُدِّد بربط فمه، ولكنَّه ما فرغ قطُّ من قول الكثير، حتَّى تساءلت لوسي حقّاً كيف يمكن لأيّ إنسان أن يتحمَّل سماع الأقوال التي تفوَّه بها الفأر بحقّ تاجر العبيد. غير أنَّ هذا النخَّاس*، أبعدَ ما يكون عن الاعتراض، لم يقُل سِوى: «تابع كلامك!» كلَّما توقَّف ريبيتشيب لأخذ نَفَس، مُضيفاً بين حين وآخر: «هذا جميل كأنَّه مسرحيَّة»، أو «بلايمي، كان يمكنك منعُ نفسكَ من التفكير أنَّه يفهم ما يقوله!» أو «هل درَّبه واحدٌ منكم على النُّطق؟» وقد أغاظ ذلك ريبيتشيب جدّاً حتَّى إنَّه في الأخير كاد

* النخاس: هو التاجر الذي يشتري الناس ويبيعهم عبيداً.

يختنق من كثرة الأشياء التي فكَّر في أن يقولها كلِّها معاً، فلَزِم الصمت.

ولمَّا وصلوا إلى الساحل المُطِلّ على دُورْن، وجدوا قرية صغيرة ومركباً طويلاً عند الشاطئ، وفوق البحر على مسافةٍ غير بعيدة كثيراً، سفينةً وسخة كأنَّها مُمرَّغة بالوحل.

عندئذٍ قال تاجر العبيد: «والآن، يا صغاري، لا تُحدِثوا أيَّ ضجَّة، لكي لا يكونَ لديكم في ما بعد ما تبكون عليه. إلى القارب جميعاً!»

في تلك اللحظة خرج رجلٌ مُلتحٍ أنيق المظهر من أحد البيوت (كان فُندقاً صغيراً، كما أظنّ) وقال:

«أحسنت، يا بُغ! مزيدٌ من بضائعك المعتادة؟»

فانحنى النخَّاس – وقد بدا أنَّ اسمه بُغ – انحناءةً خفيضة جدّاً وقال بصوتٍ تملُّقيّ: «نعم، إذا سرَّ هذا سيادتك».

وسأله الآخر، مشيراً إلى كاسبيان: «كم تطلب مقابل ذلك الفتى؟»

فقال بُغ: «آه! عرفتُ أنَّ سيادتك ستختار الأفضل. إنَّ سيادتك لا تنخدع بأيّ شيء من الدرجة الثانية. فهذا الفتى راقني كثيراً جدّاً، حتَّى كأنَّني قد شُغِفت به فعلاً. إنَّني رقيق القلب جدّاً بحيث لم يكُن ينبغي أن أمتهن هذه المهنة. ومع ذلك، فبالنسبة إلى زبون مثل سيادتك..».

وهنا قال السيِّد بحزم: «قُل لي الثمن الذي تطلبه، يا قَذِر! أتعتقد أنّني أودُّ الإصغاء إلى الكلام الفارغ عن مهنتك الدنيئة؟»

فأجاب بُغ: «ثلاث مئة هِلال، يا سيِّدي، لسيادتك المكرَّمة، ولكنْ لأيّ شخصٍ آخر..».

«سأدفع لك فيه مئة وخمسين».

فاندفعت لوسي تقول: «آه، رجاءً، رجاءً، لا تُفرِّقْ بيننا، مهما فعلْت! أنت لا تعرف أنَّ..». ولكنّها توقّفت هنا إذ لاحظت أنَّ كاسپيان – حتّى في تلك اللحظة أيضاً – لا يُريد أن يُعرَف.

وقال السيِّد: «مئة وخمسون إذاً. أمّا أنتِ، أيّتها الصبيّة الصغيرة، فأنا آسف لأنّني لا أقدر أن أشترِيَكم كلَّكم. فُكَّ رباط فتاي، يا بُغ. واسمعْ! عامِلْ هؤلاءِ الآخرين معاملةً حسنة ما داموا في يدك، وإلّا فستكون حالك أسوأ».

فقال بُغ: «حسناً! ومَن سمع برجُلٍ ماجِد يمتهن مهنتي يُعامِل بضائعه معاملةً أحسن من معاملتي؟ عجباً! إنّني أعامِلُهم كأنّهم أولادي».

وقال الآخر باشمئزاز: «يُرجَّح تماماً أن يكون هذا صحيحاً!»

ثمَّ حلَّت اللحظة الرهيبة. فقد حُلَّ رباط كاسپيان، وقال له سيِّدُه الجديد: «مِن هُنا، يا صبيّ!» فانفجرت لوسي باكيةً، وبَدَت الكآبة الشديدة على إدمون. ولكنَّ كاسپيان نظر إلى الوراء من فوق كتفه وقال: «تشجَّعوا! أنا متأكِّد أنَّ كلَّ شيء سيؤول إلى الخير في الأخير. إلى اللقاء!»

وقال بُغ: «والآن، يا آنِستي الصغيرة، لا تبدإي بإظهار حُزنك حتّى لا تُفسِدي منظرَكِ حين تُعرَضين في السوق غداً. كوني فتاةً عاقلة، لكي لا يكونَ لديك ما تبكين عليه، أفهمتِ؟»

ثمَّ جذَّف بهم الرجال في المركب الطويل إلى سفينة العبيد، حيثُ أُخِذوا إلى مكانٍ طويل شِبه مُعتِم ومعدوم النظافة، وهناك وجدوا كثيرين غيرهم من الأسرى التُعَساء؛ لأنَّ بُغ كان بالطَّبع قُرصاناً وقد رجع لِتوّه من التَّجوال بين الجُزر وأسْرِ ما تناله يده. ولم يلتقِ الأولاد أحداً يعرفونه، إذ كان مُعظم الأسرى من غالمْا وتِريبنثيا. وهنالك قعدوا على القشّ وهم يتساءلون عمّا كان يجري لكاسپيان، وحاولوا كفَّ يُسطاس عن التكلُّم وكأنَّ اللوم يقع على الجميع ما عداه هو.

وفي تلك الأثناء، كان كاسپيان يقضي وقتاً أكثر إمتاعاً بكثير. فالرجل الذي اشتراه اقتاده في زقاقٍ ضيِّق بين بيتين من بيوت القرية، ثمَّ إلى أرضٍ فضاء وراء القرية. ثمَّ التفت وقابله وجهاً لوجه، قائلاً:

«لا داعيَ لأن تخاف منّي، يا بُنَيّ. سأُعامِلُك معاملةً حسنة. لقدِ اشتريتُك لأجل وجهك. فإنّك ذكّرتني بأحدهم».

فقال كاسپيان: «وهل لي أن أسألك مَن هو، يا سيِّدي؟»

«إنّك تذكّرني بسيِّدي كاسپيان، مَلِك نارْنيا».

عندئذٍ قرَّر كاسپيان أن يُجازِف بكلّ شيء دفعةً واحدة، فقال:

«يا سيِّد، أنا سيِّدُك! أنا كاسپيان، مَلِك نارْنيا».

وقال الرجل: «إنّك تصرِّح تصريحاً خطيراً. فكيف أعرف أنّ هذا صحيح؟»

فقال كاسپيان: «أولاً، من وجهي. ثانياً، لأنّني أعرف مَن أنت، بنسبة واحدٍ من ستّة تخمينات. فأنت واحد من أولئك اللوردات السبعة الذين بعثهم عمّي ميرا في رحلة بحريّة والذين قد انطلقتُ أنا للبحث عنهم — آرغوز أو بيرْن أو أُكتيشيان أو رستيمار أو مَفرَمُورن أو... أو...

— لقد نسِيتُ الآخرَين! وأخيراً، إذا أعطيتني سيادتُك سيفاً، فإنّي أبرهن في جسم أيّ رجل يُبارزني مبارزةً شريفة أنّني كاسپيان، ابنُ كاسپيان، ملكُ نارنيا الشرعيّ، سيِّد قصر كيرپراڤيل، إمبراطور الجُزر المنفردة».

وهتف الرجُل: «يا للسَّماء! هوَ صوتُ أبيه، وهي براعتُهُ في الكلام! ولائي لك، يا ذا الجلالة...». وهناك في الحقل ركع وقبَّل يد الملك.

ثمّ قال كاسپيان: «إنّ المال الذي دفعَتهُ سيادتُك مُقابِل شخصنا سيُصرَف لك من خزينتنا كاملاً».

فقال اللورد بيرْن، لأنّه كان هو ذلك الرجل: «لم

يَصلِ المال بعد إلى كيس بُغ، وأنا واثق أنّه لن يصل أبداً! لقد حرّضت سعادة الحاكم مئة مرّة على سحق هذه المتاجرة الدنيئة بأجساد البشر».

وقال كاسپيان: «سيِّدي اللورد بيرْن، علينا أن نتحدَّث عن حالة هذه الجُزر. ولكنْ أخبرني أوّلاً بقصّة سيادتك الخاصّة».

فأجاب بيرْن: «هي قصيرة جدّاً، يا مولاي. لقد وصلتُ إلى هُنا مع زُملائي الستّة، وأحببتُ فتاةً من هذه الجُزر، وأحسستُ أنّني اكتفيتُ من ركوب البحر. ولم تكن لديّ نيّة للرجوع إلى نارْنيا، ما دام زمام الحُكم بيد عمّ جلالتك. وهكذا تزوّجتُ، وعشتُ هنا منذئذٍ».

«وكيف هو هذا الحاكم، غُمباس هذا؟ أما زال يعترف بأنّ مَلِك نارنيا هو سيِّده؟»

«بالأقوال، نعم. فكلّ شيء يُعمَل باسْم الملك. ولكنّه لَن يُسَرّ كثيراً بأن يجد ملكاً من ملوك نارنيا حيّاً حقيقيّاً يأتي عليه. ولو وقفتَ جلالتُك أمامه وحيداً وغير مُسلَّح... لمَا أنكر خضوعه لك، ولكنّه لا بدّ أن يتظاهر بعدم تصديقك، ومن ثَمّ تكون سُموّ جلالتك في خطر. فماذا لجلالتك في مياه البحر هذه؟»

أجاب كاسپيان: «هناك سفينتي تدور الآن حول هذا الموقع. وعددُنا نحو ثلاثين سيفاً، إذا اضطُرِرنا إلى القتال. ألا ينبغي أن نأتي بسفينتي ونُطبِق على بُغ، ونُحرِّر أصدقائي الذين أَسَرهم؟»

فقال بِيرن: «لا، حسب رأيي. فما إن يحدث قتال، حتّى تنطلق سفينتان أو ثلاث من ميناصُغرى لنجدة بُغ. فينبغي لجلالتك أن تلجأ إلى عَرضٍ لمقدار من القوّة يفوقُ ما لديك فعلاً، مُستخدِماً رُعب اسم الملك. ولا ينبغي أن يصل الأمر إلى حدّ القِتال في معركة فعليّة. فإنّ غُمباس جبانٌ كالأرنب، ومن الممكن التهويل عليه لإخافته!»

وبعد المزيد من المحادثة القليلة، نزل كاسپيان وبيرن إلى الشاطئ، غربيَّ القرية قليلاً، وهناك نفخ كاسپيان في بوقه. (لم يكن هذا هو بوق نارنيا السحريّ الكبير، بوق الملكة سوزان، إذ كان قد ترك ذلك البوق في القصر كي يستعمله نائبُه طرمبكن إذا حلّت بالوطن ضرورة قُصوى في غياب الملك.) ولمّا كان دِرينيان ينتظر أيّة إشارة، فقد عرف البوق الملوكيّ حالاً، ووجّه جوّابة الفجر نحو الشاطىء. ثمّ انطلق القارب من جديد، وبعد لحظات بات كاسپيان واللورد بيْرن على متن السفينة يشرحان الوضع لدِرينيان. ومثلَ كاسپيان تماماً، أراد دِرينيان أن تُطارِد جوّابة الفجر سفينة العبيد في الحال وتقتحمها، ولكنّ بيْرن أبدى الاعتراض ذاته، ثمّ قال:

«أيّها الرُبّان، اعبرْ بسفينتك هذه القناة، ثُمَّ دُر نحو آفرا، حيثُ أراضيّ الخاصّة. ولكن أوّلاً ارفعْ عَلَم الملك، وانشُر جميع الأتراس، وأرسلْ أكبر عددٍ ممكن من الرجال إلى بُرج القتال. وعلى بُعد خمس رِميات قوس من هُنا، عندما يصير عُرض البحر إلى جهة مَيسَرتك، أطلِقْ بضعَ إشارات».

وسأل درينيان: «إشارات؟ لِمَن؟»

«طبعاً، لجميع السفن الأُخرى التي ليست لدَينا، ولكن يُرجَّح جدّاً أن يظنّ غُمباس أنّنا نملكها».

قال دِرينيان: «أوه، فهمْت!» ثمّ أضاف وهو يفرك يديه: «وسيلتقطون إشاراتنا...ثمّ ماذا أقول؟ إلى الأُسطول كُلّه: دُوروا حول جنوب آفرا وتجمّعوا مُقابِل...؟»

فقال اللورد بِيرن: «مُقابِل أرض بيْرن! هذا سينفع على نحوٍ ممتاز. فإنّ رحلة الأُسطول بكاملها (لو كان هنالك أيّة سُفن!) ستكون خارج نطاق الرؤية من ميناصُغرى».

كان كاسپيان حزيناً على الآخرين الذين يُعانون الأسر في سفينة بُغ النخّاس، ولكنّه لم يتمالكْ نفسه عن الاستمتاع بباقي نهاره. وفي أواخر عصر ذلك النهار (إذ كان عليهم أن يُبحِروا بواسطة المجاذيف فقط)، بعدما داروا إلى اليمين حول الطرف الشماليّ الشرقيّ من جزيرة دُوْرن، ثمّ إلى اليسار مجدّداً حول رأس آفرا، دخلوا إلى مرفإٍ جيّد عند شاطىء آفرا الجنوبيّ، حيث كانت أراضي بيْرن البهيّة تنحدر حتّى حافة الماء. وكان قوم بيْرن

كلُّهم أحراراً، وقد شاهدوا قسماً كبيراً منهم يشتغلون في الحقول، فكانت تلك أُراضيَ سعيدة ومزدهرة حقاً. هنالك نـزلوا كلُّهم إلى البرّ، حيث أُقيمت لهم وليمة تليق بالملوك في بيتٍ خفيض، سقفُه مرفوعٌ على أعمدة، مُطِلٌّ على الخليج. وقد رحَّب بهم خيرَ ترحيب بِيرن وزوجته الفاضلة وبناتُه المَرِحات. ولكنْ بعد حلول الظلام، أرسل بيرن ساعياً إلى دُورْن لطلب بعض التحضيرات (لم يقُل ما هي تماماً) استعداداً لليوم التالي.

الفصل الرابع

ما فعله كاسپيان هناك

في صباح الغد، دعا اللورد بيْرن ضيوفه باكراً، وبعد الفَطور طلب من كاسپيان أن يأمر كلَّ رجُل لديه بأن يلبس سلاحه الكامل. ثمَّ أضاف: «وقبل كلِّ شيء، ليكُن كلُّ شيء مُرتَّباً ولائقاً كما لو كان ذلك صباحَ أوّل معركة في حربٍ عظيمة بين ملوكٍ نُبلاء يُشاهِدها العالم كلُّه».فتمَّ ذلك؛ ثُمَّ توجَّه كاسپيان وقومه، مع بيْرن وبعضٍ من قومه، نحو مِيناصُغرى في ثلاث مراكب مُحمَّلة رجالاً. وقد رفرف علم الملك فوق مؤخَّر مركبه، وكان بوّاقُه برفقته.

ولمّا وصلوا رصيف ميناصُغرى، وجد كاسپيان جمعاً كبيراً محتشداً لاستقباله. فقال بِيرْن: «هذا هو ما أرسلتُ لأجله البارحة. هؤلاء كلُّهم أصدقائي وهم قومٌ شُرَفاء». وما إن ترجَّل كاسپيان على الشاطىء، حتّى انفجر الجمهور بالتحيّات، وهُتافاتِ «نارنيا! نارنيا! عاش الملك!» وفي اللحظة عينها — وقد كان ذلك أيضاً بفضل مبعوثي بيْرن — بدأت الأجراس تُقرَع في أنحاءٍ كثيرة من المدينة. ثمَّ أمر كاسپيان برفع رايته ونفْخ بوقه، وسحَب

كلُّ رجُلٍ سيفه، ورسم على وجهه علامات الحزم والعزم والابتهاج، وتقدَّموا بانتظام وسط الشارع حتّى أخذ يهتزُّ تحت أقدامهم، وأسلحتهم تبرق برقاً (إذ كان ذلك نهاراً مُشمِساً) بحيث لا يكاد المرء يقدر على التحديق إليها.

كان الهاتفونَ أوّلَ الأمر هم أولئك الذي نبَّههم ساعي بيْرن فعرفوا ما كان جارياً وأرادوه أن يجري. ولكنْ في ما بعد انضمَّ إليهم جميعُ الأولاد، لأنّهم كانوا يحبُّون المواكب، وقد شاهدوا قليلاً جدّاً منها. وبعدئذٍ انضمَّ جميع صِبْية المدارس لأنّهم أيضاً كانوا يحبُّون المواكب، وشعروا بأنّه كلّما زاد الضجيج والإزعاج قلَّ احتمالُ فتح المدارس لأبوابها ذلك الصباح. ومن ثَمَّ أطلَّتْ جميع العجائز برؤوسهنَّ من الأبواب والشبابيك، وبدأنَ يُثرثِرن ويهتفن لأنَّ القادِمَ مَلِك، وما هو الحاكِمُ مُقارنةً به؟ وقدِ انضمَّت جميع الصبايا إلى المرحِّبين للسبب نفسه، وأيضاً لأنَّ كاسپيان ودِرينيان والآخَرِين كانوا وُسَماء. ثمَّ أقبل جميع الشبّان ليَرَوا ما كانتِ الشابّاتُ يتفرَّجن عليه. حتّى إنّه لمّا وصل كاسپيان إلى أبواب القصر، كانت المدينة كلُّها تقريباً آخِذةً بالهُتاف. وحيث كان غُمباس يجلس في القصر — غائصاً وعابثاً بالحسابات والمراسم والقوانين والأُصول — سَمِعَ الضجّةَ الضاجّةَ.

وعند بوّابة القصر نفخ بوّاق كاسپيان نفخةً وصاح: «افتحوا المَلِك نارنيا، وقد جاء يزور خادمه الأمين والمحبوب جدّاً حاكِمَ الجُزر المُنفرِدة!» وكان كلُّ شيء في الجُزر يومَذاك يجري بأسلوبٍ يتميَّز بالكَسَل والإهمال. فانفتح البابُ الجانبيُّ والصغير فقط، وخرج منه رجلٌ أشعث الشعر على رأسه قُبَّعة عتيقة وَسِخة، بدَلَ الخوذة، وبيده رمحٌ قديم صَدِئ. وأخذت عيناه تطرفان أمام الأشكال

البرَّاقة قُدَّامه ثم غمغم: «لا طَقدِرون... رَوصَعاطَطه!» (أي: «لا تقدرون أن تروا سعادته» — على طريقته). وأضاف ببطء: «لا مُقابلات بلا موعد، إلّا بين التاسعة والعاشرة مساءً، ثاني سبت من كلّ شهر».

فجأر اللورد بيرْن بصوتٍ راعد: «اكشفْ عن رأسك أمام نارنيا، يا حقير!» ثمّ لَطمه بيده التي يُغطّيها قُفّازُ الدِّرع لطمةً أحاطت قُبّعته وطيَّرتها عن رأسه.

وبدأ البوّاب يقول: «مهلاً! ما سبب هذا كلّه؟» ولكنْ لم يُبالِ به أحد. ثمّ اندفع اثنان من رجال كاسپيان عبر الباب الجانبيّ، وبعد قليل من الصراع مع قضبان البوّابة وأقفالها (لأنّ كلّ شيء كان صَدِئاً) فتحاها على مصراعيها واسعةً. وعندئذٍ تقدَّم الملك وأتباعه بسرعة إلى ساحة الدار. فإذا عددٌ من حرّاس الحاكم يتسكّعون هناك، وعددٌ قليل آخر (مُعظَمهم يمسحون أفواههم) يُهَروِلون باضطراب خارجين من مختلف الأبواب. ومع أنّ سلاح هؤلاء كان في حالةٍ مَعيبة، فلو تيسَّرت لهم قيادة صالحة، أو عرفوا ما كان يجري، لكان ممكناً أن يُقاتِلوا. وهكذا كانت تلك هي اللحظة الخَطِرة. ولكنّ كاسپيان لم يُعطِهم وقتاً كي يُفكّروا، إذ سألهم:

«أين قائدكم؟»

فأجاب شابٌّ مُتكاسِل ومتأنّق، لا يحمل أيَّ سلاح: «أنا هو تقريباً... إن فهمتَ ما أعنيه».

وقال كاسپيان: «رغبتُنا أن تكون زيارتُنا التفقّديّة الملوكيّة لمنطقه الجُزر المنفردة التابعة لنا — إن أمكن —

مُناسَبةَ فرح وسرور، لا خوفٍ ورُعب، لرعايانا الطائعين ذوي الولاء. ولولا ذلك، لكان عندي ما أقوله عن حالة تأهُّب رجالك وسلاحهم. وفي هذه الحالة هذه، أنت تحتَ صفحنا وعفونا. أصدِر أمراً بفَتح برميلٍ من النبيذ حتّى يشرب رجالك نخْب صحّتنا. ولكنْ عند ظُهر غَد، أرغب أن أراهم هُنا في هذه الساحة جنوداً متأهّبين، لا رجالاً مُشرَّدين. فاهتمّ بهذا تحت طائلةِ مُعاناة استيائنا الشديد».

فتثاءبَ القائد، ولكنّ بيرْن صاح في الحال: «هُتافاً مُثلَّثاً للملك!» وإذا بالجنود الذين فهموا أمْر برميل النبيذ، مع أنّهم لم يفهموا شيئاً سوى ذلك، يُشاركون في الهُتاف. ثمّ أمَر كاسپيان معظم رجاله هو بالبقاء في الساحة، فيما دخل إلى البَهو هو و بيرن ودِرينيان وأربعةٌ آخرون.

ووراء طاولةٍ في الطرف الأقصى، كان قاعِداً سعادةُ حاكم الجزر المنفردة وحوله بعض مُعاونيه. وكان غُمباس رجلاً يبدو عليه الاصفِرار وله شعرٌ كان أحمر إلّا أنّه الآن بات أشيب بمُعظمه. فنظر نظرة خاطفة إذ دخل الغُرباء ثمّ عاد ينظر إلى أوراقه، وقال بطريقة آلية: «لا مُقابلات بلا موعِد، إلّا بين التاسعة والعاشرة مساءً، ثانيَ سبتٍ من كلّ شهر».

وأومأ كاسپيان برأسه إلى بيرْن ثمّ وقف جانباً. فتقدّم بيرْن ودِرينيان خطوةً إلى الأمام، ثم أمسك كلٌّ منها بطَرَفٍ

من الطاولة. ورفعاها ورميا بها إلى ناحيةٍ من نواحي البَهو حيث انقلبت وتبعثر منها شلّالٌ من الأوراق والملفّات والمحابر والأقلام وشمعُ الخَتْم والوثائق. ثمّ عمدا بغير قساوة، ولكنْ بإحكام كما لو كانت أيديهما كمّاشتين من فولاذ، إلى سحب غُمباس عن كُرسيِّه، وأوقفاه مُقابِلَه على بُعد مِترٍ واحدٍ تقريباً. وفي الحال قعد كاسپيان على الكُرسيّ، ووضع سيفه المُجرَّد على رُكبتيه. ثمّ قال مُركّزاً عينيه على غُمباس:

«سيِّدي اللورد، إنّكَ لم تستقبلنا بمثل ما توقّعنا من الترحيب. أنا مَلِك نارنيا».

فردَّ الحاكم: «لم يُذكر شيءٌ عن هذه الزيارة في المُراسلات، ولا في محاضِر الجلسات. لم يُعلِمنا أحدٌ بمثل

هذا التفقُّد. فهذا ليس بحسب الأُصول. يُسعِدني النظر في أيِّ طلبات..».

وتابع كاسپيان: «وقد جئنا لتفحُّص تولّي سعادتك لَمهامِّ منصبك. وثمّة نُقطتان خصوصاً أطلب تفسيراً بشأنهما. أوّلاً، لستُ أجد أيَّ سجلٍّ يُبيِّن أنّ الجِزية الواجبة على هذه الجزر للتاج النارْنيانيّ قد دُفعت منذ مئة وخمسين سنة».

فقال غُمباس: «ستكون هذه مسألة يتمُّ النظر فيها في مجلِسنا الشهرَ التالي. فإذا اقترح أحدهم إجراء تكليفٍ للقيام للتدقيق ورَفْع تقرير عن التاريخ الماليّ للجُزر في أوّل جلسةٍ تُعقَد السنةَ المُقبِلة، فلِماذا عندئذٍ..».

لكنّ كاسپيان تابع قائلاً: «كذلك أجده مَنصوصاً في قوانيننِا بوضوح أنّه إذا لم تُؤدَّ الجزية فالدَّينُ كلُّه ينبغي أن يدفعه حاكم الجُزر المنفردة من حسابه الخاصّ».

عندئذٍ بدأ غُمباس ينتبه انتباهاً فعليّاً وقال: «أُوه، هذا أمرٌ مُستَبعد تماماً. فذلك مُستحيل مادّيّاً... أحُم... لا بدَّ أن جلالتك تمزح!» وكان في قرارة نفسه يتساءل عن وجود أيّة طريقة للتخلُّص من هؤلاء الزوّار غير المرحَّب بهم. ولو علم أن كاسپيان كان لديه فقط سفينةٌ واحدة وحمولة سفينة واحدة من الرجال، لتكلّم كلاماً رقيقاً آنذاك، ورجا أن يحاصرهم ويقتلهم جميعاً في أثناء الليل. إلّا أنّه كان قد رأى سفينة حربيّةً تُبحِر في المضيق يومَ أمس وشاهدها تُطلِق إشاراتٍ — كما حسب — إلى السُّفن

المرافِقة لها. ولم يعلَم أمسِ أنّها كانت سفينة الملك، إذ لم تكن الريح كافية لنشر عَلَمها بحيث يُرى الأسد الذهبيُّ، ولذلك انتظر حصول مزيدٍ من التطوُّرات. فتصوَّر عندئذٍ أنّ لكاسپيان أُسطولاً كاملاً بقرب أراضي بِيرْن. وما كان ليخطر في بال غُمباس أنّ أحداً يدخل ميناصُغرى للاستيلاء على الجزر بأقلّ من خمسين رجُلاً. كما لم يكن ذلك قطّ بالتأكيد شيئاً يمكن أن يتصوَّر أن يفعله هو.

ومضى كاسپيان يقول: «ثانياً، أُريد أن أعرف لماذا سمحت لتجارة العبيد، هذه المهنة الكريهة وغير الطبيعية، بأن تجري وتروج هنا، على خلاف العادة العريقة التي جرى عليها استخدامُ أراضينا هذه».

فردّ سعادتُه: «هذا أمر ضروريٌّ لا يمكن تجنُّبه، وهو جزءٌ جوهريٌّ من التطوُّر الاقتصاديّ في الجُزر، كما أُطمئن جلالتك. فإنّ نهضة ازدهارنا الحاليَّة تتوقَّف عليها».

«وأيَّة حاجةٍ بكم إلى العبيد؟»

«للتصدير، يا صاحب الجلالة. نبيعهم إلى كالورمن أغلبَ الأحيان، وعندنا أسواق أُخرى. فنحن مركزُ تجارةٍ عظيم».

فقال كاسپيان: «وهذا يعني أنكم لا تحتاجون إليهم. فقُل لي أيّ غَرَض يخدمون سوى وضع المال في جيوب أمثالِ بُغ؟»

وأجاب غُمباس مبتسماً ابتسامة قصد ان تكون أبويَّة:

«إنّ سِني جلالتك القليلة لا تكاد تُيسِّر عليك أن تفهم المسألة الاقتصاديّة المَعنيّة. ولكنْ لديَّ إحصائيّات، لديَّ رسوم بيانيّة، لديَّ..».

فقال كاسپيان: «ولئن كانت سنواتي قليلة، فأنا أعتقد أنّني أفهم تجارة العبيد في عُمقِها، كما تفهمها سعادتُك. ولستُ أرى أنّها تجلب إلى الجُزر لحماً أو خُبزاً أو بيرةً أو نبيذاً أو خشباً أو ملفوفاً أو كُتباً أو آلاتٍ موسيقيّةً أو سلاحاً أو أيّ شيء آخر يستحقّ حيازته. ولكنْ سواءٌ فعلَت ذلك أم لم تفعلْه، ينبغي وقفُها».

أجاب الحاكم لاهثاً: «غير أنّ ذلك سيكون إرجاعاً لعقارب الساعة إلى الوراء. أليس لديك أفكارٌ عن التقدُّم، عن التطوُّر؟»

فقال كاسپيان: «لقد أدركت ذلك كلّه في مرحلةٍ باكرة. فنحن في نارنيا ندعو هذا 'فساداً'. يجب أن تتوقَّف هذه التجارة!»

وأجاب غُمباس: «لا يمكنني أن أتحمَّل مسؤوليّة أيّ إجراء من هذا النوع».

فقال كاسپيان: «حسنٌ جداً إذاً! إنّنا نُعفيك من منصبك. سيِّدي اللورد بِيرْن، تعال إلى هُنا».

وقبل أن يعيَ غُمباس تماماً ما يجري، كان بِيرْن قد ركع ويداه بين يدَي الملك، مؤدّياً قَسَم تولّي حُكم الجزر المنفردة وفقاً لكلّ ما في نارنيا من عاداتٍ قديمة، وحقوقٍ وسياساتٍ وقوانينَ قويمة. ثمّ قال كاسپيان: «أعتقد أنّه كفانا

حُكّامٌ»، وعندئذٍ جعل بِيرْن دُوقاً: دُوق الجُزر المنفردة. ثمَّ قال لغُمباس:

«أمّا أنت، يا حضرة اللورد، فأُسامِحك بدَينك المترتّب على الجِزية. ولكن قبل ظُهرِ غدٍ، يجب أن تكون أنت وقومك جميعاً قد غادرتُمُ القصر، بعدما بات الآن مقرَّ سيادةِ الدُّوق».

عندئذٍ قال واحدٌ من مُعاوِني غمباس: «اسمعوا! هذا كلُّه جيّدٌ جداً. ولكنْ ما قولُكم، يا سادة، لو توقّفتم قليلاً عن التمثيل لنُجريَ بعض التفاوُض. فالمسألة المطروحة أمامنا هي بالحقيقة..».

فقال الدُّوق: «المسألة هي: أتُغادِر أنت وباقي أوباشِك دون جَلْدٍ أم بجِلَد؟ يمكنك أن تختار أيَّ الأمرين فضَّلْت!».

ولمّا سُوّي الأمر على خيرِ ما يُراد، أمر كاسپيان بإحضار أحصنة، وكان في القصر هُناك عددٌ قليلٌ منها، مع أنَّ ساستَها لم يكونوا يسوسونها جيّداً. ثمَّ ركب كاسپيان، مع بِيرْن ودِرِينيان وقليلين آخرين، متوجِّهين إلى سوق العبيد مروراً بالمدينة. وكانت السوق في بناء مستطيل مُنخفض بقرب المرفإ، وقد كان المشهد الذي وجدوه جارياً هناك كثير الشبه بأيِّ مزادٍ علنيٍّ آخر. إذ كان هنالك حشدٌ كبير، وپُغ – واقفاً على منصّة – يجأر بصوته الخشن:

«والآن، يا سادة، السِّلْعة الثالثة والعشرون. فلّاح تِرِيبِنثيٌّ عظيم، نافع للمناجم أو سُفن التجديف الكبيرة. عمرُه أقلُّ من خمس وعشرين سنة، وليس في فمه سنٌّ واحدةٌ مُسوَّسة. فتًى جيّد مفتول العضل. اِخلَع عنه قميصه، يا تاكْس، حتّى يراه السادة. أرأيتُم عضلاته؟ انظروا صدره! عشرة أهِلّة من ذلك السيِّد في الزاوية. لا بدَّ أنّك تمزح، يا سيِّدي. خمسة عشر! ثمانية عشر! ثمانية عشر للقطعة الثالثة والعشرين. هل مَن يزيد على ثمانية عشر؟ واحد وعشرون. شكراً لك يا سيِّد، واحد وعشرون هلالاً ثمناً لِل..».

إلّا أنَّ پُغ توقّف وفغر فمه لمّا رأى الأشخاص اللابسين الدروع وهم يصعدون إلى المنصّة مُصَلصِلين.

وقال الدوق: «على رُكَبكم جميعاً، كلُّ واحدٍ منكم، أمام ملك نارنيا!» وقد سمع الجميع جَلجلَة الأحصنة وخبط قوائمها في الخارج، كما كان كثيرون قد سمعوا بعض الشائعات عن الإنـزال في المرفإ والأحداث في القصر. فأطاع مُعظم الحاضرين، في حين أنَّ الذين لم يُطيعوا شدَّهم الواقفونَ بقربهم، وراح بعضٌ يهتفون.

وقال كاسپيان: «إنَّ حياتك، يا پُغ، هي الغرامة التي يجب أن تدفعها بسبب وضع يدك على شخصنا الملكيِّ يومَ أمس. ولكنّنا نصفح عن جهلك. وقد مُنِعَت تجارة العبيد في جميع الأراضي الخاضعة لنا، منذ رُبع ساعة. إنّني أُعلن حُرِّيَّة كلِّ عبدٍ في هذه السوق».

ثمَّ رفع يده لوقْف هتافات العبيد، وتابع قائلاً: «أين أصدقائي؟».

فقال بُغ بابتسامةِ تملُّق: «تلك الفتاة الصغيرة العزيزة وذلك الفتى الوسيم؟ حسناً، إنَّ الشارينَ اختطفوهما حالاً..».

وصرخ إدمون ولوسي معاً: «نحنُ هنا، نحن هُنا، يا كاسپيان!» فيما زعق ريبيتشيب صافراً من زاوية أُخرى: «تحت أمرِكَ يا مولاي!» فإنَّهم كانوا قد بيعوا جميعاً، ولكنَّ الرجال الذين اشترَوهم كانوا ما يزالون هناك للمزايدة على عبيدٍ آخرين، ولذلك لم يكونوا قد أُخِذوا بعيداً. فأفسح الحشدُ حتّى يتمكّن الثلاثة من التقدُّم، ثمَّ جرى بينهم وبين كاسپيان كثيرٌ من المُصافحة والتسليم. ثمَّ اقترب تاجران من كالورمن في الحال. وكان أهل كالورمن ذوي وجوه فاحمة ولحىً طويلة، يلبسون أرواباً فضفاضة وعمائم برتقاليّةَ اللون، وهم قومٌ قُدامى حكماء وأغنياء وذوو لياقة وقساوة. فانحنى ذانِك الرجُلان لكاسپيان بكلِّ تأدُّب وأدّيا له إطراءاتٍ طويلة، عظّما فيها ينابيع الازدهار التي تسقي بساتين الحكمة والفضيلة، وما شابه ذلك، ولكنَّ ما أراداه بالطبع كان أن يُردَّ لهما ما دفعاه من مال.

فقال كاسپيان: «ما هذا إلّا من العدل والإنصاف، يا سيِّدان. فكلُّ رجُلٍ اشترى عبداً اليوم يجب أن يُرَدَّ له ماله. يا بُغ، هاتِ كلَّ ما أخذته حتّى الهِلِّ الأخير». (والهِلُّ هو جزءٌ من أجزاء الهِلال الأربعين.)

فأنَّ بُغ قائلاً: «هل تعني، يا ذا الجلالة الصالحة، أن تُفقِرني؟»

وقال كاسپيان: «لقد عشتَ طولَ عُمرِك على تعذيب قلوب الناس. وإذا افتقرتَ فعلاً، فأن تكون شحّاذاً خيرٌ من أن تكون عبداً. ولكنْ أين صديقي الآخر؟»

أجاب بُغ: «آه، ذاك! خُذه على الرحب والسعة. يسرُّني أن يُفلِت من يدي. فلم أرَ مثله بضاعة كاسدة في السوق طول حياتي. لقد سعَّرتُه بخمسة أهلّة في الأخير، ومع ذلك لم يأخذْه أحد. وعرضتُه مجّاناً مع بعض السِّلَع الأخرى، ومع ذلك لم يأخذْه أحد... لم يقبل أحدٌ أن يلمسه لمساً. تاكْس، أحضِرْ عَبّاساً!»

وهكذا أُحضِر يُسطاس، وقد كان شديد العُبوس فعلاً. فمع أنَّ أيَّ إنسان لا يرغب في أن يُباع عبداً، فربَّما كان أكثر إزعاجاً أن يُعرَض أحدُهم كي يكون عبداً لقضاء الحاجات ومع ذلك لا يرغب أحدٌ في شرائه بأيِّ ثمن. وتقدَّم يُسطاس إلى كاسپيان قائلاً: «هكذا إذاً، كالعادة! لقد كنتَ تستمتع بوقتك في مكانٍ ما ونحنُ محبوسون هنا. أعتقد أنك لم تأخُذ على محمل الجِدِّ تصميمي على رفع شكوى إلى القنصليّة البريطانيّة. طبعاً، حسبتَني مازحاً!»

في ذلك المساء، أُقيمت لهم وليمة عظيمة في قصر مِيناصُغرى. وبعدئذٍ قال ريبيتشيب عندما انحنى للجميع وهمَّ بالذهاب إلى النوم: «غداً نلتقي وتبدأ مغامراتنا الحقيقيّة!» ولكنْ لم يكُن ممكناً أن يكون ذلك في الغد بأيِّ حال من الأحوال. إذ إنَّهم كانوا الآن يستعدُّون لأنْ

يتركوا وراءهم جميع الأراضي والبحار المعروفة، وكان ينبغي أن يقوموا بأكمل الاستعدادات. فقد تمّ إفراغ جوّابة الفجر وجرّها إلى البرّ بواسطة ثمانية أحصنة، على بَكَرات، وفحص كلّ جزءٍ فيها أمهرُ نجّاري السفن. ثمّ أُخِذت إلى البحر من جديد، وجرى تزويدها بالمؤن والماء بقدْر ما يمكن أن تحمل، أي بما يكفي مدّةَ ثمانيةٍ وعشرين يوماً. وكما لاحظ إدمون بخيبة أمل، فحتّى ذلك لا يوفّر لهم إلّا إبحار أُسبوعين نحو الشرق قبل اضطرارهم إلى التخلّي عن مسعاهم.

وبينما كان ذلك كلُّه يجري، لم يُضيّع كاسپيان أيّة فرصة، مستفسراً من جميع ربابنة البحر القُدامى الذين استطاع العثور عليهم في ميناصُغرى هل يعرفون شيئاً، ولو من قَبيل الشائعات، عن وجود أراضٍ في أقصى الشرق. وقد صبَّ كثيراً من أباريق البيرة الموجودة في القصر لرجالٍ سُمر الوجوه، ذوي لحىً بيضاء قصيرة، وعُيونٍ زُرقٍ صافية، وسمع منهم بالمقابل أحاديث طويلة كثيرة. ولكنَّ أولئك الذين بدا أنّهم الأصدق لم يستطيعوا أن يتحدّثوا حديثاً قاطعاً عن أيّة أراضٍ ما وراء الجزر المنفردة، وقد حسب كثيرون أنّك إن أبحرت بعيداً جدّاً إلى جهة الشرق فلا بدَّ ان تصل إلى بحار مائجة هائجة بغير أراضٍ، تُدوّم دون توقُّف حول حافةِ العالَم. وقال لكاسپيان غيرُ واحدٍ منهم: «هنالك — كما أعتقد — غرق أصدقاء

جلالتك في قاع البحر». أمّا الآخرون فلم تكن عندهم سوى قِصص غريبة عن جُزر يسكنها قومٌ لا رؤوس لهم، وعن جُزر عائمة، وأعمدة ماء فائرة، ونارٍ تتحرّك متأجّجة على سطح الماء. إلّا أنّ بحّاراً واحداً فقط، لفرحة ريبيتشيب، قال: «ووراء ذلك يقع بَلَد أصلان. ولكنّه ما وراء آخِر العالم، ولا يمكنك الوصول إلى هناك». ولكنْ لمّا استفسروا منه أكثر، لم يستطع أن يقول سِوى أنّه قد سمع ذلك من أبيه.



ولم يقدر بيرْن إلّا أن يقول لهم إنّه رأى رُفقاءه الستّة يُبحِرون بعيداً نحو الشرق، وإنّه لم يُسمَع عنهم أيُّ شيء بعد ذلك. وقد قال ذلك لمّا كان هو وكاسپيان واقفَين على أعلى نقطة في جزيرة آڤرا وهما ينظران إلى المحيط الشرقيّ دونَهما. وقال الدوق بيرْن:

«كم من صباح كنتُ أصعد إلى هُنا، فأرى الشمس تطلع من البحر، وقد بَدَت أحياناً كأنّها لا تبعد إلّا ثلاثة كيلومترات تقريباً! وكثيراً ما تسألت عن أصدقائي وعمّا يوجد فعلاً وراء ذلك الأفق. فالأرجح أنّه لا شيء هناك، ومع ذلك فأنا دائماً شِبهُ خَجِل لأنّني بقيتُ هنا. ولكنْ أرجو ألّا تذهب جلالتُك. فقد نحتاج إلى معونتك هنا. إذ إنّ هذا الإغلاق لسوق العبيد قد يفتح الباب إلى عالم جديد. والحربُ مع كالورمِن هي ما يلوح لي في الأفق. فيا مولاي، أعِد النظر في الأمر!»

فأجاب كاسپيان: «لقد حلفتُ يميناً، سيّدي الدُّوق. وعلى كلّ حال، فماذا يمكنني أن أقول لرِيبيتشيب؟»

الفصل الخامس

العاصفة وما أسفرَت عنه

بعد ثلاثة أسابيع تقريباً من نـزولهم إلى البرّ جرى سحْب جوّابة الفجر إلى عُرض البحر خارجَ مرفإِ ميناصُغرى، بعد توديعاتٍ جليلة جدّاً واحتشاد جمعٍ غفير لرؤية رحيلها. وقدِ اختلطت الهُتافات بالدموع لمّا ألقى كاسپيان خطبته الوداعيّة لأهالي الجزر المنفردة وافترق عن الدوق وعائلته، ولكنّ الصمت خيّم على الجميع عندما ابتعدت السفينة عن الشاطىء وشراعُها الأُرجوانيُّ يتحرّك ببطء وترامى صوتُ بوقِ كاسپيان من المؤخّر مُتوانياً فوق الماء. ثمّ هبّت الريح على السفينة فانتشر الشراع وانتفخ، وفكّ زورقُ القَطْر حبلَ السَّحب وبدأ يعود بواسطة التجذيف، واندفعت أوّل موجة حقيقية تحت مُقدَّم جوّابة الفجر، فإذا بها سفينةٌ مُبحِرةٌ من جديد. ثمّ نـزل البحّارة الذين لم تأتِ نوبة عملهم بعدُ إلى جوف السفينة، فيما تولّى دِرينيان فترة مُناوبته الأولى في أعلى المؤخّر، وانعطف رأس السفينة شرقاً لتدور حول جنوب آفرا.

وكانت الأيّام الثلاثة الأولى بهيجة. فعدّت لوسي نفسها أسعد فتيات الدُنيا حظّاً وهي تستيقظ كلّ صباح لترى انعكاسات ضوء الشمس عن المياه تتراقص على سقف حُجرتها، وتتلفّت لتتفحّص جميع الأشياء الجميلة التي حصلت عليها في الجزر المنفردة: أحذية بحريّة وأخفاف وعباءات وسترات بلا أكمام وأوشِحة. ومن ثَمّ تخرج إلى ظهر السفينة وتُلقي نظرة من أعلى المُقدَّم على البحر الذي كان يبدو أكثر زُرقةً كلّ صباح، وتتنشّق هواءً يغدو أكثر دفئاً يوماً بعد يوم. وبعدئذٍ يأتي الفَطور فتتناوله بشهيّة لا يملك المرء مثلها إلّا في البحر.

وقد كانت لوسي تقضي وقتاً طويلاً وهي جالسة على المقعد الصغير في المؤخّر تلعب الشطرنج مع ريبيتشيب. وكان مُسَلّياً أن تراه يحمل حجارة الشطرنج بكِلا مِخلبيه الأماميّين، وهي أكبر بكثير من أن يحملها بسهولة، ويقف على رؤوس أصابع قائمتيه الخلفيّتين، حين ينقل نقلةً قريبة من وسط الرُقعة. وقد كان لاعباً جيّداً، يكسب الجولة عادةً إذا تذكّر ما هو فاعله. ولكنّ لوسي كانت تكسب بين الحين والآخر لأنّ الفأر ينقل نقلةً متهوّرة، كأن ينقل فرساً إلى حيث يتعرّض لخطر الملكة والقلعة معاً. وكان ذلك يحدث لأنّه يسهو لحظةً عن أنّه يلعب لعبة شطرنج فيفكّر في معركة حقيقيّة ويجعل الفرس يقوم بما كان من شأنه هو أن يقوم به لو كان مكانه. وذلك لأنّ ذهنه كان حافلاً بالمهمّات اليائسة، ومغامراتِ «إمّا المجد، و إمّا الموت»، ووقفات العِزّ حتّى الرَمَق الأخير.

غير أنّ هذه الأوقات السعيدة لم تدُم طويلاً. ففي ذات مساء، بينما لوسي تُحدّق بتَراخٍ من على المؤخّر إلى الأُخدود الطويل أو شِقّ الماء الذي تُخلّفه السفينة وراءها، رأت كُتلاً هائلة من الغيوم تتلبّد في الغرب بسرعة مُذهِلة. ثمّ انشقّت الغيوم عن ثغرةٍ تدفّق منها ضوءُ غروبٍ أصفر. وبدا أنّ جميع الأمواج خلفهم بدأت تتّخذ أشكالاً غير طبيعيّة، وصار البحر كقطعة قماش سمراء أو صفراء متّسخة. وصار الهواء بارداً. وبدت السفينة متحرّكة باضطراب وكأنّها شعرت بالخطر يُلاحِقها. وأخذ الشراع ينبسط حيناً ويرتخي ثمّ لا يلبث أن يمتلئ برياح هوجاء. وبينما هي تُراقِب تلك الأشياء وتتساءل عن سرّ التغيير المشؤوم الذي طرأ على صوت الريح بالذات، صاح دِرينيان: «جميع البحّارة إلى ظهر السفينة!» وما هي إلّا لحظة واحدة حتّى بات الجميع يشتغلون باندفاع وسرعة. فأُنزلت أغطية الفتحات، وأُطفئت نار المطبخ، وصعد بعض الرجال عالياً لثني الأشرعة. وقبل انتهائهم، ضربتهم العاصفة. فبدا للوسي أنّ وادياً كبيراً في البحر قد انفتح أمام مُقدّم السفينة تماماً، وأنّهم هَوَوا فيه هُبوطاً إلى عُمقٍ أعمق من أن تُصدّق إمكانية حدوثه. ثمّ اندفع جبلٌ عالٍ رماديٌّ من الماء، أعلى من الصاري بكثير، ليُلاقيَهم؛ حتى بدا الهلاك شِبهَ محتوم، غير أنّهم قُذفوا إلى أعلاه. وعندئذٍ بدا أن السفينة تغزل غزْلاً. وتدفّق شلّالٌ على ظهر السفينة، حتى بَدَت سُطيحة المؤخّر ومقصورة

المُقدَّم كجزيرتين بينهما بحرٌ هائج. وعالياً بين الأشرعة والصواري، تمدَّد بعض البحّارة على عارضة الشراع وهم يُحاولون يائسين أن يسيطروا على الأشرعة. وبدأ حبل مقطوع يترجّح في الريح مستقيماً وقاسياً كما لو كان قضيبَ حديدٍ تُذكى به النار.



وزعق درِينيان: «إلى الأسفل، يا آنسة!» فبدأت لوسي تُطيع، علماً منها بأنَّ أهل البرّ وقليلي الخبرة بالبحر، رجالاً كانوا أم نساءً، هم مصدر إزعاجٍ للبحّارة. ولم يكُن ذلك سهلاً. فإنَّ جوّابة الفجر كانتْ تنحرف انحرافاً رهيباً نحو المَيمنة وقد انحدر ظهر السفينة كسقف بيتٍ مائل. فاضطُرّت لأنْ تتسلّق بصعوبة بالغة حتّى رأس السُلَّم، متشبّثة بالحاجز، ثمَّ تتنحّى ريثما يتسلّقها بحّاران، ثمّ تهبط عليها بأفضل ما تستطيع. وكان من الخير أنّها ما

زالت متشبّثة جيّداً، لأنّه عند أسفل السُلَّم هدرت موجةٌ أُخرى على ظهر السفينة، بعلوِّ كتفيها. وكانت تقريباً قد تبلّلت بالرذاذ والمطر، إلّا أنَّ هذه الموجة كانت أشدَّ برودةً. ثمَّ اندفعت مسرعةً إلى باب حجرتها، فدخلتها، وأغلقت الباب حيناً على المشهد المروِّع للسرعة الهائلة التي بها كانوا يندفعون إلى قلب الظلام. ولكنَّ ذلك طبعاً لم يُبعِد عنها الجَلَبة الرهيبة الصادرة عن أصوات الصَّرير والعويل والطقطقة والفرقعة والقرقعة والهدير والدوّي، تلك التي بدت بالفعل في الأسفل أكثر هولاً ورعباً ممّا كانت عليه ولوسي على السَّطيحة.

ثمَّ استمرّت العاصفة طوال اليوم التالي واليوم الذي بعده. وقد دامت حتّى بات يتعذّر تقريباً أن يتذكّر المرء وقتاً سابقاً لهبوبها. وكان يجب دائماً أن يتواجد ثلاثة بحّارة عند ذراع الدفّة، وبالكادّ استطاع أولئك الثلاثة أن يُحافِظوا على خطِّ إبحارٍ شبه ثابت. كما كان يجب أن يتواجد بحّارةٌ دائماً عند المضخّة. ولم يكَد أحدٌ يتمكّن من الاستراحة ولو قليلاً، كما لم يكُن ممكناً طبخُ شيء، أو تجفيفُ شيء، وقد فُقِد بحّارٌ من على ظهر السفينة، وما رأوا الشمس قطّ.

ولمّا انتهت العاصفة، كتب يُسطاس في مفكّرته ما يلي:

٣ أيلول (سبتمبر)

هذا أوّل يوم منذ دهور أتمكّن فيه من الكتابة. لقد هبَّ علينا إعصارٌ جارف دام ثلاثة عشر نهاراً وثلاث

عشرة ليلة. وأنا أعرف هذا لأنّي أحصيت كلّ نهارٍ وليلة بدقّة، مع أنّ الآخرين يقولون إنّها كانت اثني عشر يوماً فقط. ما أطرفَ ركوبَ البحر في رحلة خطرة مع ناس لا يستطيعون حتّى العدَّ الصحيح! لقد قضيت وقتاً مُروّعاً، تحت رحمة أمواج هائلة هبوطاً وصعوداً ساعةً بعد ساعة، وأنا مُبلّلٌ عادةً حتّى جلدي، دون أن تُبذَل ولو محاولة واحدة لإعطائنا وجبات طعام جيّدة. وغنيٌّ عن القول إنّه لا يوجد جهاز لاسلكيّ، أو حتّى صاروخ، لإصدار إشارة استغاثة. وهذا كلُّه يبرهن ما أظلّ أقوله لهم بشأن جنون الإبحار في مثل هذا المركب القديم الصغير البالي.

فمن شأن ذلك أن يكون رديئاً جدّاً حتّى لو كنتَ بصحبة ناسٍ مُحترَمين، لا عفاريت في هيئة بَشَر. ذلك أنّ كاسپيان وإدمون يعاملانني بكلّ وحشيّة. فليلةَ فقدْنا شراعنا (لم يبقَ منه إلّا عَقِبٌ صغير)، رغم كوني بصحّة غير جيّدة أبداً، أرغماني على الخروج إلى ظهر السفينة والاشتغال كعبد. وقدِ اضطرّتني لوسي إلى استلام مجذافها بقولها إنّ ريبيتشيب يتمنّى أن يُجذّف إلّا أنّه كان أصغر قامةً بكثير من أن يتمكّن من ذلك. وأتساءل كيف لا تعي أنّ كلّ ما يقوم به هذا الوحش الصغير إنّما هو بدافع التبجّح والتباهي. فينبغي أن يكون لدى لوسي، ولو في سنّها الصغيرة تلك، مقدارٌ من الإحساس والإدراك. واليومَ استوى المركب البغيض أخيراً، وبرزت الشمس، فعكفنا كلّنا على التحدّث عمّا ينبغي أن نفعله.

لدَينا من الطعام ما يكفي مدّة ستة عشر يوماً، مع أنّ مُعظمه كريهٌ إلى أبعد حدّ. (لقد جرفت العاصفة الدجاج عن ظهر السفينة. ولو لم تكن قد فعلت ذلك لمنعَتها أن تبيض.) إنّما المشكلة الحقيقيّة هي في الماء العذب. إذ يبدو أنّ برميلين ثُقِبا فتسرّب منهما الماء حتّى فرغا. (تلك هي الفعّاليّة النارنيانيّة مرّةً أُخرى!) فبأدنى نسبة، إذا نال كلُّ واحد نِصفَ ليتر ماء تقريباً كلّ يوم، يكون لدَينا ما يكفينا اثنَي عشر يوماً. (هنالك كميّات وافرة من النبيذ والكحول، ولكن حتّى هُم يُدرِكون أنّ الشرب منها إنّما يجعلهم أشدّ عطشاً.)

ولو أمكن، فإنّ الأمر المنطقيّ الوحيد يكون بالطبع أن نتوجّه غرباً في الحال ونرجع صوب الجُزُر المنفردة. لكنّنا قضينا ثمانية عشر يوماً حتّى وصلنا إلى حيثُ نحن، تدفعُنا ريحٌ عاصفة هائجة دفعاً مسعوراً. فحتّى لو هبّت علينا ريحٌ شرقيّة، فقد تستغرق عودتنا وقتاً أطولَ. وليس من إشارة الآن إلى احتمال هبوب أيّة ريح شرقيّة؛ بالحقيقة، ليس من ريح على الإطلاق. أمّا التجذيف رجوعاً، فيستغرق مُدّةً أطوَل بكثير، ويقول كاسپيان إنّ البحّارة لا يمكنهم أن يُجذّفوا وواحِدُهم يشرب نحو نصف ليتر ماء فقط كلّ يوم. لكنّني متأكّد تماماً أنّ هذا خطأ. وقد حاولت أن أشرح أنّ التعرّق يُلطّف حرارة الجسم فعلاً، وهكذا يحتاج البحّارة إلى مقدارٍ من الماء أقلّ إذا كانوا يشتغلون. غير أنّ كاسپيان لم يُبالِ بذلك قطّ، وهذه هي طريقته دائماً

حين يعجز عن التفكير بجواب. وقد أيدَّ الآخرون جميعاً الاستمرار في الإبحار على أمَل العثور على برٍّ ما. فشعرتُ أنَّ واجبي يقضي بأن أُشير إلى أننّا لا نعرف أبداً أنَّ أمامنا برّاً بالفعل، وحاولتُ أن أجعلهم يُفكّرون بأخطار التفكير الذي تُمليه الرغبات. وبدلاً من الإتيان بخُطّةٍ أفضل، بلغت وقاحتُهم حدّاً جعلتهم يسألونني عمّا أقترحتُهُ. فما كان منّي إلّا أن أوضحتُ لهم بهدوء وبرُودة أنّني قدِ اختُطِفت وحُملت بعيداً في هذه الرحلة الحمقاء دون موافقتي، ولا يكاد يكون من شأني أنا أن أُنقِذهم من ورطتهم.

٤ أيلول (سپتمبر)

ما يزال المركب مُوقَفاً لقلّة الريح. حِصص ضئيلة جدّاً للغداء، وحصّتي أقلُّ من أيِّ شخص آخر. كاسپيان بارع في زيادة حصّته، ويحسب أنّني لا أرى! حاولَت لوسي، لسبب ما، أن تُعوِّض عليَّ بتقديم جزء من حصّتها، ولكنْ إدمون ذلك المتزمّت المتطفّل لم يسمح لها. الشمس حارقة إلى حدٍّ كبير. وقد اشتدَّ عليَّ العطش جدّاً طوال المساء.

٥ أيلول (سپتمبر)

ما تزال الريح ساكنة، والحرارة شديدة. شعرتُ بالإرهاق طول النهار، ومؤكّد أنّني محرور. وطبعاً، ليس لديهم ذَوق حتّى يحتفظوا بميزان حرارة في السفينة.

٦ أيلول (سپتمبر)

يومٌ رهيب. استيقظتُ ليلاً عالماً أنَّ حرارتي مرتفعة ويجب أن أشرب شربة ماء. وأيُّ طبيب كان سيقول هكذا حتماً. بحقّ السماء، أنا آخِر شخص يحاول الحصول على أيّ امتياز يفتقِر إلى الإنصاف، ولكنّني لم أحلم قطُّ بأنَّ تقنين الماء ذلك مقصودٌ به أن ينطبق على إنسان مريض. وبالحقيقة، كان يمكن أن أُوقظ الآخرين وأطلب شربة ماء لو لم أُفكّر بأنَّ إيقاظهم أمرٌ أنانيّ. وهكذا نهضتُ وأخذتُ كأسي وخرجتُ على رؤوس أصابع قدميَّ من تلك الحفرة السوداء التي ننام فيها، حريصاً جدّاً على ألّا أُزعج كاسپيان وإدمون، لأنّهما كانا قد بدأا ينامان نوماً سيّئاً منذ بدء الحرّ وقلّة الماء. فأنا دائماً أُحاول أن أُراعيَ الآخرين، سواءٌ عاملوني باللطف أم لم يُعامِلوني. ومن ثَمَّ خرجتُ بخير ودخلتُ الغرفة الكبيرة — إن كان ممكناً أن تُسمّيها غرفة — حيثُ مقاعد التجذيف والأمتعة. وكان وعاء الماء في هذه الناحية، فسار كلُّ شيء حسناً، ولكنْ قبل أن سحبتُ ملءَ كأس مَن كان يمكن أن يقبض عليَّ سوى ذلك الجاسوس الصغير، ريب؟ وحاولتُ أن أشرح له أنّني خرجت إلى ظهر السفينة لأتنشّق بعض الهواء (فلا دَخل للأمر بمسألة الماء) فسألني لماذا أحمل كأساً، وأصدرَ ضجيجاً جعل جميع مَن في السفينة يستيقظون. فعاملوني معاملةً مخزية. وسألت — كما أحسبُ أنَّ أيَّ شخصٍ غيري سيسأل — لماذا كان ريبيتشيب يتسلّل

قُرْبَ برميل الماء في نصف الليل. فقال إنّه أصغر من أن ينفع أيَّ نفعٍ على ظهر السفينة، فلجأ إلى حراسة الماء كلَّ ليلة بحيث يُتاح لبحّارٍ آخر أن ينام. والآن يأتي ظلمُهم الفاسِد: لقد صدَّقوه كلُّهم... فهل يمكنك أن تتغلَّب عليه؟ كان عليَّ أن أعتذر، وإلّا انقضَّ عليَّ ذلك الوحشُ الصغير بسيفه. وعندئذٍ كشف كاسپيان القناع عن وجهه الحقيقيّ، إذ ظهر طاغيةً قاسياً وقال بصوتٍ عالٍ على مسمع الجميع إنّ أيَّ شخص يُقبض عليه وهو «يسرق» الماء في المستقبل «سيتلقّى دزّينتين»*. ولم أفهم ما يعنيه ذلك حتّى شرحه لي إدمون. فهو واردٌ في نوع الكُتب ذاك الذي يقرأه أولاد آل بيڤنسي أولئك.

وبعد هذا التهديد الجبان، غيَّر كاسپيان لهجته، وبدأ يظهر بمظهر الراعي المُناصِر. فقال إنّه متأسِّفٌ لأجلي، وإنّ الجميع يشعرون بمثل الحرارة التي أشعر أنا بها، وإنّ علينا جميعاً أن نتحمَّل ذلك، إلخ، إلخ. يا له من مُتعجرف كريه مغرور! لازمتُ السرير طول النهار اليوم.

٧ أيلول (سپتمبر)

هبَّت ريحٌ ضعيفة اليوم، ولكنّها ما تزال غربيّة. تقدَّمْنا بضعة أميال نحو الشرق بجزءٍ من الشراع، رُبط بما يُسمّيه درِينيان «الصاري المُرتَجل». ومعنى ذلك الصاري المائل

* سيتلقّى دزّينتَيْن: بمعنى يُعاقَب بشدة على فعلته.

وقد نُصِب عمودياً ورُبِط (هُم يقولون «ثُبِّت») بعَقِب الصاري الحقيقيّ. ما زلتُ عطشاناً عطشاً رهيباً.

٨ أيلول (سپتمبر)

ما زلنا مُبحِرين نحو الشرق. أُلازِم سريري طول اليوم الآن، ولا أرى أحداً ما عدا لوسي، إلى أن يأتي العِفريتان كي يناما. ولوسي تُعطيني قليلاً من حصّة الماء الخاصّة بها. فهي تقول إنّ البنات لا يعطشن مثل الصِّبْيان. ولطالما اعتقدتُ ذلك، إنّما ينبغي أن يكون معروفاً في البحر بصورةٍ أعمّ.

٩ أيلول (سپتمبر)

لاحت أرضٌ أمام الأنظار: جبلٌ عالٍ جدّاً في البعيد البعيد إلى جهة الجنوب الشرقيّ.

١٠ أيلول (سپتمبر)

الجبل أكبر وأوضح، ولكنّه ما زال بعيداً جدّاً. ظهرت طيور النورس من جديدٍ اليوم أوّلَ مرّة منذ مدّة لا أدري كم طولها.

١١ أيلول (سپتمبر)

تمّ صيد بعض السَّمك وتقديمه على الغداء. أُنزلت المِرساة نحو السابعة مساءً في ثلاث قاماتٍ من المياه في

خليج من هذه الجزيرة الجبليّة. لم يسمح لنا ذلك الغبيُّ كاسپيان بالنـزول إلى الشاطئ لأنَّ الظلام كان يقترب وقد خاف من المتوحّشين والحيوانات الضارية. حصّة إضافية من الماء هذه الليلة.

إنَّ ما كان ينتظرهم على تلك الجزيرة سيُقلِق يُسطاس أكثر من أيِّ شخص آخر. ولكن من غير الممكن أن نروي ذلك بكلماته هو، لأنّه بعد الحادي عشر من أيلول



(سپتمبر) نسي أن يدوِّن مُذكّراته في مفكّرته على مدى فترةٍ طويلة.

فلمّا طلع الصباح، وكانتِ السماء تبدو رماديّة وقريبة لكنَّ الحرارة شديدة جدّاً، وجد المغامرون أنفسهم في خليج تحيط به الجروف والصخور المُسنَّنة العالية بحيث يبدو كأنّه زقاقٌ بحريٌّ نرويجيّ. وقد ظهرت قُدّامهم، عند رأس الخليج، أرضٌ منبسطة تكسوها أشجارٌ كثيفة بدا أنّها أرْز، ويتدفّق عبرها جدول مُندفِع. ووراءها مُنحَدرٌ صاعد ينتهي بسلسة تلال مُسنَّنة، خلفَها جبالٌ قاتمة باهتة تُناطح غيوماً داكنة بحيث لا يمكنك أن ترى قِممها. وكانت الجُروف الأقرب، إلى كِلا جانبَي الخليج، مُوشّحة هنا وهناك بخيوطٍ بيضاء عرف الجميع أنّها شلّالات، مع أنّها من تلك المسافة لم تُبدِ أيَّ حركة ولا أصدرت أيَّ خرير. بل إنَّ المكان كلّه كان هادئاً للغاية، كما كانت مياه الخليج ناعمة كالزجاج، وقد انعكست عليها تفاصيل الصخور كلّها. ولو كان ذلك المنظر في لوحة، لكانَ خلّاباً. غير أنّه في واقع الحياة كان قابضاً للصدر. فلم تكن تلك أرضاً تُرحِّب بزوّارها.

نـزل ركّاب السفينة كلُّهم إلى الشاطئ على دفعتين نقلهما القارب، فشرب الجميع واغتسلوا بماء النهر مسرورين، وتناولوا وجبة طعام، واستراحوا قليلاً، قبل أن يُرسِل كاسپيان أربعة رجالٍ عادوا إلى السفينة ليحرسوها، ثمَّ ابتدأ عمل اليوم. فكان ينبغي القيام بأمورٍ كثيرة جدّاً.

إذ إنّ البراميل يجب إحضارها إلى الشاطئ، حيث تُصلَح المعطوبة منها إن أمكن، ثمّ تُملأ كلُّها ماءً من جديد. وكان يجب قطع شجرة – صنوبرة إذا تيسَّرت لهم – ليُصنَع منها صارٍ جديدٌ؛ كما كان يجب إصلاح الأشرعة الممزَّقة. ونُظِّمت فرقة صيد لاصطياد أيّة طرائد قد تجود بها تلك الأرض. وكان ينبغي غسل الثياب وإصلاحها، كما ينبغي إصلاح الكثير ممّا تكسَّر أو تصدَّع على ظهر السفينة. أمّا جوّابة الفجر بذاتها، فكاد يتعذَّر معرفة أنّها تلك السفينة الأنيقة التي غادرت مِيناصُغرى، الأمرُ الذي ازداد وضوحاً إذ شاهدوها الآن مِن بُعد. فقد بدت سفينةً عتيقةً مُشوَّهة مُلطَّخة يحسبُها أيُّ إنسانٍ حُطاماً. ولم يكن ربابنتها وبحّارتها أحسن حالاً، إذ بدا عليهم النحول والشحوب واحمرار العينين من قِلّة النوم، وكانت ثيابهم رثّةً جداً.

وإذِ استلقى يُسطاس تحت شجرة، وسمع البحث في كلّ هذه الخُطط، غاص قلبُه داخل صدره. ألَن تكون راحة؟ فقد بدا أنّ يومهم الأوّل على البرّ الذي طالما اشتاقوا إليه سيكون مَثَلُه مثَلَ أيّ يوم في البحر. ثمّ خطرت في باله فكرة مُبهجة. فلم يكن أحدٌ ينظر إليه، إذ كانوا كلُّهم يُثرثِرون عن سفينتهم وكأنّهم فعلاً يحبُّون ذلك المركب السخيف البشِع. إذاً، لماذا لا ينسلُّ مبتعداً عنهم؟ سيقوم بنزهة داخل البرّ، حيث يعثر على مكانٍ باردٍ عليل النسيم في الجبال، فينام نومةً طويلةً هنيئة، ولا

ينضمُّ إلى الآخرين من جديد حتّى يكون شغل النهار قدِ انتهى. وأحسَّ أنّ ذلك سينفعه ويُنعِشه. غير أنّه سيحرص جيّداً على أن يظلّ الخليج والسفينة تحت نظره كي يتأكّد من جهة طريق العودة. فلن يطيبَ له أن يُترَك وحده في تلك الأرض.

وفي الحال نفَّذ خطّته. إذ نهض بهدوءٍ من مكانه، ومشى مبتعداً بين الأشجار، حريصاً على أن يسير ببطء وبلا هدفٍ معيَّن، بحيث يظنّ كلُّ مَن يراه أنّه إنّما يتمشّى ليُريح رجليه. وقد أدهشه كيف تلاشى صوت المحادثة سريعاً وراءه، وكم صارتِ الغابة كثيرة الهدوء والدفء وشديدةَ الاخضرار. وسرعان ما أحسَّ أنّه يقدر أن يُغامِر بخُطىً أسرع وأكثر عزماً.

وما لبث أن أوصله ذلك إلى خارج الغابة. وابتدأت الأرض ترتفع قدّامه بانحدارٍ شديد. وكان العشب جافّاً وزَلِقاً، لكنْ يمكن تسلُّقه إذا استخدم يديه فضلاً عن قدميه. ومع أنّه لهث ومسَح جبينه كثيراً، ظلّ يتوغّل مبتعداً باستمرار. وبالمناسبة، فقد بيَّن له ذلك أنّ حياته الجديدة قد نفعته بعض النَّفع فعلاً، ولو أنّه شك في الأمر قليلاً؛ إذ إنّ يُسطاس القديمَ، يُسطاسَ هارولد وألبرتا، كان من شأنه أن يتخلّى عن التسلُّق بعد عشر دقائق.

ثمّ إنّه بلغ القمّة ببطء، وبعد بضع استراحات. وتوقَّع أن يُطِلّ من هناك على قلب الجزيرة. غير أنّ الغيوم كانت قد صارت أدنى الآن وأوطأ، وكان بحرٌ من الضباب يتدافع

لملاقاته. فقعد ونظر إلى الوراء، فإذا به الآن على علُوٍّ شاهقٍ جدّاً بحيث بدا الخليج تحته صغيراً جدّاً وظهرت أميالٌ من البحر مرئيّةً بجلاء. ثمّ أطبق عليه ضباب الجبال من كلّ جهة، كثيفاً لكنّ ليس بارداً، فتمدّد على الأرض وانقلب إلى هذا الجنب وإلى ذاك ليجد أحسن وضعٍ يُريحه ويُمتِعه.

غير أنّه لم يستمتع، أو لم يستمتع طويلاً. فقد بدأ، أوّلَ مرّة في حياته تقريباً، يشعر بالوحدة والوحشة. في البداية، تعاظم هذا الشعور ببطء شديد. ثمّ بدأ يقلق من جهة الوقت. ولم يكُن يُسمَع أدنى صوت. وفجأةً خطر في باله أنّه ربّما استلقى هناك عدّةَ ساعات. وربّما رحل الآخرون! وربّما تعمّدوا تركه يبتعد ويضيع حتّى يتركوه وحده هناك! عندئذٍ نهض مذعوراً وبدأ مسيرة الهبوط.

حاول أوّلاً أن يهبط بسرعة فائقة، فانزلق على العشب المُنحدِر، وتزحلق مسافةَ أقدام قليلة. ثمّ حسب أنّ ذلك أبعده نحو اليسار أكثر من اللازم، وكان عند صعوده قد رأى جُروفاً إلى تلك الجهة. فتسلّق

من جديد بصعوبة، إلى المكان الذي خمّن أنه انطلق منه أوّلاً، ثمّ بدأ الهبوط مجدّداً، ملازماً الاتّجاه إلى يمينه. وبعد ذلك بدا أنّ الأمور تتحسّن. فتقدّم بحذر شديد، إذ لم يستطع أن يرى قدّامه مسافةً تزيد عن مترٍ واحد، وكان الهدوء التام ما يزال مخيّماً حواليه. ومن غير المريح أن تُضطَرّ إلى التقدّم بكلّ حذر فيما يقول لك صوتٌ في داخلك كلّ حين: «أسرع، أسرع، أسرع». ذلك أنّ الفكرة الرهيبة بإمكانية تركه هُناك أخذت تُلحّ عليه أكثر فأكثر كلّ لحظة. ولو كان قد أدرك حقيقة كاسبيان وإدمون ولوسي تماماً، لعرف طبعاً أنّه لا يوجد أدنى احتمال بأن يفعلوا به شيئاً كهذا. غير أنّه كان قد أقنع نفسه بأنّهم جميعاً عفاريت في هيئة بَشَر.

وإذِ انزلق على مُنحدَر من الحجارة المتقلقلة (يُسمّونها رُجمة) ووجد نفسه على أرضٍ مستوية، قال: «أخيراً! ... والآن، أين تلك الأشجار؟ هنالك شيءٌ قاتمٌ قُدّامي. عجباً! أعتقد فعلاً أن الضباب ينقشع».

وكان ذلك صحيحاً. فقد تزايد النور كلّ لحظة، وجعله يطرف بعينيه. وزال الضباب فعلاً، فإذا به في وادٍ مجهولٍ تماماً والبحر لا يبدو للعيان في أيّ مكان.

مُغامرات يُسطاس

تلك اللحظةَ عينَها كان الآخرون يغسلون أيديَهم ووجوههم في النهر، ويستعدّون عموماً لتناول الغداء والاستراحة قليلاً. إذ كان أفضلُ ثلاثة رُماةِ سِهام قد انطلقوا إلى التلال الواقعة شماليّ الخليج، وعادوا يحملون عنزتين بريّتين وهُما الآن تُشويان على نارٍ مُوقَدة. وقد أمر كاسبيان بإحضار برميلٍ من نبيذ بلاد أرخيا القويّ الذي يجب مزجُه بالماء قبل شُربه، وهكذا ينال الجميع مقداراً وافراً. وسار كلّ شيء على ما يُرام حتّى الآن، وكانت الوليمة تتميّز بالمَرَح والفرح. إنّما بعد توزيع الحصّة الثانية من لحم الماعز المشويّ قال إدمون: «أين ذلك الفاسد يُسطاس؟»

وفي تلك الأثناء أجال يُسطاس نظره في الوادي المجهول. وقد كان ضيّقاً وعميقاً جدّاً، والجُروف المحيطة به شديدة التحدُّر، حتّى بدا أشبه بهاويةٍ أو خندق. وكانت أرضيّة الوادي مكسوّة بالعشب لكنْ كثيرة الصخور، وقد رأى يُسطاس في أماكن متفرّقة رُقعاً محروقة كتلك التي

تراها إلى جانبي سكّة الحديد في نقاط الصعود والنزول في صيفٍ جافّ. وعلى بعد نحو اثني عشر متراً منه كانت بركة ماءٍ صافٍ رائق. وفي أوّل الأمر لم يكن في الوادي أيّ شيء آخر: لا حيوان، ولا طير، ولا حشرة. وقد ترامى نور الشمس إلى قعر الوادي، وأطلّت من فوق حافته قِمَم الجبال ورؤوسها الشامخة.

وأدرك يُسطاس بالطبع أنّه في وسط الضباب هبط الجانبَ غير الصحيح من سلسلة الجبال، ومن ثمّ التفت ليرى إمكانيّة الرجوع. ولكنّه ما إن ألقى نظرةً حتى ارتعد. فقد تبيّن له أنّه بفضل الحظّ المُذهِل سلك الطريق الوحيد الذي يمكن نزوله، وهو لسانُ أرضٍ أخضر طويل، ضيّق ومُنحدِر على نحوٍ هائل، تنخفض الجُروف على جانبيه. ولم يكُن من طريقٍ ممكن آخر للرجوع. ولكنْ هل يستطيع القيام بذلك بعدما رأى الآن طبيعة تضاريس المكان؟ لقد داخ رأسه من مجرّد التفكير بذلك!

ثمّ التفت من جديد، مُفكِّراً على كلّ حال بأنّه يُفضّل أن يشرب شربةً جيّدة من البركة أوّلاً. ولكنّه ما إن أدار وجهه، وقبل أن يخطو خطوةً واحدة إلى الأمام في قلب الوادي، حتّى سمع صوتاً خلفه. كان مجرّد ضجّة بسيطة، ولكنّها بدت عاليةً في ذلك الصمت الهائل. فجمد في مكانه بلا حراك لحظةً واحدة. ثمّ أدار عُنقَه وألقى نظرة.

وإذا عند أسفل الجرف الصخري، إلى يساره قليلاً، حُفرةٌ مُعتِمة منخفضة، لعلّها مدخلُ كهف. ومن تلك

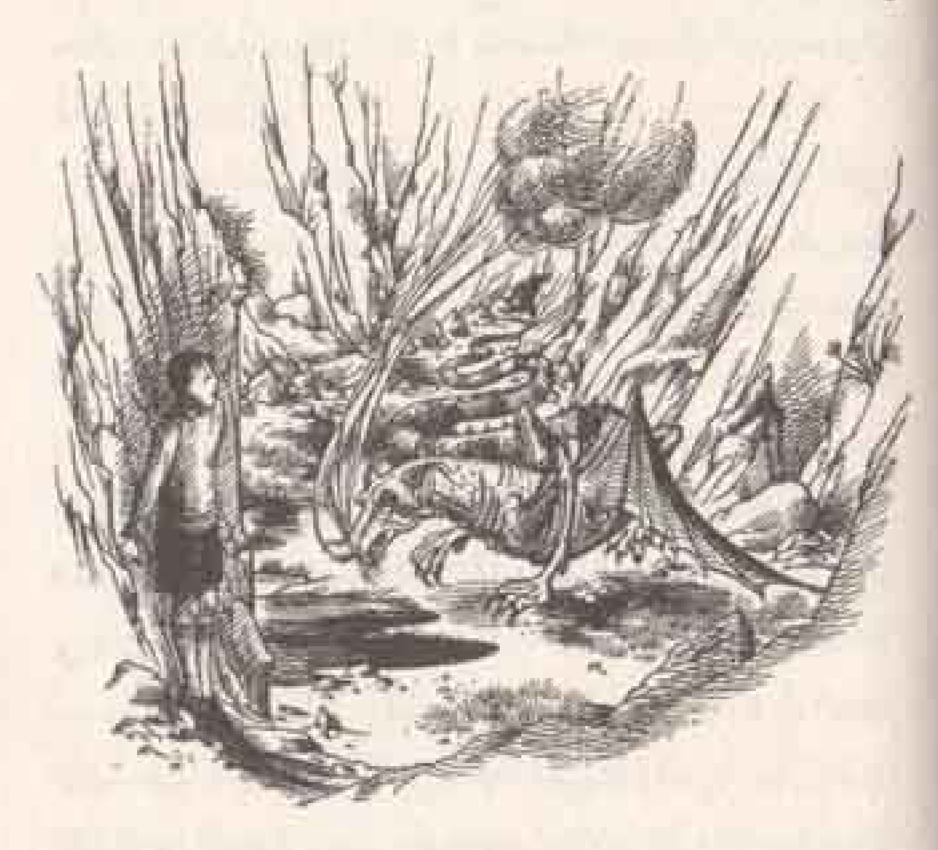
الحفرة ينبعث خيطان رفيعان من الدُخان. وقد كانت الحجارة المتقلقلة، تحت الحفرة المعتمة تماماً، تتحرّك (تلك كانت الضجّة التي سمعها) وكأنّ شيئاً ما يزحف في الظلام وراءها.



وبالفعل، كان شيءٌ ما يزحف؛ بل الأسوأ بعدُ أنّ شيئاً ما كان يخرج خارجاً. وكان ممكناً لإدمون أو لوسي أو لك أنت تمييزُ ذلك الشيء في الحال، غير أن يُسطاس لم يكُن قد قرأ أيّاً من الكُتب المناسبة لهذا الغرض. فإنّ الشيء الذي خرج من الكهف كان شيئاً لم يسبق له قطُّ أن تصوّره مجرّدَ تصوّر: خَطمٌ* طويلٌ بلون الرصاص، عينان حمراوان باهتتان، لا ريشٌ ولا فرو، جسمٌ طويلٌ طريٌ يتجرجر على الأرض، أرجُلٌ لكلٍّ منها مرفقٌ أعلى ارتفاعاً من الظهر تُشبه أرجُل العنكبوت، مخالبُ قاسية،

* الخطم: الجزء الأمامي العاري من الوجه، والذي ينتهي بالأنف.

جناحان كجناحَي الوطواط يُحدِثان صوتَ صريرٍ خشناً على الحجارة، ذيلٌ طولُه بضعةُ أمتار. وكان خطّا الدُخان يخرجان من منخرَيه. لكنّ يُسطاس لم يقُل لنفسه قطُّ الكلمة تِنّين. حتى لو قالها، لم تكن لتجعلَ الأمور أفضل إطلاقاً.



ولكنّه لو كان يعرف شيئاً عن التنانين لربّما تعجّب قليلاً من تصرُّف هذا التنّين. فهو لم يجلس ويُصفّق بجناحيه، ولا أرسل دفقاً من اللهيب من فمه. وقد كان الدُخان المنبعث من منخرَيه كدُخان نارٍ لن تستمرّ طويلاً بعد. كما لم يبدُ أنّه لاحظ وجود يُسطاس، بل تقدّم بكلّ بطءٍ نحو

البِركة، على مهل وبعدّة وقفات. حتّى إن يُسطاس، رغم خوفه، أحسّ أنّ ذلك مخلوقٌ كبير السنّ كئيب. وتساءل هل يجرؤ على الاندفاع بسرعة ومباشرة الصعود. إلّا أنّ المخلوق قد يلتفت إذا أحدث أيّة جَلَبة، أو قد يدبّ فيه مزيدٌ من الحياة، أو لعلّه يُراوغ ويُخادع فقط. وعلى كلّ حال، فما نفع محاولة الفرار بواسطة التسلّق من مخلوقٍ يمكنه أن يطير؟

ثمّ بلغ البِركة وأنزل ذقنه المُحرشفة المَهولة على الحصى حتّى يشرب. ولكن قبل أن يشرب، صدر عنه صراخٌ عظيمٌ كالحشرجة أو هدير الرنين. وبعد بضع ارتعاشات وتشنّجات انقلب إلى جنبه وتمدّد بلا حراك فيما بقي أحد مخلبيه في الهواء. وتدفّق قليلٌ من الدم الداكن خارج فمه المفتوح على وسعه. ثمّ اسودّ الدخان الخارج من منخريه لحظةً وما لبث أن تلاشى، ولم ينبعث مزيدٌ منه.

لم يجرؤ يسطاس أن يتحرّك، وقتاً طويلاً. فربّما كانت تلك هي حيلة الوحش، أو الطريقة التي بها يُغوي المسافرين ليبطش بهم ويُهلكهم. ولكنّ المرء لا يمكنه أن ينتظر إلى الأبد. ولذا تقدّم يُسطاس نحوه خطوة واحدة، ثمّ خُطوتين، وتوقّف مجدّداً. وبقي التنّين بلا حراك، فيما لاحظ يُسطاس أيضاً أنّ نار عينيه قد خمدت. أخيراً اقترب منه، وقد تأكّد الآن تماماً أنّه ميْت. ولمسه مُرتعداً، إلّا أنّه لم يحدث شيء.

وانفرج غَمُّ يُسطاس انفراجاً كبيراً، حتّى كاد يضحك بصوتٍ عالٍ. وقد بدأ يشعر كما لو أنّه حارب التنّين وقتله، بدلاً من مجرّد رؤيته وهو يموت. ثمّ خطا من فوقه وتقدّم إلى البِركة ليشرب، لأنّ الحرّ بات لا يُطاق. ولم يُفاجأ حين سمع قصيف رَعد. بُعيدَ ذلك اختفت الشمس، وقبل أن يُكمل شربته بدأت قطراتُ مطرٍ كبيرةٌ تتساقط.

كان مُناخ تلك الجزيرة بغيضاً جدّاً. ففي أقلّ من دقيقة واحدة تبلّل يُسطاس حتّى جلده، وأُعمي بصره تقريباً مطرٌ غزيرٌ لا يشهد الإنسان مثله في أوروبا. ولم يكُن من نفع في محاولة التسلّق خارج الوادي ما دام الطقس كذلك. فاندفع إلى داخل المخبإ الوحيد الذي رآه، ألا وهو كهف التنّين، حيث تمدّد محاولاً أن يسترجع أنفاسه.

إنّ مُعظمنا يعرفون ما ينبغي أن نتوقّع وجوده في وكر تنّين. ولكن، كما سبق أن قلت، كان يُسطاس قد قرأ فقط الكُتب غير المناسبة في هذا المجال: ففيها كلام كثير عن الصادرات والواردات، والحكومات وشبكات تصريف المياه، إلّا أنّها ضعيفة في موضوع التنانين. ولذلك حيّره كثيراً السطحُ الذي تمدّد عليه، إذ كانت أجزاءٌ منه أكثر وَخزاً من أن تكون حجارة وأكثر صلابةً من أن تكون أشواكاً، وبدا أنّ هنالك كثيراً جدّاً من الأشياء المدوّرة والمسطّحة، وقد كانت كلّها تُخشخِش عندما يتحرّك يُسطاس. وكان عند فُوّهة الكهف نورٌ يكفي لتفحّص ذلك في ضوئه. وبطبيعة الحال، وجد يُسطاس ذلك ما كان ممكناً

أن يقول له أيُّ واحدٍ منّا سلفاً ما هو، أي كنـزاً! وقد كان هنالك تيجان (تلك كانتِ الأشياء الوخّازة) ونقود معدنيّة وخواتم وأساور وسبائك وكؤوس وصِحاف وجواهر.

لم يكُن يُسطاس قطُّ (بعكس معظم الأولاد) قد فكّر بالكنوز كثيراً، ولكنّه أدرك في الحال أيّةَ قيمة ستكون لهذا الكنـز في هذا العالم الجديد الذي عثر عليه بطريقة سخيفة جداً من خلال تلك الصورة في غرفة نوم لوسي في الوطن. إذ قال: «لا وجود للضرائب هنا. وليس عليك أن تُسلّم الكنـز للحكومة. فبقليلٍ من هذه البضاعة يمكنني أن أستمتع بوقتٍ طيّبٍ جداً هنا... ربّما في كالورمِن، فهي تبدو أقلَّ هذه البلدان تزييفاً. تُرى، كم أقدر أن أحمل؟ ذلك السوّار هناك... ربّما كانت الأشياء التي فيه حبّات ماس... سأزلِقه في مِعصَمي. هو كبيرٌ كثيراً، سيعلق إذا دفعتُه إلى هُنا فوقَ كُوعي. ثمّ أملأ جيوبي بحبّات الماس... فذلك أسهل من الذهب. تُرى، متى يتوقّف هذا المطر اللعين؟»

وبعدئذٍ انتقل إلى جزءٍ من الكومة أقلَّ إزعاجاً، حيث كان بمعظمه من القطع النقديّة المعدنيّة، وقعد ينتظر. إلاّ أنّ الرُّعب الشديد، حالما ينتهي، ولا سيّما إذا كان رُعباً هائلاً أعقب مسيرةً في الجبل، يُخلّف لديك تعباً شديداً جداً. ولذلك سطا النوم على يُسطاس حالاً.

وبينما هو يغطُّ في نوم عميق ويشخر، كان الآخرون قد أكملوا غداءهم واشتدّ قلقهم عليه كثيراً. فأخذوا يُنادون:

«يُسطاس! يُسطاس! يا هُوه!» حتّى بُحّت أصواتُهم، ونفخ كاسپيان في بوقه.

عندئذٍ قالت لوسي وقد شحب وجهها: «ليس في مكانٍ قريب، وإلاّ كان قد سمع!»

وقال إدمون: «يا له من رفيق بغيض! لأيِّ غرضٍ، يا تُرى، أراد أن يبتعد مُتسلّلاً هكذا؟»

فردّدت لوسي: «ربّما ضاع، أو سقط في حفرة، أو وقع بأيدي المتوحّشين».

وقال دِرينيان: «أوِ افترسته الوحوش الضارية».

وتمتم رِنْس: «وأنا أقول إنّنا تخلّصنا وارتحنا منه إن كان ذلك».

لكنّ ريبيتشيب قال: «سيِّدي رِنْس، لم تتكلّم قط بكلمة لم تلقِ بك أقلَّ من هذه. ليس ذلك المخلوق صديقاً لي، ولكنّه نسيبٌ للملكة. وما دام في صحبتنا، فشرفُنا يقضي بالعثور عليه والثأر له إذا كان قد قُتل».

وقال كاسپيان: «طبعاً، علينا أن نعثر عليه (إذا قدرْنا). هذا بيتُ القصيد. فالأمر يعني فرقةَ تفتيش وعناءً لا ينتهي. أُفٍّ من يُسطاس!»

في تلك الأثناء، كان يُسطاس نائماً، وقد طال نومه كثيراً. ثمّ أيقظه ألَمٌ في ذراعه. وكان القمر يُرسِل أشعّته إلى فُوَهة الكهف، وقد بدا أنّ سرير الكنوز بات أكثر إراحةً، حتّى إنّه لم يشعر به تقريباً. وحيَّره ألم ذراعه أوّلاً، ثمّ ما لبث أن تنبّه إلى أنّ السوّار الذي سبق أن أقحمه فوق

كوعه صار مشدوداً وضيِّقاً على نحوٍ غريب؛ فلا بُدَّ أنَّ ذراعه قد تورَّمت وهو نائم (وقد كانت الذراع اليُسرى).

وحرَّك ذراعه اليُمنى ليتحسَّس الأُخرى، إلَّا أنَّه توقَّف قبل أن يحرِّكها أكثر من سنتيمترين، وعضَّ شفته مرتعباً. إذ قُدَّامَه تماماً، وإلى يمينه قليلاً، حيث ترامت أشعَّة القمر صافيةً على أرضيَّة الكهف، رأى شكلاً بَشِعاً يتحرَّك. فعرف ذلك الشَّكل، إذ كان مِخلَب تِنِّين. وكان قد تحرَّك لَمَّا حرَّك هو ذراعه، ثمَّ هدأ لَمَّا أوقف تحرُّك يده.

ففكر يُسطاس: «آه، كم تصرَّفتُ بغباوة! طبعاً، كان لذلك الوحش رفيق، وها هو مُستلقٍ بجانبي».

ومرَّت بضع دقائق لم يجرؤ فيها أن يُحرِّك ساكناً. وقد رأى عمودَي دخانٍ رفيعين يتصاعدان أمام عينيه، ويبدوان أسودَين في ضوء القمر، تماماً كما سبق أنِ انبعث دخانٌ من التنِّين الآخر قبلما مات. فكان ذلك مخيفاً جداً حتَّى حبس أنفاسه. ثمَّ تلاشى عمودا الدخان. ولمَّا لم يعُد يقدر أن يحبس نفَسَه بعد، أطلقه خلسةً، وفي الحال ظهرت نفثتان من الدخان ثانيةً. ولكنْ حينذاك أيضاً لم تكُن لديه أيَّة فكرة عن الحقيقة.

وما لبث أن قرَّر أن يتقدَّم شيئاً فشيئاً بكلِّ حذر نحو يساره، ويحاول أن يتسلَّل إلى خارج الكهف. فربَّما كان المخلوق نائماً؛ وعلى كلِّ حال كانت تلك فرصتَه الوحيدة. ولكنَّه طبعاً قبل أن يزحف يساراً نظر إلى جهة اليسار. ويا لَلْهول! فقد كان في تلك الجهة أيضا مِخلَب تنِّين.

لن يلوم أحدٌ يُسطاس إذا ذرف دموعاً في تلك اللحظة. وقد فاجأه مقدارُ دموعه إذ رآها تُطَرطِش على الكنز أمامه. كما أنَّها أيضاً بدت دموعاً حَرَّى على نحوٍ غريب، حتَّى إنَّ البُخار كان يتصاعد منها.

ولكنْ لم يكُنْ البُكاء لينفع. فعليه أن يحاول الزحف إلى الخارج من بين التِنِّينَين. من ثَمّ بدأ يمدُّ ذراعه اليُمنى. وإذا بقائمة التنِّين الأماميَّة ومخِلَبه، عن يمينه، تتحرَّك الحركةَ نفسها تماماً. ثمَّ خطر له أن يحاول ذلك بيُسراه. وإذا بقائمة التِنّين من تلك الجهة تتحرَّك أيضاً.

عجباً، تِنِّينان، واحدٌ من كلِّ جهة، يُقلِّدان كلَّ حركةٍ يأتيها! فانهارت أعصابه ولاذ بالفرار فوراً.

وإذِ اندفع خارجاً من الكهف، حدث كثير من القرقعة والصلصلة، وجَلجلة الذهب، وصَرير الحجارة، حتَّى ظنَّ أنَّ التِنِّينَين كليهما يلحقان به. فأسرع نحو البركة. وكان منظر التنِّين الميْت الشنيع، وهو مُمدَّد تحت ضوء القمر، كافياً لبثِّ الرُعب في قلب أيِّ إنسان، إلَّا أنَّه الآن لم يكَد يُلاحِظه. فقد كانت فكرتُه تقتضي بأن يغوص في الماء.

ولكنْ حالما وصل إلى حافة البركة، حدث أمران. فأوَّلاً، وقع عليه وقوعَ الصاعقة أنَّه يحبو على أطرافه الأربعة... ولماذا، يا تُرى، يفعل ذلك؟ وثانياً، حينما انحنى نحو الماء، ظنَّ لحظةً أنَّ هنالك بعدُ تِنِّيناً آخر يُحدِّق إليه من قلب البركة. ولكنَّه في الحال أدرك الحقيقة. لقد كان وجه التِنِّين

الظاهر في البركة صورةَ وجهه هو مُنعكِساً على الماء! ولم يكُنْ في ذلك أيُّ شكٍّ قطّ. فقد تحرَّكَ الوجه عندما تحرَّكَ هو: إذ فتح فمه وأطبقه كما فتح هو فمه وأطبقه.

لقد تحوَّل إلى تنّين فيما كان نائماً. فإذ نام على مُدّخرات تِنّين، وفي قلبه أفكارُ جَشَع ونيّاتُ سوء تِنّينيّة، تحوَّل هو نفسه إلى تِنّين.

وهكذا اتّضح له كلُّ شيء. فلم يكن بقربه في الكهف تِنّينان اثنان. وكان المِخلَبان إلى يمينه وإلى يساره هُما مِخلَبيه هو: الأيمن والأيسر. وعمودا الدُّخان كانا يصعدان من مِنخَريه هو. أمّا الألم في ذراعه اليُسرى (أو في ما كان ذراعه اليُسرى) فقد تبيَّن له سببُه الآن إذ نظر شزراً من طَرَف عينيه اليُسرى. ذلك أنَّ السِّوار الذي لاءم أعلى ذراع صبيّ بات أصغر بكثير جدّاً من أن يُلائم قائمة تِنّين أماميّة ثخينة قصيرة مُكتنِزة. وقد غار السِّوار عميقاً في لحمه المُحرشَف، وبرز من كِلا جانبيَه تورُّمٌ نابض بالألم. فشدَّ على الموضِع بأسنانه التِنّينيّة، ولكنّه لم يتمكّن مِن انتزاع السِّوار.

وعلى رُغم الألم، كان أوّل شعور خالجه هو إحساسَ ارْتياح. فلم يعُد من شيءٍ يخافه بعد. إذ صار هو نفسُه هائلاً، ولَن يجرؤ على مهاجمته أحدٌ في الدنيا سوى فارسٍ مقدام (وليس أيُّ فارسٍ كان). وفي مقدوره الآن أن ينتقم من كاسپيان وإدمون...

ولكنّه لحظةَ فكَّر في ذلك، أدرك أنّه لا يرغب فيه. فقد

أراد أن يتصادق معهما. أراد أن يرجع إلى ما بين البَشَر فيتحدَّث ويضحك ويتشارك معهم في الأمور. ثمَّ أدرك أنّه وحشٌ معزولٌ عن الجنس البشريِّ كلِّه. فاجتاحه شعورٌ مُرَوِّعٌ بالوحدة والوحشة. وبدأ يعي أنَّ الآخرين لم يعاملوه قطُّ بالفعل معاملة الصديق للصديق. كما بدأ يتساءل هل كان هو شخصاً لطيفاً وأنيساً كما حسب طويلاً. فحنَّ إلى أصواتهم، وتمنّى لو يسمعُ كلمةً رقيقة حتّى من ريبيتشيب فيكونَ شاكراً.

ولمّا فكَّر التِنّينُ المسكينُ (الذي كان يُسطاس) بذلك، رفع صوته وبكى. وما أصعب أن تتصوَّر تِنّيناً مُقتدِراً وهو يبكي بكاءً مريراً تحت ضوء القمر في وادٍ مهجور!

أخيراً قرَّر أَنْ يحاول العثور على طريقٍ للعودة إلى الشاطىء. وقد أدرك الآن أنَّ كاسپيان لم يكُنْ ليُبحِر قطُّ ويتركه على البرّ. واطمأنَّ إلى أنّه سيتمكّن، بطريقة أو أُخرى، من إفهام الناسِ مَن هو.

ثمَّ شرب شربةً طويلة، بعدَها (وأنا أعلم أن هذا مُثير للاشمئزاز، لكنّه ليس كذلك إن فكَّرتَ فيه جيِّداً) أكل التِنّينَ الميْت تقريباً. وكان قد أتى على نصفه قبل أن يدرك ما هو فاعِلُه؛ لأنّه وإن كان عقله — كما تعرف — هو عقلَ يُسطاس، فقد كان ذَوقُه وهضمُه هما ذوقَ تِنّين وهضمَه. وليس عند التِنّين ما هو أشهى من لحم تِنّين طازج. لهذا السبب، نادراً ما تجد أكثر من تِنّين واحد في المنطقة ذاتها.



وبعدئذٍ دار ليصعد من الوادي. فبدأ تسلُّقه بقفزة، وما إن قفز حتّى رأى أنّه يطير. لقد نسي تماماً أمر جناحيه، فكان ذلك مفاجأةً عظيمة له: أولَ مفاجأة سارّة لقِيها منذ وقتٍ طويل. وحلّق عالياً في الهواء، فرأى قِمَم جبالٍ لا تُحصى منتشرةً تحته في ضوء القمر. واستطاع أن يرى الخليج كلوحٍ من فضّة، وجوّابة الفجر راسيةً هُناك، ونيران التخييم تتأجّج في الغابة قرب الشاطىء. فهبط من عُلوٍّ شاهق نحوهم بانقِضاضةٍ واحدة.

كانت لوسي نائمةً نوماً عميقاً جدّاً، لأنّها كانت قد ظلّت مستيقظةً حتى رجوع فرقة التفتيش أملاً بسماع أخبار سارّة عن يُسطاس. وقد تولّى كاسپيان قيادة الفرقة، إلّا أنّهم رجعوا متأخّرين ومُرهَقين، وكانت الأخبار التي حملوها مُقلِقة: لم يجدوا أيّ أثر ليُسطاس، إلّا أنهم شاهدوا تِنّيناً ميّتاً في أحد الأدوية. وحاولوا استنتاج أفضل الاستنتاجات، فطمأن بعضهم بعضاً إلى أنّه لا يُرجَّح وجود مزيد من التّنانين في الجوار، وأنّ ذلك الذي وجدوه ميّتاً حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر يصعب جدّاً توقُّعُ أنّه كان قادراً على قتل أحد قبل ساعاتٍ قليلة من ذلك الوقت.

ولكنّ رِنْس قال: «إلّا إذا أكل ذلك النقّاق الصغير ومات من جرّاء ذلك، فإنّ ذلك الولد قد يُسَمّم أيّ شيء!» غير أنّه قال ذلك همساً، ولم يسمعه أحد.

إنّما في وقتٍ متأخّر من تلك الليلة أُوقِظت لوسي بكلّ هدوء، فوجدت الرفاق جميعاً متكوّمين وهم يتكلّمون همساً.

وسألت لوسي: «ما الأمر؟» فيما كان كاسپيان يقول:

«علينا جميعاً أن نحافظ على هدوئنا. فإنّ تِنّيناً قد طار من توّه فوق رؤوس الأشجار وحطّ على الشاطىء. نعم، وأخشى أن يكون بيننا وبين السفينة. ثمّ إنّ السّهام لا تنفع في مواجهة التّنانين، وهي لا تخاف من النار أبداً».

وبدأ ريبيتشيب يقول: «من بعدِ إذن جلالتك..».

فقال الملك بكلِّ حزم: «كلّا، يا ريبيتشيب. لن تحاول مُنازلَته في معركة واحدة. وما لم تَعِد بإطاعتي في هذا الأمر، فإنّي سآمُر بربطك. ما علينا إلّا أن نبقى متيقّظين، وحالما يطلع الضوء ننـزل إلى الشاطىء ونُقاتله. سأتولّى أنا القيادة. وسيكون الملك إدمون إلى يميني، واللورد دِرينيان إلى يساري. ولا ضرورة لوضع أيّة ترتيبات أُخرى. سيطلع الضوء بعد ساعتين تقريباً. وفي غضون ساعة واحدة، لِتُقدَّم وجبة طعام مع ما تبقّى من النبيذ. وليَجرِ كلُّ شيء في هدوء».

وقالت لوسي: «لعلّه يذهب من تلقاء ذاته».

فردّ إدمون: «ستكون الحال أسوأ إذا ذهب، لأنّنا لن نعرف عندئذٍ أين يكون. إذا كان في الغرفة دَبُور، فأنا أُحِبُّ أن أراه!»

كان باقي الليل رهيباً. ولمّا أُحضِرت وجبة الطعام، تبيَّنَ لكثيرين منهم أنّ قابليّتهم ضعيفة جدّاً، رُغم عِلمهم بأنّ عليهم أن يأكلوا. وبدا أنّ ساعاتٍ لا تنتهي مضت قبل أن بدأ الظلام يتبدّد، وبدأتِ الطيور تُغرّد في أماكن متفرّقة، وصار الجوُّ أكثر برودةً ورطوبةً ممّا كان طوال الليل، فقال كاسپيان: «والآن، عليه يا رفاق!»

فنهضوا، وقد جرّدوا كلُّهم السيوف، وتشكّلوا في كتلة صُلبة، في قلبها لوسي وريبيتشيب على كَتِفها. وكان ذلك أحسن من الانتظار، وأحسّ كلٌّ منهم أنّه أكثر تعلّقاً

بالآخر ممّا يكونون عليه في الأحوال العاديّة. وما هي إلّا لحظة واحدة حتّى أخذوا يتقدّمون. وإذ وصلوا إلى طرف الغابة كان الضوء قد تزايد. وهنالك على الرمل، مثلَ حرذونٍ عملاق، أو تمساحٍ مَرِن، أو حيّةٍ ضخمة ذاتِ أرجُل، وجدوا التنّين ممدّداً بجسمه الهائل المروِّع الكثير النتوءات.

ولكنَّ التنّين، عندما رآهم، بدل أن ينهض وينفث ناراً ودخاناً، تراجع مُنسحِباً – بل يمكنك تقريباً أن تقول: تهادى مُبتعِداً – إلى مياه الخليج غير العميقة.

وقال إدمون: «لماذا يهزُّ رأسه هكذا؟»

كما قال كاسپيان: «ها هو الآن يحني رأسه».

وقال دِرينيان: «وها هو شيءٌ ما يخرج من عينيه».

فقالت لوسي: «عجباً، ألا ترَون؟ إنّه يبكي، وهذه دموع!»

وقال دِرينيان: «لَن أطمئنَّ إلى ذلك، يا آنسة. فذلك هو ما تفعله التماسيح لإلهائك».

فعلّق إدمون: «لقد هزَّ رأسه عندما قلتَ هذا، وكأنّه يقصد أن يقول 'لا'. انظر، ها هو يهزُّه من جديد».

وسألت لوسي: «هل تعتقد أنّه يفهم ما نقول؟»

فأومأ التنّين برأسه بحركة عنيفة.

وانزلق ريبيتشيب عن كتف لوسي، ثمَّ تقدّم إلى الأمام وزعق بصوته الحادّ: «يا تِنّين، أيمكنك أن تفهم الكلام؟»

فأومأ التنّين برأسه إيجاباً.

«أيمكنك أن تتكلّم؟»

فهزّ رأسه أيضاً.

وقال ريبيتشيب: «عندئذٍ، لا ضرورة لتنبيهك إلى وجوب الاهتمام بشؤونك الخاصّة. ولكنْ إذا كنتَ تحلف على مصادقتنا، فارفع قائمتك الأماميّة اليُسرى فوق رأسك».

ففعل ذلك، ولكنْ، ببطءٍ شديد، لأنّ تلك القائمة كانت مُتقرّحة ومُتورّمة من سِوار الذهب.

وقالت لوسي: «أوه، انظروا! إنّ بقائمته عِلّةً ما. يا له من مسكين! ربّما كان يبكي من هذا. ولعلّه جاء إلينا كي نُعالجه كما في قصّة 'أندروكليس والأسد'».

فقال كاسپيان: «انتبهي، يا لوسي. إنّه تِنّينٌ ذكيٌّ جدّاً، ولكنْ قد يكون كذّاباً».

غير أنّ لوسي كانت قد ركضت إلى الأمام فعلاً، يتبعها ريبيتشيب بمقدار ما تستطيع رجلاه القصيرتان أن تحملاه، ثمّ لحق بهما الفتيان ودرينيان أيضاً بالطبع.

وقالت لوسي: «أرني قائمتك العليلة، فقد أتمكّن من معالجتها».

فما كان من التنّين (الذي سبق أن كان يُسطاس) إلّا أنّ مدّ قائمته المعطوبة، بكلّ سرور، مُتذكّراً كيف شفاه بلْسم لوسي من دُوار البحر قبلما صار تنّيناً. ولكنّ أمله خاب. إذ إنّ السائل السحريّ خفّف التورّم

ولطّف الألم قليلاً، لكنّه لم يقدر أن يُذيب الذهب.

وإذ كان الجميع قد احتشدوا لمشاهدة المعالجة، إذا بكاسپيان يصرخ فجأةً: «انظروا!» فيما مضى يُحدّق إلى سِوار الذهب.

كيف انتهت المغامرة

سأل إدمون: «ماذا ننظر؟»

فقال كاسپيان: «الشِّعار المحفور على الذهب».

وعلّق دِرينيان: «مطرقة صغيرة فوقها ماسة كأنّها نجمة. عجباً، لقد رأيتُ ذلك من قبل».

فقال كاسپيان: «رأيتَه؟ طبعاً، رأيتَه. شِعار أُسرة نارنيانيّة عظيمة. هذا سِوار الذراع الخاصُّ باللورد أُكتيشيان».

وقال ريبيتشيب للتنّين: «يا وَغْد، هل افترستَ سيّداً من لُوردات نارنيا؟» إلّا أنّ التنّين هزَّ رأسه نفياً بشدّة.

أمّا لوسي فقالت: «أو ربّما كان هذا هو اللورد أُكتيشيان، وقد تحوّل إلى تِنّين... بسِحرٍ ما، كما تعلمون».

فقال إدمون: «لا داعيَ لأن يكون هذا أيضاً صحيحاً. فجميع التّنانين يدّخرون الذهب. ولكنّي أحسبُه تخميناً مُرجّحاً أنّ أُكتيشيان لم يُجاوز هذه الجزيرة».

وسألت لوسي التنّين: «أأنت اللورد أُكتيشيان». ولمّا هزَّ رأسه نفياً بحزن، تابعت: «أأنت شخصٌ مسحور... أعني بشرياً قد مُسِخ؟»

فأومأ برأسه بشدّة تأكيداً.

وعندئذٍ قال أحدهم (وقد تجادلوا في ما بعد مَن قال ذلك أوّلاً: إدمون أو لوسي؟): «ألستَ أنت... يُسطاس بأيّة حال؟»

فحنى يُسطاس رأسه التنّينيَّ الهائل وخبط الماء بذيله، ففرَّ الجميع إلى الوراء (فيما تفوّه بعض البحّارة بعباراتٍ فوريّة لن أدوّنها مكتوبة) ليتجنّبوا الدموع الهائلة والفائرة التي انهمرت من عينيه.

وحاولت لوسي أن تؤاسيَه، بلِ استجمعت شجاعتها لتُقبّل الوجه المُحرشف، وقال الجميع تقريباً: «حظٌّ سيّئ!» وطمأن بعضهم يُسطاس إلى أنّهم سيقفون بجانبه، كما قال كثيرون إنّه لا بدَّ من وجود طريقة ما لفكِّ السِّحر عنه، وإنَّ سلامته التامّة ستعود إليه بعد يومٍ أو يومين. وبالطبع، كانوا كلُّهم مُتلهّفين لسماع قصّته، ولكنّه لم يكن قادراً على التكلُّم. ثمَّ حاول أكثر من مرّة في الأيّام التالية أن يكتب لهم الخبر على الرمل، ولكنَّ ذلك لم ينجح قطّ. فمن جهة، لم تكن لدى يُسطاس أيُّ فكرة عن كيفيّة حكايةِ قصّة بطريقة سليمة (إذ لم يكُن قد قرأ قطُّ الكتب المُناسِبة في هذا المجال). ومن جهةٍ أُخرى، لم تكُن قطُّ عضلاتُ مخالب التِنّين وأعصابُها الواجبُ استعمالُها قد تدرّبت على الكتابة، كما أنّها لم تُخلَق أصلاً للكتابة على كلِّ حال. ونتيجةً لذلك ما كاد يصل إلى الأخير حتّى جاء مدُّ الموج فجرف كلَّ ما كتبه، ما عدا الأجزاء التي

سبق أن داسها أو سترها بذيله صدفةً. فكان كلُّ ما رآه أيُّ واحد منهم شيئاً يُشبِه ما يلي (حيث النُقَط إشارةٌ إلى ما مُحِيَ عَرَضاً):

لقد نمـ... كهفِ النت التنتن أعني في كهف التنين لأنه كا... مات والمط... ينـزل بغزا... وقمت فلم أقـ... على نزع السو... من ذراعي آه أفّ...

ولكنِ اتّضح للجميع أنّ أخلاق يُسطاس تحسَّنت حينَ صار تنّيناً. فقد كان متشوّقاً للمساعدة. إذ حلّق فوق الجزيرة كلِّها فوجد أنّها جبليّة كلُّها، ولا يُقيم فيها إلاّ الماعز البرّيّ وقطعانٌ من الخنازير البرّيّة. وأحضر من هذه الحيوانات ذبائح كثيرة لتموين السفينة باللَّحم. وقد كان أيضاً قاتلاً عطوفاً جدّاً، لأنّه تمكّن من قتل الحيوان بضربةٍ واحدة من ذيله بحيثُ لم يدرِ أنّه قد قُتل (ويُحتمَل أنه لا يدري حتى الآن). وبالطبع، أكل هو شيئاً من ذلك، ولكنْ وحده دائماً، لأنّه بعدما صار تنّيناً أصبح يحبُّ طعامه طازجاً، ولكنّه لم يُطِق قطُّ أن يدع الآخرين يراقبونه في أثناء وجباته الفوضويّة القَذِرة. وذات يومٍ رجع إلى المُخيَّم، وهو يطير متمهّلاً ومُتعَباً لكنْ ظافراً ظَفراً عظيماً، حاملاً شجرةَ صنوبر كبيرة وطويلة اقتلعها من جذورها في وادٍ بعيد، تصلُح لأنْ يُصنَع منها صَارٍ رئيسيّ. وإذا اشتدَّ البرد في المساء، كما حصل أحياناً بعد الأمطار الغزيرة،

كان مصدرَ راحةٍ للجميع، إذ يأتي الرفاق كلُّهم ويقعدون مُسنِدين ظهورهم إلى خاصرتيه الحاميتين فيتدفّأون جيّداً وتجفُّ ثيابهم. كما كانت نفثةٌ واحدة من نَفَسه الناريّ كفيلةً بإشعال أشدّ النيران استِعصاءً. وكان أحياناً يأخذ مجموعة مختارةً في جولة طيرانٍ على ظهره، بحيث يُتاح لهم أن يشاهدوا كلّ ما تحتهم يتوارى بسرعة، من مُنحدَرات خضراء وأعالٍ صخريّة وأودية ضيّقة سحيقة جدّاً، وأن يروا فوق البحر في البعيد البعيد إلى جهة الشرق بُقعةً من الزُرقة الأشدّ قتاماً في أسفل الأُفق الأزرق، يمكن أن تكون أرضاً يابسة.

أمّا ما أبعد يُسطاس عن اليأس، فكان تلك البهجة (الجديدة عليه تماماً) في أن يحبّه الآخرون، بل بالأحرى في أن يحبّهم هو أيضاً، لأنّ كونه تنيناً كان أمراً موحِشاً جدّاً. فقد كان يرتعب ويرتعد كلّما لمح صورته المنعكسة على الماء وهو يطير فوق بحيرةٍ بين الجبال. وقد كره جناحيه الضخمين الشبيهين بجناحي الوطواط، وظَهره المُسَنَّن كالمنشار، ومخالبه القاسية المعقوفة. وكان يخاف تقريباً أن يبقى وحده، إلّا أنّه كان يخجل أن يكون بصحبة الآخرين. وكلّما حلّ مساءٌ لا يُستخدم فيه كقِرْبة ماءٍ ساخن، كان ينسلُّ إلى خارج المخيَّم، ويستلقي ملتفّاً على ذاته كالحيَّة بين الغابة والمياه. وفي تلك المناسبات، أدهشه كثيراً أن يكون ريبيتشيب هو مؤاسيه الأكثر مُلازمةً له. فإنّ الفأر النبيل كان يتسلّل بعيداً من وسط الحلقة المَرِحة حول نار

المُخيّم ليقعد بقرب رأس التنّين في مهبّ الريح تماماً بحيث يكون بعيداً عن نفثات دُخان أنفاسه. وهناك كان يشرح أنّ ما حدث ليُسطاس إنّما هو مِثال مؤثّر لدَوَران دولاب الحظّ بالعكس، وأنّه لو استقبل يُسطاس في بيته بنارنيا (وقد كان في الواقع جُحراً لا بيتاً، وما كان رأس التنّين، فضلاً عن جسمه، ليتمكّن من دخوله) لتمكّن من إطْلاعه على أكثر من مئة مَثَل على أباطرة وملوك وأُمراء وفُرسان وشعراء وعُشّاق ومُنجّمين وفلاسفة وسَحَرة، هَوَوا من قِمَم النجاح والازدهار إلى أكثر الأحوال ضيقاً وعذاباً، وكثيرون منهم عادت إليهم سلامتهم، فعاشوا في سعادة دائمة بعد ذلك. وربّما لم يبدُ ذلك مُريحاً ومُفرجاً جدّاً في حينه، غير أنّه كان صادراً عن نيّة حسنة بقصد إبداء اللُّطف، ولم ينسه يُسطاس قطّ.

ولكنْ ما تلبّد فوق رأس كلٍّ منهم كغيمةٍ سوداء كان المشكلة المتعلّقة بما يفعلونه بتنّينهم عندما يتأهّبون للإبحار. وقد حاولوا ألّا يتحدّثوا عن هذه المشكلة وهو معهم، غير



أنّه لم يتمالك عن أن يسمع صِدفةً أقوالاً مثل هذه: «هل يتّسع له جانبٌ واحد على طول ظهر السفينة؟ وسيكون علينا أن ننقل جميع المؤونة إلى الجانب الآخر في الأسفل لتحقيق التوازن»، أو «هل ينفع أن نقطره ونجُرّه وراءنا؟» أو «هل يستطيع مُواكبتَنا وهو طائر؟» أو (أغلبَ كلّ شيء) «ولكنْ كيف نُطعِمه؟» وقد أدرك يُسطاس المسكين، أكثر فأكثر، أنّه منذُ أوّل يومٍ صعد فيه إلى ظهر السفينة ما زال مصدر إزعاج شديد، وأنّه الآن بات أكثر إزعاجاً بكثير. فنهش ذلك ذهنَه، مثلما نهش ذلك السّوارُ قائمتَه الأماميّة. ومع علمه بأنّ شدّ السّوار بأسنانه الكبيرة لن يزيد الأمر إلّا سُوءاً، لم يتمالك نفسه عن شدّه بين حينٍ وآخر، خصوصاً في ليالي الحَرّ.

وبعد نحو ستّة أيّام من نزولهم على جزيرة التنّين، صدف أنِ استيقظ إدمون باكراً جدّاً ذات صباح. وكان الظلام قد بدأ يخفّ بحيث يمكنك أن ترى جذوع الأشجار إذا كانت بينك وبين الخليج، ولكن ليس في الاتّجاه المعاكس. فإذِ استيقظ، حسب أنّه سمع صوتَ شيء يتحرّك، فنهض على مِرفَقٍ واحد ونظر حواليه، وإذا به يرى شكلاً قاتماً يتحرّك على طرف الغابة المواجهِ للبحر. وكانت الفكرة التي خطرت في باله حالاً هي هذه: «أنحنُ مُتأكّدون تماماً أنْ ليس في هذه الجزيرة سكّانٌ أصليّون على كلّ حال؟» ثُمّ ظنّ أنّ ذلك هو كاسپيان، فالقامة قامتة

تقريباً، ولكنّه كان يعرف أنّ كاسپيان كان نائماً بقربه تماماً، وكان يرى أنّه لم يتحرّكْ من مكانه. فتحقّق من وجود سيفه في موضعه، ثمّ نهض ليستطلع الأمر. ونزل بهدوء إلى طرف الغابة، فإذا بذلك الشكل القاتم ما يزال هناك. وتأكّد له الآن أنّه أصغر من أن يكون كاسپيان وأكبر من أن يكون لوسي، ولم يُبادِر إلى الهرب. فسحب إدمون سيفه، وهمّ بأن يُنازِل الغريب، فإذا به يقول بصوتٍ خافت: «أهذا أنت، يا إدمون؟»

أجاب إدمون: «نعم، ومَن أنت؟»

فقال الآخر: «ألا تعرفني؟ هذا أنا... يُسطاس».

وقال إدمون: «وحقّ أصلان، هذا صحيح! أيُّها الرفيق العزيز..».

أجاب يُسطاس: «اشش!» وهو يترنّح كما لو كان سيسقط أرضاً.

فقال إدمون مُمسِكاً به: «عجباً! ما بك؟ أأنت مريض؟»

وبقي يُسطاس صامتاً مدّةً حتّى ظنّ إدمون أنّه قد أُغمي عليه، إلّا أنّه قال أخيراً: «ما كانَ أشنعَ ذلك! أنت لا تدري... ولكنْ كلّ شيء بخير الآن. أيمكننا أن نذهب إلى مكانٍ ما كي نتحدّث؟ أنا لا أُريد مقابلة الآخرين الآن».

فقال إدمون: «نعم، وأينَما أردت! يمكننا أن نذهب ونقعد على تلك الصخور هناك. أنا فعلاً سعيدٌ بأن أراك... أحُم... تعودُ كما كنتَ من قبل. لا شكّ أنّك قضيت وقتاً رهيباً جدّاً!»

وذهبا إلى الصخور، حيث قعدا يُسرّحان نظرهما فوق الخليج، فيما أخذ سواد الليل يبهت أكثر، وقدِ اختفت النجوم ما عدا نجمةً واحدة ساطعة جدّاً في البعيد تحتَ قُربَ الأفق.

وقال يسطاس: «لن أُخبرِك كيف صرتُ... تِنّيناً، قبل أن أتمكّن من إخبار الآخرين وإطلاعهم على كلّ شيء. وعلى فكرة، لم أدرِ أنّ ذلك كان تنّيناً حتّى سمعتُكم جميعاً تستخدمون الكلمة ذاتها لمّا ظهرتُ لكم ذلك الصباح. إنّما أُريد أن أُخبرِك كيف لم أَعُدْ تِنّيناً».

فقال إدمون: «هاتِ ما عندك!»

«حسناً، الليلةَ الماضية كنتُ في أشقى وقتٍ مرّ في حياتي. وقد كان سِوار الذراع اللعينُ ذاك يؤلِمني أشدّ الألم..».

«وهل أنت بخير الآن؟»

فضحك يُسطاس – ضحكةً مختلفة عن أيّة ضحكة سبق أن سمعها إدمون منه – وزلّق السّوار من ذراعه بسهولة، قائلاً: «هاكَه! وإن كان الأمر يتعلق بي، فأيُّ مَن أحَبَّ يمكنه أن يأخذه. حسناً، كما قلت، كنتُ البارحةَ مستلقياً وقد طار النوم من عينيّ، أتساءل ماذا سيجري لي. وعندئذٍ... تذكّرتُ أنّ الأمر كلّه ربّما كان حلماً... لستُ أدري».

وقال إدمون بصبرٍ بادٍ: «تابِع كلامك».

«حسناً، على كلّ حال، رفعتُ نظري فأبصرتُ آخِر

شيء كنتُ أتوقّعه على الإطلاق: أسداً ضخماً مُقبلاً نحوي على مهل. والغريب أنّ القمر لم يكُن مشرقاً البارحة، ولكنْ حيث كان الأسد شعّ ضوء القمر. ثمّ اقترب منّي أكثر فأكثر. وخفت منه خوفاً رهيباً. لعلّك تحسب أنّني، وأنا تنّين، كنت أقدر أن أتغلّب على أيّ أسد بسهولة ملموسة. ولكنْ لم يكُن خوفي من هذا النوع. فأنا لم أخَف أن يأكلني، بل خِفتُه هو... لو فهمتَ. حسناً، اقتربَ منّي الأسد كثيراً ونظر في عينيّ مُباشرةً. فأغمضتُ عينيّ إغماضاً مُحكَماً. ولكنّ ذلك لم ينفع، لأنّه طلب إليّ أن أتبعه».

«أتقصد أنّه تكلّم؟»

«لستُ أدري. أمَا وقد ذكرتَ ذلك أظنُّ أنّه لم يتكلّم. ولكنّه طلب منّي على كلّ حال. وأنا عرفتُ أنّ عليّ أن أعملَ ما طلبه منّي، فقمتُ وتبعتُه. فتقدّمني إلى داخل الجبال على طريقٍ طويلة. وقد كان نور القمر ذاك يحيط بالأسد، من فوقِه وحوالَيه، حيثما ذهبنا. وهكذا بلغنا أخيراً قمّة جبلٍ لم أرَه قطّ من قبل؛ وكان على قمّة ذلك الجبل بُستان: شجر وثمر وكلّ شيء، وفي وسط ذلك البستان بئر.

«وقد علمتُ أنّها بئر، لأنّه كان يمكنك أن ترى الماء يتدفّق من أسفلها، ولكنّها كانت أكبر بكثير من معظم الآبار، إذ شابَهت حوض اغتسالٍ مستديراً كبيراً جدّاً وله دَرَج رُخاميّ يؤدّي إليه. وكانت المياه صافيةً صفاءً كُلّيّاً،

فحسبتُ أنّه إنِ استطعتُ أن أنزل إلى هناك وأستحمّ فقد يُخفّف ذلك ألَم قائمتي. ولكنّ الأسد قال لي إنّ عليّ أن أخلع ثيابي أوّلاً. ولا تنسَ أنّني لا أدري أقال أيّ كلامٍ بصوتٍ مسموع أم لم يقُل.

«وهَممتُ بأن أقول إنّني لا أستطيع أن أخلع ثيابي لأنّني لا ألبس أيّ ثياب، فإذا بي أتذكّر أنّ التنانين من صنف الحيّات وأنّ الحيّات تستطيع أن تطرح جلدها. وبالطبع، ظننتُ أنّ ذلك هو ما عناه الأسد. وهكذا بدأتُ أحكّ جلدي، فأخذت حراشفي تتساقط على المكان كلّه. ثمّ حكَكتُ حكّاً أعمق قليلاً، وبدلاً من مجرّد تساقط الحراشف من هنا وهناك، بدأ جلدي كلّه ينسلخ على نحوٍ جميل، كما يكونُ بعد مَرَض، أو كأنّني موزةٌ تُقشَّر. وفي دقيقة أو دقيقتين، خرجتُ من جلدي تماماً. وتمكّنتُ من رؤيته منطرحاً هناك إلى جانبي، وهو يبدو بشعاً بالأحرى. إذ ذاك شعرتُ شعوراً بهيجاً جدّاً. ومن ثَمّ بدأتُ أنزل إلى البئر للاستحمام.

«ولكن ما إن هَممتُ بوضع قدمي في الماء، حتّى نظرتُ فرأيتُ أنّ جلدي كان كلّه قاسياً وخشناً ومجعّداً ومُحرشفاً، تماماً كما كان قبلاً. فقلت: آه، لا بأس في ذلك، فهو إنّما يعني أنّ لديّ ثوباً آخر أصغر تحت الثوب الأوّل، وعليّ أن أطلع منه أيضاً. وهكذا حكَكتُ وهرشتُ من جديد، فانسلخ هذا الجلد التحتانيُّ بصورة جميلة، وطلعتُ منه، وتركتُه مُلقًى بجانب الآخر، ونزلتُ إلى البئر لأستحمّ.

«حسناً، حدث الأمر نفسه تماماً من جديد. وفكّرتُ بيني وبين نفسي: عجباً، كم جلداً عليّ أن أخلع؟ لأنّني كنتُ أتوق لغسل أرجُلي. وهكذا هرشتُ ثالثَ مرّة، فانسلخ عنّي جلدٌ ثالث، كالآخَرَين تماماً، وطلعتُ أنا منه. ولكنْ ما إن نظرت صورتي في الماء، حتّى عرفتُ أنّ الأمر لم ينفَع.

«عندئذٍ قال الأسد – ولكنّي لا أدري هل تكلّم فعلاً: «ينبغي لك أن تدعني أنا أخلع ثيابك!» وأقول لك إنّي كنتُ خائفاً من مخالبه، ولكنّني كنتُ قد يئستُ تقريباً آنذاك. وهكذا، ما كان منّي إلّا أن استلقيتُ على ظهري لأدعَه يفعل ذلك.

«كانت أوّل سلخة سلخها عميقة جدّاً، حتّى حسبتُ أنّها قد اخترقت قلبي رأساً. ولمّا بدأ يُقشّر عنّي الجلد، آلمني ذلك أكثر من أيّ ألم شعرتُ به يوماً. إنّما الشيءُ الوحيد الذي جعلني قادراً على تحمّله كان بهجة الشعور بزوال الجلد الخشن عنّي. أنت تعرف ذلك، إن كنتَ مرّةً قد نزعتَ القشرة الصُلبة عن جُرحٍ مُتقرّح. فالألم شديدٌ كضربة هراوة *، آه! ولكنْ ما أبهجَ أن ترى ذلك الجلد الفاسد يزول عنك!»

فقال إدمون: «عرفتُ تماماً ما تقصده».

* الهراوة: عصا قصيرة ثخينة.

«حسناً، لقد سلخ عنّي تلك البشَرة البشعة دفعةً واحدة – تماماً كما تصوّرتُ أنّني فعلتُ أنا نفسي في المرّات الثلاث الأُخرى إنّما بغير ألم – وإذا بذلك السَّلْخ مُلقًى هنالك على العشب، غير أنّه أثخن وأشدُّ قتاماً وأكثر بُثوراً بكثيرٍ جدّاً مما بَدَت تلك الجلود المسلوخة الأُخرى. وقد وجدتُ نفسي عندئذٍ ناعماً وطريّاً كقضيبٍ أخضر منزوع القشر، وأصغر ممّا كُنت. ثمّ أمسك بي الأسد بقوّة وطرحني في الماء، ولم أُحِبَّ ذلك كثيراً لأنّي كنتُ طريّاً جدّاً من الداخل وليس عليّ جِلد. وقد آلمني ذلك أشدَّ الألم، إنّما لحظةً واحدة، بعدها شعرتُ بارتياح عظيم، وما إن بدأت أسبح وأُطرطِش الماء حتّى تبيَّن لي أنّ كلّ الألم قد فارق ذراعي. وعندئذٍ أدركتُ السبب. فقد رجعتُ صبيّاً من جديد. وربّما حسبتَني كذّاباً إذا أخبرتُك بحقيقة شعوري تجاه ذراعيّ. فأنا أعرف أنّهما بلا عضل، وهشّتان جداً مقارنةً بذراعَي كاسپيان، ولكنّني فرحتُ جدّاً برؤيتهما.

«وبعد وقتٍ قصير أخرجني الأسد من الماء وألبسني».

«ألبسَك؟ بمخلَبيه؟»

«حسناً، لا أتذكّر هذا الجزء تماماً. ولكنّه قام بهذا، بطريقةٍ أو أخرى، وقد ألبسني ثياباً جديدة، هي عينُها التي أرتديها الآن في الواقع. وبعدئذٍ رجعت إلى هنا فجأةً، الأمرُ الذي يجعلني أتصوّر أنّ ذلك كان حلماً على الأرجح».

فقال إدمون: «لا، لم يكُن حلماً».

«ولِمَ لا؟»

«حسناً، هنالك الثياب، من جهة. وأنتَ بالطبع لم تعُد تنّيناً، من الجهة الأُخرى».

وسأل يُسطاس: «فماذا تعتقد أنّه كان إذاً؟»

فقال إدمون: «أعتقد أنّك قد رأيتَ أصلان!»

أجابَ يُسطاس: «أصلان! لقد سمعتُ هذا الاسم يُذكَر بضع مرّات منذ انضمَمْنا إلى جوّابة الفجر. وقد شعرتُ — لا أدري لماذا — أنّني أكرهه. ولكنّني كنتُ أكره كلَّ شيء آنذاك. وعلى فكرة، أرغب في أن أعتذر. إذ يُخيَّل إليَّ أنّني كنتُ فظّاً وسيّئ السلوك كثيراً».

فقال إدمون: «لا بأس! فبيني وبينك، لم تكُن سيّئاً بمقدار ما كنتُ أنا في رحلتي الأولى إلى نارنيا. فأنت كنتَ مُجرَّد أبله؛ أمّا أنا فكنتُ خائناً».

وقال يُسطاس: «طيّب، إذاً لا تحدِّثني عن ذلك. ولكنْ مَن هو أصلان؟ هل تعرفه؟»

أجاب إدمون: «حسناً، هو يعرفني. إنّه الأسد العظيم، ابنُ إمبراطور ما وراء البحر، مَن خلّصني وخلّص نارنيا. ونحن جميعاً رأيناه. ولوسي تراه كثيراً. ولعلّنا مُبحِرون إلى بلد أصلان».

ثمّ لم يقُل أيٌّ منهما كلمةً واحدة حيناً. وكانت آخر نجمة ساطعة قد تلاشت، ومع أنّهما لم يقدرا أن يريا شروق الشمس بسبب الجبال إلى يمينهما، فقد علما أنّه جارٍ لأنّ الفضاء فوقهما والخليج أمامهما صارا بلون الورد الأحمر.

ثمّ زعق في الغابة خلفَهما طيرٌ من نوع الببغاء، وسمعا تحرُّكات بين الأشجار، وأخيراً نَفخاً في بوق كاسپيان، فأدركا أنّ المُخيِّمين قدِ استيقظوا.

وكان الابتهاج عظيماً لمّا مشى إدمون ويُسطاس العائد سليماً إلى حلقة الفَطور حول نار المخيَّم. وعندئذٍ سمع الجميع بالطبع الجزءَ الأوّل من قصّته. وتساءلوا هل قتل التنّينُ الآخرُ اللورد أُكتيشيان قبل بضع سنين أم هل كان أُكتيشيان نفسُه هو التِنّينَ الآخر. أمّا الجواهر التي ملأ يُسطاس بها جيوبه في الكهف فقد اختفت مع الثياب التي كان لابساً إيّاها آنذاك. غير أنّ أحداً، وأقلّ الجميع يُسطاس نفسه، لم يشعر بأيّة رغبة في الرجوع إلى ذلك الوادي للحصول على المزيد من ذاك الكنز.

وبعد ذلك ببضعة أيّام، باتت جوّابة الفجر على أُهبة الإقلاع، وقد رُكِّب لها صارٍ جديدٌ وأُعيد طلاؤها وتمّ تموينُها جيّداً. وقبل ركوبهم السفينة، طلب كاسپيان أن تُحفَر على صخرةٍ ملساء، مُقابِل الخليج، الكلماتُ التالية:

جزيرة التِنّين
اكتشفها كاسپيان العاشر،
ملكُ نارنيا، إلخ...
في السنة الرابعة من مُلكِه.
هُنا، كما نعتقد، تُوفِّي
اللورد أُكتيشيان.

وسيكون لطيفاً جداً، وصحيحاً بحقّ، أن نقول إنّه «منذ ذلك الحين فصاعداً صار يُسطاس صبيّاً آخر». وحتّى نكون صادقين تماماً، نقول إنّه بدأ يصير صبيّاً آخر. وقد كانت له انتِكاساته. وما تزال هناك أيّامٌ كثيرة يمكن أن يكون فيها مُزعِجاً جداً. غير أنّني لَن أُشير إلى مُعظم تلك الأيّام. فإنّ شفاءه قد بدأ فعلاً.

أمّا سوار اللورد أُكتيشيان فقد كان له مصيرٌ غريب. فإنّ يسطاس لم يُرِده، وقدّمه إلى كاسپيان. وكاسپيان قدّمه إلى لوسي، فلم يهمّها أن تحتفظ به. فقال كاسپيان: «حسنٌ جدّاً إذاً، فليَلتقِطْه مَن يقدر!» ورماه عالياً في الهواء. وكان ذلك حيث كانوا واقفين جميعاً يشاهِدون الكلمات المحفورة. فارتفع السّوار عالياً وهو يتألّق في ضوء الشمس، ثمّ علق وتدلّى على نتوءٍ صغير في الصخرة،



كحَلْقةِ رمي أحسنَ راميها. ولم يكن أحدٌ يقدر أن يتسلّق صعوداً ليصِل إليه من تحت، كما لَمْ يكُن أحد يقدر أن يهبط متسلّقاً ليصل إليه من فوق. وها هو — حسب عِلمي — ما يزال مُعلّقاً هناك، وقد يبقى في مكانه حتّى آخِرة ذلك العالم!

الفصل الثامن

النجاةُ بصعوبة مرَّتين

كان الجميع مبتهجين عندما أبحرت جوّابةُ الفجر من جزيرة التنّين. وقد هبّت عليهم ريحٌ مؤاتية حالَما خرجوا من الخليج، فوصلوا باكراً في صباح الغد إلى الأرض المجهولة التي سبق أن رآها بعضُهم وهُم يُحلّقون فوق الجبال فيما كان يُسطاس ما يزال تنّيناً. وكانت جزيرة خضراء منخفضة لا يُقيم فيها إلاّ الأرانب وبعض الماعز. لكنّهم استنتجوا من خرائب الأكواخ الحجريّة والأماكن السوداء التي كانت مواقد للنيران أنّها كانت مأهولةً منذ مدّة غير طويلة. وقد شاهدوا هناك أيضاً بعض العظام والأسلحة، فقال كاسپيان:

«هذا عملُ قراصنة».

وقال إدمون: «أو عملُ تنانين».

أمّا الشيء الوحيد الآخر الذي وجدوه هناك فكان قارباً صغيراً هيكلُه مكسوٌّ بالجلد (يُعرَف بالقُرقل)* على رمال الشاطئ. وكان مصنوعاً من جلدٍ مشدود على هيكل من القصب المجدول. وهو قاربٌ صغير جدّاً لا

يكاد طوله يتجاوز متراً واحداً، وكان المجذاف الذي ما يزال فيه مناسباً له. فحسبوا أنّه إمّا أن يكون قد صُنِع لولَد وإمّا أنّ أهل تلك المنطقة كانوا أقزاماً. وقرّر ريبيتشيب أن يحتفظ به، لأنّ حجمه كان مناسباً له تماماً، فحملوه إلى ظهر السفينة. وقد سمّوا تلك الأرض الجزيرة المحروقة، وغادروها مُبحِرين قبل الظُّهر.

وساقَتْهم رياحٌ جنوبيّة وجنوبيّة شرقيّة نحو خمسة أيّام، وهُم لا يرون أيّ أرض أو أيّ سمك أو طيور نَورس. ثمّ جاء عليهم يومٌ انهمر فيه المطر بغزارة حتّى ما بعد الظهر. وخسر يُسطاس جولتَين في لعبة الشطرنج مقابل ريبيتشيب، وبدأ يعود إلى طباعه القديمة السيّئة. وقال إدمون إنّه تمنّى لو أمكنهما أن يذهبا (هو ولوسي) إلى أميركا مع سوزان. ثمّ تطلّعت لوسي من نوافذ سُطيحة المؤخّر وقالت:

«انتباهاً! أظنّ أنّ السفينة تتوقّف. ثُمّ ما هو ذلك؟»

عندئذٍ هرولوا جميعاً باضطراب إلى السطح، فإذا المطر قد توقّف، وإذا درِينيان الذي كان يقوم بنوبته في المراقبة يُحدّق تحديقاً دقيقاً إلى شيء وراء المؤخّر، أو بالأحرى إلى عدّة أشياء. وقد بدَت شبيهةً قليلاً بصخور ملساء مدوَّرة، مُصطفّةً في صفٍّ كامل مفصولةً بعضُها عن بعضٍ بمسافةٍ تبلغُ نحو اثني عشر متراً. وسمعوا درِينيان يقول:

«ولكنْ لا يمكن أن تكون صخوراً، لأنّها لم تكُن هناك منذ خمس دقائق».

وقالت لوسي: «وها قد اختفى واحدٌ منها».

فقال إدمون: «نعم، وها هو آخرُ يطلع».

وقال يُسطاس: «وهو أقربُ إلينا».

فقال كاسپيان: «كفى! إنَّ الشيءَ كلَّه يتحرَّك إلى هذه الجهة».

وعلَّق دِرِينيان: «وهو — يا مولاي — يتحرَّك بسرعة أكبر بكثير ممّا يُمكِننا أن نبحر، وسيُدرِكنا في دقيقة واحدة».

وحبس الجميع أنفاسهم، لأنَّه ليس جيِّداً أبداً أن يُطارِدك شيءٌ مجهول إمّا على البرّ وإمّا في البحر. إلّا أنَّ ما تبيَّن هو أنَّ ذلك الشيء كان أسوأ بكثير جدّاً ممّا خمَّنه أيٌّ منهم. ففجأةً، وعلى بُعدٍ لا يزيد عن رمية كُرَة من جانب المَيسَرة، برز من البحر رأسٌ مُروِّع. وكان أخضر مكسُوّاً بالطحالب والقِرمزيّات، وفيه بُقَع أرجوانيَّة اللَّون — إلّا حيث التصقت به أصداف المحار — وشكلُه كشكل رأس الحصان تقريباً، إنَّما بغير أُذُنين. وكانت له عينان هائلتان، عينان مُعَدَّتان للتحديق إلى أعماق المحيط المُظلِمة، وفمٌ فاغِرٌ مليءٌ بصفٍّ مُزدَوج من الأسنان الحادَّة الشبيهة بأسنان السمك. وقد تقدَّم الرأسُ ما ظنّوه أوَّلاً رقبةً ضخمةً جدّاً، ولكنْ إذ برز المزيد منه شيئاً فشيئاً، علم الجميع أنَّ ذلك لم يكن رقبته بل جسمه، وأنَّهم في الأخير كانوا يُشاهِدون ما تمنّى كثيرون جدّاً بغباوةٍ أن يروه: أفعى البحر الكبيرة! وكان ممكناً أن يروا طيّات ذَنَبها الضخم من بُعدٍ بعيد، مرتفعةً فوق سطح الماء حيناً بعد حين. وقد باتَ رأسُها الآن أعلى ارتفاعاً من صاري السفينة.

عندئذٍ هبَّ كلُّ رجل إلى سلاحه. ولكنْ لم يكُن ممكناً القيام بشيء، إذ إنَّ ذلك الوحش كان خارج مُتناوَل أيديهم. وقال قائدُ رُماة السهام: «أطلِقوا! أطلِقوا!» فأطاعه كثيرون، ولكنَّ السهام انزلقت عن جلد أفعى البحر كما لو كان مُصفَّحاً بالحديد — ثمَّ صمت الجميع دقيقةً رهيبة، مُحدِّقين عالياً إلى عينيها وفمها ومُتسائلين إلى أين ستَثِب.

غير أنَّها لم تثِب، بل مدَّت رأسها بسرعة فوق السفينة بمستوى عارضة الشرّاع. ثمَّ بات رأسُها بجانب بُرج القتال. ومع ذلك مطَّت رأسَها مطّاً طويلاً حتّى صار فوق حاجز المَيمنة الأعلى. ثمَّ بدأت تهبط، لا على ظهر السفينة المزدحم بل إلى الماء، حتّى صارت السفينة كلُّها تحت قوسِ أفعى. وفي الحال تقريباً بدأت تلك القوس تصغر، بحيث صارت أفعى البحر بالفعل مُلامِسةً تقريباً لجانب جوّابة الفجر عند الميمنة.

وإذا بيُسطاس (بعدما ظلَّ يحاول جاهداً أن يُحسِن التصرُّف حتّى عكَّر المطرُ ولعبة الشطرنج مزاجه) يقوم الآن بأوَّل عملٍ باسِلٍ فعله على الإطلاق. وقد كان بيده سيفٌ سبق أن أعاره كاسپيان إيّاه. فما إن صار جسم الحيَّة قريباً قُرباً كافياً على جانب الميمنة، حتّى قفز نحو حاجز الحافة وبدأ يضربه ضرباتٍ مُتتالية بكلِّ قوَّته. وصحيحٌ أنَّه لم يُنجز شيئاً ما عدا تحطيم ثاني أفضل سيوف كاسپيان، لكنَّ ذلك كان عملاً حسناً يقوم به مُبتدئٌ غِرّ.

وكان ممكناً أن ينضمَّ إليه آخرون، لو لم يقُل ريبيتشيب بصوتٍ عالٍ في تلك اللحظة: «لا تُقاتِلوا، بل ادفعوا!» وقد كان من غير المعتاد أن ينصح الفأرُ أحداً بعدم القتال، حتّى إنّ أنظار الجميع التفتت إليه في تلك اللحظة الرهيبة. ولمّا قفز إلى أعلى جانب السفينة، قُدّام جسم الأفعى، وأسند ظهره الصغير المكسوّ بالوبر إلى ظهرها الضخم المُحرشَف اللزِج، وبدأ يدفع بأقصى جهده، أدرك عددٌ منهم ما يعنيه، واندفعوا إلى كِلا جانبَي السفينة ليعملوا مثل عمله. وقد فهم الجميع الحقيقة لمّا ظهر رأسُ أفعى البحر ثانيةً بعد هُنيهة، إلى الميسرة هذه المرّة وظهرُها نحوهم.

ذلك أنّ الوحش كان قد جعل من ذاته حلقة حول جوّابة الفجر وقد بدأ يُضيّق تلك الحلقة ويشدُّها. وعندما تصير تلك الحلقة شديدة جداً، يَصدر صوتُ قرقعة وطقطقة هائل، وتتطاير شظايا الخشب الصغيرة حيث كانت السفينة، وتتصيّدهم الأفعى من الماء واحداً واحداً! ففرصتهم الوحيدة للنجاة كانت بدفع الحلقة إلى الوراء حتّى تنزلق من حول مؤخّر السفينة، وإلّا (تعبيراً عن الفكرة نفسها بطريقة أُخرى) فبدفع السفينة إلى الأمام لإخراجها من الحلقة.

طبعاً، لم تكن لريبيتشيب وحده فرصةُ القيام بذلك أكثر من إمكانيّة حَملِه لكاتدرائيّة، ولكنّه كاد يقتل نفسه وهو يحاول ذلك قبل أن يُزيحَه الآخرون. وسرعان ما كان

ركّاب السفينة كلّها، ما عدا لوسي والفأر (إذ خارت قواه) قدِ اصطفُّوا في صفَّين طويلين بمحاذاة حافّتَي السفينة، وصَدرُ كلّ رجُل إلى ظهر الرجل الذي في المقدّمة، بحيث صار ثقلُ الصفّ كلّه منصبّاً على الرجُل الأوّل، وهم يدفعون دفعاً قويّاً لإنقاذ حياتهم. ومرّت ثوانٍ قليلةٌ مُرهِقة (بدت كأنّها ساعات) لم يظهر أنّ شيئاً قد حدث فيها. إذ طقطقتِ المفاصِل، وتقطّر العَرَق، وخرجتِ الأنفاس لُهاثاً ونخيراً. وما لبثوا أن شعروا بأنّ السفينة تتحرّك. ورأوا أنّ حلقة الأفعى قد صارت أبعد عن الصاري ممّا كانت. ولكنّهم لاحظوا أيضاً أنّها باتت أصغر. فبات الخطر الحقيقيُّ الآن أقرب. أيستطيعون أن يمرّروها من حول سُطَيحة المؤخّر، أم قد صارت أضيق من أن تسمح لهم بذلك؟ بَلى! ستنزلق تماماً، إذ كانت مستقرّةً على حاجز السُّطَيحة. وهكذا أسرع اثنا عشر منهم أو أكثر إلى أعلى السُّطَيحة. فكان ذلك أفضل بكثير. إذ كان جسم أفعى البحر الآن منخفضاً جداً بحيث أمكنهم أن يقفوا في صفّ واحد على السُّطَيحة ويدفعوا جنباً إلى جنب. وقد ارتفع مستوى الأمل عندهم حتّى تذكّر الجميع المُؤخَّر العاليَ المنحوت بشكل ذيلِ تنّين في مؤخّر جوّابة الفجر. فإنّ إخراج الوحش من فوق مؤخّر السفينة سيكون مستحيلاً تماماً.

وصاح كاسپيان بصوتٍ أجَشّ: «هاتوا فأساً، وتابِعوا الدَّفع!»

وقد كانت لوسي، وهي تعرف مكان كلّ شيء، واقفةً على ظهر السفينة الرئيسيّ تحدّق إلى السُّطيحة عالياً، فسمعت ما قاله كاسپيان حيث كانت. وفي بضع ثوانٍ نزلت إلى الأسفل، فأحضرتِ الفأس، وأخذت تصعد السُّلَّم بسرعة نحو السُّطَيحة. ولكنْ حالما بلغت السَّطح سُمع صوت تحطُّم عظيم يُشبِه سقوط شجرة، فترجَّحت السفينة واندفعت كالسهم إلى الأمام. إذ في تلك اللحظة ذاتها، أكان لأنّ أفعى البحر دُفعت دفعةً قويّة، أم لأنّها قرّرت بغباوةٍ أن تُرخيَ حلقتها، انخلع مؤخَّر السفينة المنحوت كلّه وتحرَّرت السفينة!

وكان الآخرون منهوكي القوى بحيثُ لم يقدروا أن يرَوا ما رأته لوسي. فهناك، على بعد بضعة أمتارٍ وراءهم، أخذت حلقة جسم أفعى البحر تتصاغر بسرعة حتّى تلاشت وسط رشاش من الماء. وقد قالت لوسي دائماً إنّها رأت على وجه المخلوق نظرة رضىً بلهاء (ولكنّها بالطبع كانت مُتأثّرة ومتوتّرة جداً في تلك اللحظة، وربّما كان ذلك مجرّد تخيُّل). إنّما المؤكّد أنّه كان حيواناً غبيّاً جداً، لأنّه بدلاً من مُطاردة السفينة ردّ رأسَه إلى الوراء وبدأ يتشمّم جسمَه بالذات، وكأنّه توقّع أن يجد حُطام جوّابة الفجر هناك. غير أن جوّابة الفجر كانت قد ابتعدت بُعْداً لا بأس به، مندفعةً أمام نسمةٍ منعشة، وقد تمدّد الرجال أو قعدوا يلهثون ويئنّون في أنحاء ظهر السفينة، حتّى تمكّنوا الآن من التحدُّث عن تلك الحادثة، ثمّ من التضاحُك بشأنها. ولمّا قُدّم إليهم شيءٌ من

الشراب المُنعِش أطلقوا أيضاً هُتافاً، وامتدح الجميع شجاعة يُسطاس (مع أنّها لم تُجدِ نفعاً) وبسالة ريبيتشيب.

وبعد ذلك أبحروا ثلاثةَ أيّام أُخرى، وهم لا يرَوْن سوى الماء والسماء. وفي اليوم الرابع تغيّرَ اتّجاه الريح إلى الشمال وبدأت أمواج البحر ترتفع؛ وفي عصر النهار تقريباً تحوّلت الريح إلى عاصفة هوجاء تقريباً. ولكنّهم في الوقت عينه لمحوا برّاً إلى جهة ميسرة السفينة. فقال درِينيان:

«من بعدِ إذنك، يا مولاي، سنحاول أن نلجأ إلى حِمى ذلك البرّ تجذيفاً ونُرسي السفينة، عسى أن يهدأ هذا النَّوء». فوافق كاسپيان، ولكنّ التجذيف طويلاً بعكس النَّوء لم يُوصِلْهم إلى البرّ قبل المساء. ومع آخِر ضوء في ذلك النهار، وجّهوا السفينة إلى مرفإٍ طبيعيّ وأرسَوا. ولكنْ لم ينـزل أحدٌ منهم إلى الشاطئ تلك الليلة. وفي الصباح وجدوا أنفسهم في خليج أخضر من أرضٍ وعرة موحشة ترتفع مائلةً إلى قمّة صخريّة. ومن الشمال الكثير الرياح وراء القمّة، انحدرت غيومٌ متلبّدة بسرعة. فدلّوا القارب محمّلاً ببراميل الماء الفارغة.

وقال كاسپيان وهو يقعد على ألواح القارب الخلفيّة: «مِن أيّ جدولٍ سنملأ البراميل ماءً، يا درِينيان، إذ يبدو أنّ جدولين يصبّان في الخليج؟»

فأجاب درينيان: «لا فرق، يا مولاي! ولكنْ أعتقد أن الطريق إلى ذاك الذي إلى جهة الميمنة أقصر، أعني الجدول الشرقيّ».

وقالت لوسي: «ها هو المطر آتٍ!»

فقال إدمون، وكان المطر قد بدأ ينهمر: «لا بدَّ أنّكِ على حقّ! فرأيي أن نذهب إلى الجدول الآخر، حيث بعضُ الأشجار التي توفّر لنا شيئاً من الوقاية».

وقال يُسطاس: «نعم، لنذهبْ. فلا خير في أن نتبلَّل أكثر من اللازم».

غير أنَّ دِرينيان ظلَّ طوال الوقت موجِّهاً القارب نحو الميمنة، كما يفعل المُناكِدون إذ يظلُّون يقودون السيّارة بسرعة تزيد عن ستّين كيلومتراً في الساعة فيما تشرح لهم أنّهم يسلكون طريقاً خاطئاً.

وقال كاسپيان: «هما على حقّ، يا دِرينيان. فلماذا لا تُدير القارب وتتّجه نحو الجدول الغربيّ؟»

فأجاب درينيان بشيء من الاقتضاب: «كما تشاء، يا صاحب الجلالة». وكان قد أمضى يوماً صعباً في البحر أمس، ولم يُحبَّ نصائح أهل البرّ. غير أنّه غيَّر خطَّ سيره؛ وقد تبيَّن في ما بعد أنّه فعل ذلك للخير.

فما إن أنهوا ملء البراميل بالماء، حتّى توقّف المطر. وقرَّر كاسپيان مع يُسطاس وولَدَي آل پيڤنسي وريبيتشيب أن يصعدوا إلى قمّة التلّة ويرَوا ما يمكن أن يُرى. وكان تسلُّقهم شاقاً قليلاً، بين العُشب القاسي والخَلَنج*، ولم يرَوا إنساناً ولا حيواناً ما عدا طيور النورس. فلمّا بلغوا

* الخلنج: نبات أوراقه صغيرة دائمة الخضرة، أزهاره وردية جرسية الشكل.

القمّة تبيَّن لهم أنّهم على جزيرة صغيرة جداً، لا تزيد مساحتها عن نحو ثمانين ألف متر مربَّع. ومن هناك بدا البحر أكبر وأكثر وحشةً ممّا بدا مِن على ظهر جوّابة الفجر، بل أيضاً مما بدا من بُرجِ القتال فيها.

وإذ نظر يُسطاس إلى الأفق الشرقيّ، قال للوسي بصوت خافت: «ألا ترين أنَّ من المُزعج الاستمرارَ في الإبحار إلى هناك وليس لنا أيّة فكرة عمّا قد نُلاقيه هناك؟» إلّا أنّه قال ذلك فقط بداعي العادة، وليس بدناءةٍ فعلاً، كما كان من شأنه أن يفعل في ما مضى.

كان الطقس أبرد كثيراً من أن يسمح بالبقاء طويلاً على أعلى التلّة، لأنَّ الريح كانت ما تزال تهبُّ بقوّة من الشمال. وإذ داروا لينـزلوا، قالت. لوسي: «دعونا لا نرجع على الطريق ذاتها. فلنَمشِ على القمّة قليلاً ونـنـزل بمحاذاة الجدول الآخر، ذاك الذي أراد دِرينيان أن يذهب إليه».

فوافق الجميع على ذلك، وبعد نحو خمس عشرة دقيقة وصلوا إلى منبع النهر الثاني. فإذا بهم في مكان أكثر تشويقاً ممّا توقّعوا: بُحيرة جبليّة صغيرة عميقة، تحيط بها الصخور العالية ما عدا قناةً ضيّقة صوب البحر يتدفّق منها الماء. وهناك في الأخير صاروا بعيدين عن مهبّ الريح، فقعدوا كلُّهم على نبات الخَلنج الطريّ فوق الجُرف للاستراحة قليلاً.

قعد الجميع، ما عدا واحداً (هو إدمون) هبَّ واقفاً من جديد بسرعةٍ فائقة، وأخذ يتلمّس بيده بين الخلنج قائلاً:

«تحت الخلنج في هذه الجزيرة حجارة حادَّة. أين ذلك الشيء المُزعِج؟... آهَه، الآن أمسكتُ به... عجباً! لم يكُن حجراً قطّ، بل هو مِقبَض سيف. بل أُقسِمُ! إنَّه سيفٌ كامل، أو ما أبقى منه الصدأ. لا بدَّ أنَّه مطروحٌ هُنا منذ دهور».

وإذِ احتشدوا حوله كلُّهم، قال كاسپيان: «وهو سيفٌ نارْنياني أيضاً، كما يدلُّ منظره».

وقالت لوسي: «وأنا أيضاً قاعدة على شيء، على شيءٍ قاسٍ». ثمَّ تبيَّنَ أنَّه بقايا درع من زَرَد. وعندئذٍ انحنى الجميع على رُكَبهم وأيديهم، متلمِّسين ثنايا الخلنج الكثيف في كلّ اتّجاه. وقد أسفر بحثُهم هذا بالتدريج عن خوذة وخنجر وبعض النقود المعدنيَّة، ليست من الأهلَّة الكالورمِنيَّة بل من «الأسود» و«الأشجار» النارْنيانيَّة الأصيلة كالتي كان يمكنك أن تراها كلَّ يومٍ في السوق، أكان في سدّ السمامير أم في بيرونا.

ثمَّ قال إدمون: «يبدو كما لو أنَّ هذا هو كلُّ ما بقي من آثار واحدٍ من لُورداتنا السبعة».

فقال كاسپيان: «هذا ما كنتُ أُفكِّر فيه تماماً... ترى، أيُّ واحد منهم؟ ليس على الخنجر ما يُبيِّن ذلك. ثُمَّ كيف مات، يا تُرى؟»

وأضاف ريبيتشيب: «وكيف لنا أن نثأر له؟»

أمَّا إدمون (وهو وحدَه من بين المجموعة سبق أن قرأ عدَّة روايات بوليسيَّة) فقد كان في تلك الأثناء يُفكِّر، وما لبث أن قال:

«اسمعوا! في هذا الأمر شيءٌ يُثير الريبة. لا يُعقَل أن يكون قُتِل في معركة».

فقال كاسپيان: «ولِمَ لا؟»

أجاب إدمون: «لأ تُوجَد عِظام. والعدوُّ قد يأخذ السلاح ويترك الجثَّة. ولكنْ مَن سمع يوماً بفتًى يكسب في قتال فيحمل الجثة بعيداً ويترك السلاح؟»

فبادرت لوسي قائلةً: «ربَّما قتله حيوانٌ مفترس».

أجاب إدمون: «لا بدَّ أن يكون عندئذٍ حيواناً ذكيّاً حتَّى يخلع قميص الزَّرَد عن الضحيَّة».

فقال كاسپيان: «لعلَّه تِنِّين!»

وردَّ يُسطاس: «غير مُحتمَل. فالتنِّين لا يقدر على ذلك، وأنا خبير بالأمر».

فقالت لوسي، إذ لم تَرُقها فكرة القعود من جديد بعدما أثار إدمون قضيَّة العظام: «طيِّب، على كلّ حال لِنغادرْ هذا المكان!»

ثمَّ قال كاسپيان وهو ينهض: «إذا أحببتم، فلا أظنُّ أنَّ أيَّ شيء من هذه البقايا يستحقُّ أن نأخذه معنا».

وداروا فنزلوا إلى الفتحة الصغيرة التي بها يخرج الجدْول من البحيرة، حيث وقفوا يتأمَّلون المياه العميقة داخل نطاق الصخور. وكان ذلك اليوم حارّاً، حتَّى أُغريَ بعضهم دون شكٍّ بالاغتسال، ورغبوا جميعُهم في شرب شربة ماء. وفي الحقيقة والواقع أنَّ يُسطاس همَّ بأن ينحني ويغترف بعض الماء بكفَّيه حين صرخ

www.rewity.com



ريبيتشيب ولوسي كلاهما: «انظروا!» فنسي أمر شربته ونظر إلى الماء.

كان قعر البركة من حجارة كبيرة زرقاء ضاربة إلى اللون الرماديّ والمياه صافية تماماً، فإذا في القعر تمثالُ رجُل بحجم الأصل مصنوعٌ من الذهب على ما يبدو، وقد كان مُلقًى على وجهه ويداهُ فوقَ رأسه. وصدف أنّه بينما كانوا ينظرون إليه انقشعت الغيوم وظهرت أشعّةُ الشمس، فترامى الضوء على التمثال من رأسه إلى قدمَيه. وفكّرت لوسي أنّ ذلك هو أجمل تمثالٍ شاهدته على الإطلاق.

فهمس كاسپيان: «جيّد! كان هذا يستحقُّ أن نأتيَ وننظره! تُرى، هل نستطيع أن نُخرِجه؟»

وقال ريبيتشيب: «يمكننا أن نغطس لإخراجه، يا مولاي».

فردَّ إدمون: «لا خيرَ في هذا. فإن كان على الأقلّ ذهباً حقيقيّاً — ذهباً خالصاً — يكون أثقل بكثير من

أن نقدر على حمْله. وتلك البركة بعمق أربعة أمتار أو خمسة إذا قيست بالسنتيمتر. إنّما مهلاً لَحَيظة! من الخير أنّني أحضرتُ معي رُمحَ صيد. فلنأخذ فكرةً عن حقيقة العُمق. أمسك بيدي، يا كاسپيان، فيما أميل فوق الماء قليلاً». فأمسك كاسپيان بيد إدمون، فيما مال هذا إلى الأمام وبدأ يُنـزِل رمحه في الماء.

وقبل أن يصل الرمح إلى نصف العُمق، قالت لوسي: «لا أعتقد أنّ التمثال من ذهب أبداً. فالنور هو السبب. إنّ رمحك يبدو باللون نفسه تماماً!»

وإذا ببضعة أصواتٍ تسأل معاً: «ما المشكلة؟» إذ كان إدمون قد أفلت الرمح من يده فجأةً.

فقال إدمون لاهثاً: «لم أقدر أن أمسكه، فقد بدا ثقيلاً جدّاً»

وقال كاسپيان: «وها هو على القعر الآن. إنّ لوسي على حقّ! فهو يبدو بلون التمثال تماماً».

إلّا أنّ إدمون، وقد بدا أنّه يواجه مشكلةً ما مع حذائه، أو كان على الأقل مُنحنياً يتفحّصه، عدّل قامته حالاً وصاح بالصوت الحادّ الذي لا يكاد الناس يَقوَون على مخالفته:

«إلى الوراء! ارجِعوا عن الماء كلُّكم. ارجِعوا حالاً!»

فأطاعوا كلُّهم، وأخذوا يُحدّقون إليه.

وقال إدمون: «أُنظروا! انظروا إلى مُقدَّم حذائي».

فبدأ يُسطاس يقول: «إنّه يبدو أصفر قليلاً».

وقاطعه إدمون: «إنّه من ذهب، من ذهب خالص. انظروا إليه. تحسّسوه. لقد زال الجلد عنه فعلاً، وهو ثقيلٌ ثِقلَ الذهب».

فقال كاسپيان: «وحقّ أصلان! إنك لا تعني أن تقول..».

وقال إدمون: «بلى، أعني! إنّ هذه المياه تحوّل الأشياء إلى ذهب. لقد حوّلتِ الرمح إلى ذهب، ولذلك صار ثقيلاً جداً. وكانت تلطم قدميّ قليلاً (من الخير أنّني لم أكُن حافياً) فحوّلت غطاء مُقدَّم حذائي إلى ذهب. وصاحبُنا المسكين ذاك في القعر... حسناً، أنتم ترَون حاله».

فقالت لوسي بصوتٍ خافت: «إذاً، ليس هو تمثالاً أبداً».

«نعم، لقد اتّضح كلّ شيء الآن. إنّه جاء إلى هُنا في يوم حَرّ. وقد خلع ثيابه على رأس الجُرف الصخريّ، حيثُ كنّا قاعدِين. أمّا الثياب فقد بلِيَت أو أخذتها الطيور لتبطين أعشاشها بها؛ وأمّا السلاح فما يزال هناك. ثُمّ إن الرجُل غطس في الماء وعندئذٍ..».

فقاطعت لوسي: «كفى! يا له من أمرٍ مُروِّع!»

وقال إدمون: «ويا لها من نجاةٍ بأُعجوبة نجَوناها نحن!»

وأضاف ريبيتشيب: «حقّاً إنّها بأعجوبة! فقد كان ممكناً في أيّة لحظة أن يزلّ إلى الماء إصبعُ أحدِنا، أو قدَم

أحدِنا، أو شاربُ أحدنا، أو ذيلُ أحدنا..».

وقال كاسپيان: «ومع ذلك، فلنا أن نُجرِّب الأمر أيضاً». ثمّ انحنى واقتلع قبضة من نبات الخلنج، ثمّ ركع بجانب البركة بكلّ حرص وغمسها في الماء. فكان ما غمسه خلنجاً، ولكنّ ما سحبه كان نموذجاً كاملاً من الخلنج مصنوعاً من الذهب الأنقى، ثقيلاً وناعماً كالرصاص.

ثم تكلّم كاسپيان ببطء، وقد احمرّ وجهه إذ قال: «إنّ المَلِك الذي كانت هذه الجزيرة له كان ممكناً أن يصير أغنى ملوك العالم على وجه السرعة. إنّي أُعلِن هذه الجزيرة أرضاً نارنيانيّة إلى الأبد. وستُدعى جزيرة ماء الذهب. وأنا أُلزِمكم جميعاً حِفظ السرّ. فلا يعلمَنّ أحدٌ بهذا الأمر – حتّى درِينيان – تحت طائلة الإعدام! أسمعتم؟»

فقال إدمون: «إلى مَن تتكلّم؟ أنا لستُ من رعاياك، بلِ العكسُ هو الصحيح بالحقيقة. فأنا واحدٌ من ملوك نارنيا الأقدمين، وأنت تابعٌ بالولاء للملك الأعظم الذي هو أخي».

وردّ كاسپيان، واضعاً يده على مِقبَض سيفه: «هل وصل الأمرُ إلى هذا الحدّ، أيّها الملك إدمون؟»

عندئذٍ قالت لوسي: «آه، كفى! كُفّا عن هذا كِلاكما. ذلك أسوأ ما في صحبة الصبْيان ومعاشرتهم. فأنتم جميعاً مُغفّلون مُستأسِدون مُتبجّحون... أُووووه!..». ثمّ تلاشى صوتُها في لُهاثٍ مُفاجئ. وقد شاهد الباقون كلُّهم ما شاهدته هي.

فعبرَ سفح التلّ الرماديّ فوقهم — وقد كان رمادياً لأنَّ الخلَنج لم يكن قد أزهر بعد — بغير أيّ ضجيج وبغير أن ينظر إليهم، مُتألِّقاً كأنَّه تحت ضوء الشمس الساطع مع أنَّ الشمس كانت في الواقع قدِ احتجبت خلف غَيمة، مرَّ مُتهادِياً أضخمُ أسدٍ رأته عينا بَشَريٍّ على الإطلاق. وقد قالت لوسي في ما بعد واصفةً المشهد: «إنَّه كان بحجم فيل»، مع أنَّها في مرَّة أُخرى قالت إنَّه «بحجم حصانِ عَرَبة». ولكنْ لم يكن الحجم هو المهمّ. فلم يجرؤ أيٌّ منهم أن يسأل عن حقيقته، إذ عرفوا إنَّه أصلان.

ولا رأى أحدٌ قطُّ كيفَ ذهب أو إلى أين. ونظروا بعضُهم إلى بعض كأشخاصٍ يستيقظون من النوم. ثمَّ قال كاسپيان:

«عَمَّ كُنَّا نتحدَّث؟ ألَم أجعل نفسي أُضحوكة؟»

فقال ريبيتشيب: «يا مولاي، هذا مكانٌ ملعون. فلنرجعْ إلى القارب حالاً. ولو كان لي شرف تسمية هذه الجزيرة لَدعَوتُها ماء الموت».

وقال كاسپيان: «إنَّ لهذا الاسم في أُذني وقعاً حسناً جدّاً، يا ريب، وإن كنتُ لا أدري سبب ذلك إذْ أُفكِّر فيه الآن. ولكنْ يبدو أنَّ الطقس يستقرّ، وأُرجِّح أنَّ دِرِينيان يرغب في الإقلاع. وكم لدينا من أخبار نحكيها له!»

ولكن لم يكن لديهم بالحقيقة أخبارٌ كثيرة يحكونها، لأنَّ ذكريات الساعة الأخيرة تشوَّشت كلُّها في أذهانهم. وقد قال دِرِينيان لرِنْس بعد بضع ساعات، إذ عادت جوّابة

الفجر إلى الإبحار من جديد وتوارت جزيرةُ ماء الموت وراء الأُفق:

«بدا أنَّ جلالاتهم جميعاً مسحورون قليلاً، لمَّا صعدوا إلى ظهر السفينة. لقد حدث لهم شيءٌ ما في ذلك المكان. والأمر الوحيد الذي أمكنني أن أفهمه منهم بوضوح أنَّهم وجدوا جُثَّة واحدٍ من أولئك اللوردات الذين نبحث عنهم».

فأجابه رِنْس: «ألا تعتقد ذلك، يا رُبَّان! حسناً، صاروا الآن ثلاثة. فيبقى أربعة فقط. وبهذا المُعدَّل، يمكن أن نرجع إلى ديارنا بعد رأس السنة بمدَّة قصيرة. وهذا شيءٌ جيِّد أيضاً. فإنَّ حماستي تفتر قليلاً. طابت ليلتك، سيِّدي».

الفصل التاسع

جزيرة الأصوات

ثمّ أخذت الرياح تهبُّ من الغرب بالذات، بعدما كانت قد هبّت طويلاً من الشمال الغربيّ. وكلّما أشرقت الشمس صباحاً طالعةً من البحر، كان مُقدّم جوّابة الفجر يُقابِل قلب الشمس مباشرةً. ورأى بعضُهم أنّ الشمس بدت أكبر ممّا كانت تبدو في نارنيا، ولكنّ الآخرين لم يوافقوهم. وظلّوا يُبحِرون ويُبحِرون أمام نسيم لطيفٍ لكنْ ثابت، دون أن يرَوا سمكاً أو نورساً أو سفينةً أُخرى أو شاطئاً. فأخذت المؤونة تنفَد من جديد، وتسرَّب إلى أذهانهم أنّهم ربّما وصلوا إلى بحر لا نهاية له أبداً. ولكنْ لمّا بزغ فجرُ آخرِ يوم حسبوا فيه أنّ استمرارهم في رحلتهم نحو الشرق مغامرةٌ عَبَثيّة، ظهرَ لهم آنذاك تماماً بَرٌّ منخفض منتشر كغيمة بينهم وبين مشرق الشمس.

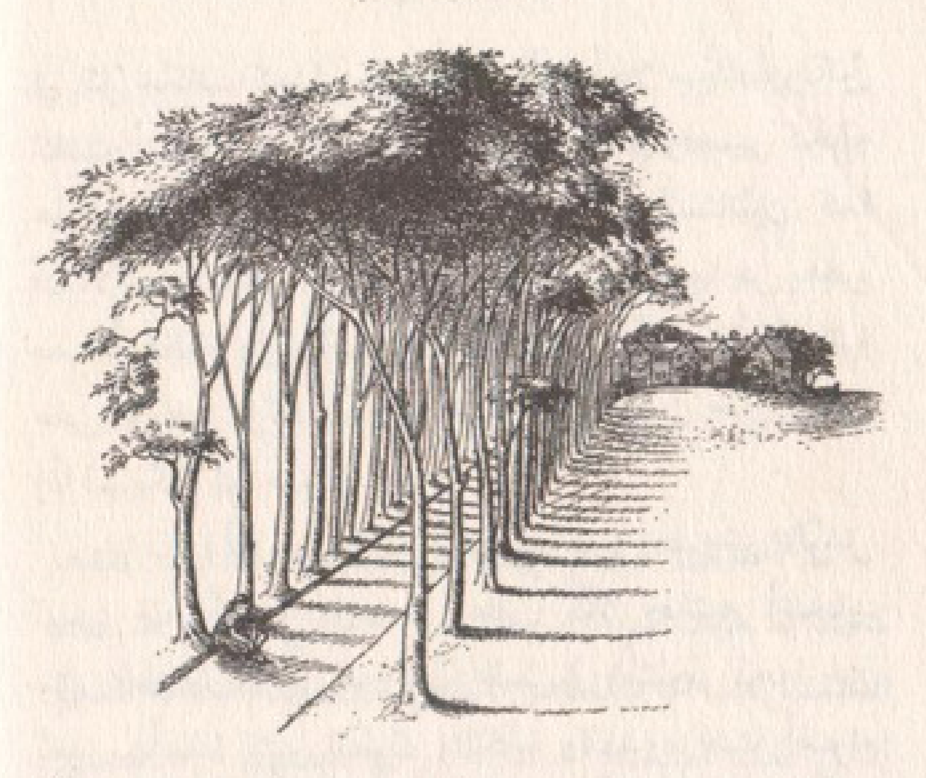
وبعدئذٍ أرسَوا في خليج عريض، عند مُنتصف عصر النهار تقريباً، ونزلوا إلى الشاطئ. فإذا بهم في أرض مختلفة جدّاً عن كلّ ما سبق أن رأوه حتّى الآن. إذ إنّهم لمّا عبروا الشاطئ الرمليّ وجدوا الصمت والفراغ مُخيّمَين

في كلّ مكان، كما لو كانت تلك أرضاً بلا سكّان، ولكنْ كانت أمامَهم مُروجٌ مستوية عشبُها ناعم وقصير كحالِه عادةً في بيت إنكليزيّ كبير يتعهّده عشرة بُستانيِّين. كما أنّ الأشجار، وهي كثيرة، كانت مُتباعِدةً بعضُها عن بعض مسافةً كافية، ولم تكن أغصان مُكسّرة أو أوراقٌ مُتناثِرة على الأرض. وكان يُسمَع هديل الحَمام بين حينٍ وآخر، إنّما لم يكُنْ أيُّ صوتٍ آخر.

وما لبثوا أن وصلوا إلى ممرٍّ ضيّقٍ طويل مفروش بالرّمل ليس فيه عُشبة واحدة، وعلى كِلا جانبَيه أشجار. وفي الطرَف الآخر من هذا الطريق المُشجَّر لمحوا عن بُعدٍ بيتاً بدا كثير الطول والكآبة والهدوء تحت أضواء شمس العصر.

وحالما دخلوا ذلك الممرَّ، أحسّت لوسي أنّ في فَردة حذائها حصاةً صغيرة. وكان أكثر حكمةً في ذلك المكان المجهول أن تطلب من الآخرين انتظارها ريثما تنزع الحصاة. غير أنّها لم تفعل ذلك، بل توقّفت بهدوء في آخِر الصفّ حيث قعدَت لتخلع فَردة حذائها؛ وكان رباطها قد انعقد عقدةً صعبة.

وقبل أن تتمكّن من حلّ العقدة، كان الآخرون قد سبقوها بمسافة لا بأس بها. ولمّا أخرجتِ الحصاة، وأخذت تنتعل الحذاء من جديد، لم تعُد قادرةً على سماع صوتهم. ولكنّها في الحال تقريباً سمعت شيئاً آخر، لم يكن صادراً من جهة البيت.



كان ما سمِعَته صوت خَبْط مكتوماً. وقد بدا كأنَّ عشرات العمّال الأقوياء يضربون الأرض بأقصى قوّتهم بمطارقَ خشبيّةٍ ضخمة. وأخذ الصوت يقترب منها بسرعةٍ فائقة. وكانت قاعدةً وظهرُها مُسنَد إلى جذع شجرة. وبما أنّها لم تكن من الأشجار التي يقدر الإنسان أن يتسلّقها، فلم تكُن لوسي تستطيع أن تفعل بالحقيقة شيئاً سوى أن تبقى جالسةً بلا حراك وهي مُلتصِقة بالشجرة على أمل ألّا يراها أحد.

دُق طُق، دُق طُق... ومهما كان، فلا بدَّ أنّه بات قريباً جداً الآن، لأنّها استطاعت أن تسمع الأرض تهتزُّ تحتها. لكنّها لم تقدر أن ترى شيئاً. وخُيِّل إليها أنّه لا بُدَّ أن ذلك الشيء — أو تلك الأشياء — وراءها تماماً. ولكنْ

عندئذٍ سقطت خَبطةٌ على الممرّ أمامها تماماً. وقد عرفت أنّها كانت على الممرّ، لا من الصوت فقط بل أيضاً لأنّها رأتِ الرمل يتبعثر وكأنّه تلقّى ضربة قويّة. إلّا إنّها لم تقدر أن ترى أيَّ شيء ضربه. ثُمَّ تراجعت أصواتُ الخبط كلُّها معاً مبتعدةً عنها نحو سبعة أمتار، وانقطعت فجأةً. وبعدئذٍ سمعَتِ الصوت.

كان ذلك مُخيفاً جدّاً، لأنّها ظلّت غير قادرة على رؤية أيّ شخص على الإطلاق. وظلّ كامل ذلك الريف الشبيه بالمُتنزَّه يبدو هادئاً وخالياً مثلما بدا أوّلاً لمّا ترجّلوا عليه. وعلى الرغم من ذلك، فعلى بُعد نحو مترين فقط منها، تكلّم صوت. وكان ما قاله:

«يا رفاق، الآن فُرصتُنا المؤاتية».

وفوراً ردّت جوقةُ أصواتٍ كاملةٌ: «اسمعوه، اسمعوه! لقد قال: 'الآن فرصتُنا المؤاتية!' أحسنتَ، يا رئيس. أنتَ على حقٍّ تماماً!»

ثمّ تابع الصوتُ الأوّل: «أقول لكم: انزلوا إلى الشاطئ، بينهم وبين قاربهم، وليلجأ كلُّ ابن امرأةٍ إلى سلاحه. واقبضوا عليهم حين يحاولون مُباشرةَ رحلتهم».

فقال الصوت الأوّل: «بِسُرعة إذاً، يا رفاق، بِسُرعة. هيّا بنا!»

وقال الآخرون: «صحيحٌ أيضاً، يا رئيس. هذا أفضلُ أمرٍ تُصدِره! وهو تماماً ما كُنّا سنقوله نحن. هيّا بنا!»

وفي الحال سُمع صوتُ الخَبْط من جديد، عالياً جداً في البداية، ثمّ ما لبث أن أخذ يخفت تدريجياً، حتّى تلاشى أخيراً في اتّجاه البحر.

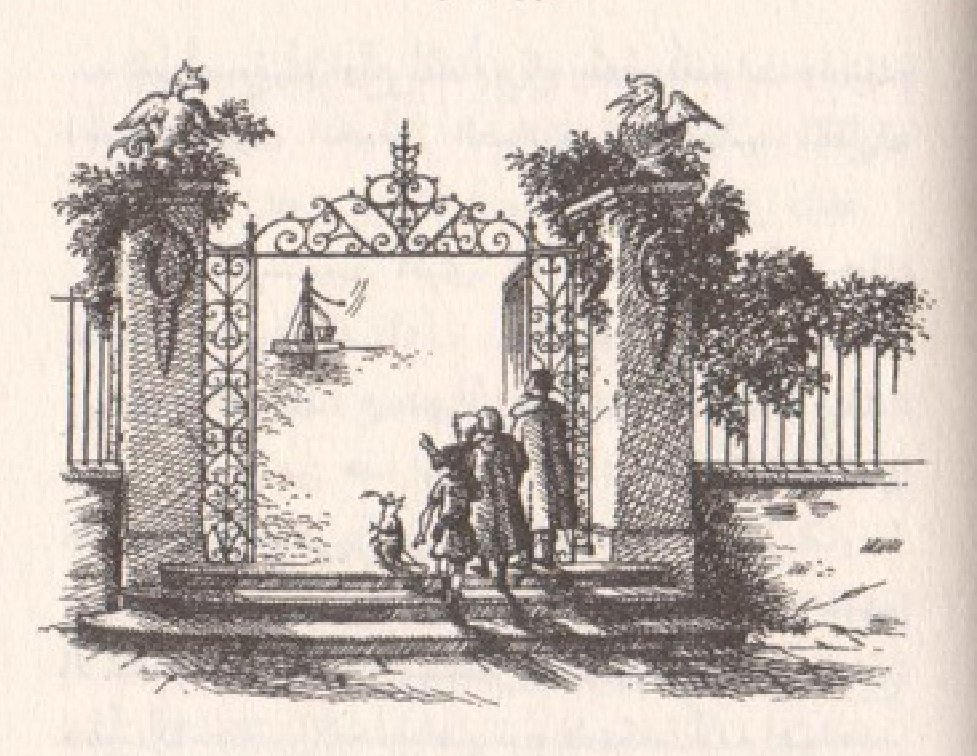
وعلمَت لوسي أنّ الوقت لا يتّسع كي تجلس متفكّرةً في ما قد تكون هذه المخلوقات غير المرئيّة. فحالما تلاشى صوت الخبط، نهضت وركضت على طول الممرّ وراء الآخرين بأسرع ما يمكن أن تحملها رِجلاها. إذ يجب أن تُنبّههم مهما كان الثمن.

وبينما كان هذا كلُّه جارياً، وصل الآخرون إلى البيت. وقد كان بناءً منخفضاً، بعلوّ طابقين فقط، مبنيّاً بحجارة ناعمة جميلة، كثيرَ النوافذ، يُغطّي اللّبلابُ المعترش أجزاءً من حيطانه. وكان كلُّ شيءٍ هادئاً للغاية، حتّى إنّ يُسطاس قال: «أظنُّ أنّه فارغ». ولكنّ كاسپيان أشار بصمتٍ إلى عمود الدُخان المنبعث من إحدى المداخن.

ثمّ وجدوا مدخلاً واسعاً مفتوحاً، فعبروه إلى ساحة مرصوفة بالحجارة. وحدث أنّهم هناك عثروا على أوّل دليل على أنّ شيئاً غريباً يحيط بتلك الجزيرة. ففي وسط الساحة كانت مضخّة، وتحت المضخّة دلو. ولم يكن من شيء مُستغرَب في ذلك. غير أنّ مسكة المضخّة كانت تتحرّك صعوداً وهبوطاً، مع أنّه لم يبدُ أنّ أحداً يُحرّكها.

وقال كاسپيان: «ها هنا سحرٌ ما، يعمل عمله!»

فردّ يُسطاس: «آليّات! أظنُّ أنّنا وصلنا إلى بلد مُتمدّن أخيراً!»



في تلك اللحظة اندفعت لوسي إلى داخل الساحة وراءهم، وهي تشعر بالحرارة ونفَسُها يكاد ينقطع. وحاولَت إفهامهم بصوتٍ خافت ما قد سمعته صِدفةً. ولمّا أدركوا الأمر جزئيّاً، لم يبدُ حتّى أشجعُهم مسروراً جدّاً. إذ إنّ كاسپيان تمتم قائلاً:

«أعداء غير مرئيّين، وقد اعترضوا بيننا وبين القارب. هذه مصيبة سيّئة علينا أن نتصدّى لها».

وسأل إدمون: «أليس لديك أيّةُ فكرة عن أيّ نوعٍ من المخلوقات هُم، يا لُو؟»

«كيف تكون لديّ فكرةٌ ما، يا إدي، وأنا لم أقدر أن أراهم؟»

«هل ظهر أنّهم آدميّون مِن وَقْع خطواتهم؟»

«لم أسمعْ أيَّ وقْعِ أقدام، بل مجرَّد أصوات وذينِك الخَبط والطَّرْق المُخيفَين الصادِرَين عمَّا يُشبِه المطارق الخشبيَّة!»

وقال ريبيتشيب: «تُرى، هل يصيرون مرئيِّين حين يطعنهم أحد بالسيف؟»

فقال كاسپيان: «يبدو أنَّنا سنكتشف حقيقة ذلك. ولكنْ لنخرجْ من هذا المدخل. فعند المضخَّة واحدٌ من هؤلاء القوم يُصغي إلى كلِّ ما نقول».

ثمَّ خرجوا ورجعوا إلى الممرِّ، حيث يمكن أن تخفيهم الأشجارُ قليلاً. وقال يُسطاس: «ليس في هذا أيُّ نفع حقّاً: أن نحاول الاختباء من قوم لا يمكننا أن نراهم! فقد يكونون حوالَينا من كل ناحية».

وعندئذٍ قال كاسپيان: «والآن، يا دِرينيان، ما قولك في أن نتخلَّى عن القارب كأنَّنا فقدناه، وننـزل إلى مكانٍ آخر من الخليج، ونُصدِر إشارةً إلى جوّابة الفجر كي تُبحِر نحونا وتُصعِدنا إلى ظهرها؟»

فأجاب دِرينيان: «ليس عُمق الماء كافياً لذلك، يا مولاي».

وقالت لوسي: «يمكننا أن نصلَ السفينةَ سباحةً».

ثمَّ قال ريبيتشيب: «اسمعوني يا ذوي الجلالة جميعاً. مِن الحماقة أن نفكِّر بتجنُّب عدوٍّ غير مرئيٍّ بأيِّ مقدارٍ من الزحف والتسلُّل. فإن كان هؤلاء المخلوقات يَنوون أن يجرُّونا إلى القتال، فتأكَّدوا أنَّهم سينجحون في ذلك.

ومهما أسفر ذلك عنه، فإنِّي أُفضِّل مُنازلتهم وجهاً لوجه على أن يمسكوا بي بذيلي».

فقال إدمون: «أظنُّ فعلاً أنَّ ريب على حقٍّ هذه المرَّة».

وقالت لوسي: «بالتأكيد، إذا رآنا رِنْس وركّاب جوّابة الفجر الآخرون نُقاتل على الشاطئ، فسيتمكّنون من القيام بشيءٍ ما».

ولكنَّ يُسطاس قال ببؤس: «إلَّا أنَّهم لن يَرَونا نُحارب إذا لم يتمكّنوا من رؤية أيِّ عدوٍّ. فقد يحسبون أنَّنا فقط نلوِّح بسيوفنا في الهواء على سبيل المَرَح».

فخيَّم صمتٌ محفوفٌ بالقَلَق، حتَّى قال كاسپيان أخيراً:

«حسناً، لنُكمِلْ مشروعنا! علينا أن نذهب ونواجههم. فلنصافح بعضُنا بعضاً بالأيدي... ضعي سهماً في قوسكِ، يا لُو... جرِّدوا السيوف... والآن، عليهم! فربَّما يعرضون علينا التفاوض».

وقد استغربوا أن يَروا المروج والأشجار الضخمة تبدو هادئةً تماماً فيما هم يتقدَّمون راجعين إلى الشاطئ. ولَمّا وصلوا إلى هناك، ووجدوا القارب حيث كانوا قد تركوه، وليس على الرَّمل الناعم أحدٌ يُرى، شكَّ أكثر من واحدٍ بينهم أنَّ لوسي ربَّما تخيَّلت تخيُّلاً ما قد قالته لهم. ولكنْ قبل أن يصلوا إلى الرَّمل، خاطبهم صوتٌ من الهواء يقول:

«مكانَكم، يا سادة، مكانَكم! علينا أن نُكلِّمكم أوّلاً. فها هنا خمسون منّا وأكثر، وفي أيدينا أسلحة!»

وردَّتِ الجوقة: «اسمعوه، اسمعوه! هذا رئيسُنا. صدِّقوا ما يقوله واثقين. إنَّه يقول لكم الحقّ، إنَّه يقوله!»

فعلَّق ريبيتشيب قائلاً: «لستُ أرى هؤلاء المحاربين الخمسين».

أجابه الصوتُ الرئيسيّ: «صحيح، صحيح! أنت لا ترانا. ولِماذا؟ لأنّنا غيرُ مرئيّين!»

وقالت الأصواتُ الأُخرى: «تابعْ، يا رئيس، تابع! إنَّك تتكلَّم كلاماً حاسماً. وهم لا يستطيعون أن يطلبوا جواباً أفضل من ذلك».

فقال كاسپيان: «سكوتاً، يا ريب!» ثمَّ أضاف بصوتٍ أعلى: «أيُّها القوم غير المرئيّين، ماذا تريدون منّا؟ وماذا فعلنا حتّى نكسب عداوتكم؟»

أجاب الصوتُ الرئيسيّ: «نُريد شيئاً تقدر تلك الفتاة الصغيرة أن تفعله لنا». (وأوضح الآخرون أنَّ ذلك هو ما كان ممكناً أن يقولوه هُم أنفسُهم.)

فقال ريبيتشيب: «الفتاة الصغيرة! إنَّ الآنسة مَلِكة».

أجاب الصوت الرئيسيّ: «لا يهمُّنا أمرُ الملكات». (وقاطعه الآخرون موافقين: «لا يعنينا ذلك بعد، لا يعنينا ذلك بعد!") ثمَّ أضاف: «ولكنّنا نريد شيئاً تقدر هي أن تفعله».

فقالت لوسي: «ما هو؟»

وأضاف ريبيتشيب: «وإن كان شيئاً مُضادّاً لشرَف جلالتها أو سلامتها، فسيُدهِشكم أن تروا كم يمكننا أن نُقتَل قبل أن نموت».

فقال الصوت الرئيسيّ: «حسناً، هي قصّة طويلة. فهلّا نقعد جميعاً!»

وأبدَتِ الأصواتُ الأُخرى موافقتها التامّة على هذا الاقتراح، غير أنَّ النارنيانيّين ظلّوا واقفين. ومضى الصوت الرئيسيُّ يقول:

«حسناً، إليكمُ الخبر. لقد كانت هذه الجزيرة مِلكاً لساحرٍ عظيم منذ زمان لا تعيه الذاكرة. ونحن جميعاً خُدّامُه، أو ربّما ينبغي أن أقول بعبارةٍ أُخرى إنّنا كنّا خُدّامه. حسناً، اختصاراً للقصّة الطويلة، هذا الساحر الذي أتكلّم عنه طلب إلينا أن نعمل شيئاً لم نحبّه. ولماذا؟ لأنّنا لم نكُن نريده. حسناً، هذا الساحر نفسه غضب غضباً عظيماً، لأنّه ينبغي أن أقول لكم إنّه كان مالِكَ هذه الجزيرة ولم يتعوَّدْ أن يُخالِفَ أحدٌ أمره. وقد استشاط غضباً، كما تعلمون. ولكنْ مهلاً، أين صرتُ؟ أوه، نعم، بعد هذا صعد الساحر إلى الطابق الأعلى (إذ يجب أن تعرفوا أنّه كان يحتفظ بجميع أدواته السحريّة فوقُ، ونحن جميعاً كنّا نُقيم تحتُ في الأسفل)، أقول إنّه صعد إلى الطابق الأعلى وألقى علينا سحراً، سحراً مُبشِّعاً. فإذا رأيتُمونا الآن — وبرأيي أنّكم ستشكرون حظكم لعدم قدرتكم على رؤيتنا — فلن تُصدِّقوا كيف كان منظرنا قبل تبشيعنا. حقّاً، لن تُصدِّقوا.

وهكذا صرنا بَشِعين جداً بحيثُ لم نحتمِل أن ننظر بعضُنا إلى بعض. وبعد، ماذا فعلنا؟ حسناً، سأقول لكم ما فعلنا: انتظرنا حتّى حسبنا أنّ ذلك الساحر عينه قد نام بعد الظُّهر، ثمّ تسلّلنا إلى الطابق الأعلى، وتوجّهنا إلى كتابه السحريّ، بجراءةٍ لا مثيل لها، لنرى إن كان يمكننا أن نفعل أيّ شيء بشأن هذا التبشيع. ولكنّنا جميعاً أخذنا نتصبّب عرقاً ونرتجف، ولذا لن أخدعكم. إنّما، صدّقوني أو لا تُصدّقوني، أُوكّد لكم أنّنا لم نقدر أن نجد أيّة صيغة سحريّة نافعة لنـزع بشاعتنا عنّا. وبينَ مرور الوقت وخوفنا من أن يستيقظ السيّد العجوز في أيّة لحظة — وقد كان العَرَق يسيل منّي سيلاً، ولذا لستُ أخدعكم — حسناً، اختصاراً للقصّة الطويلة، وسواءٌ أصَبنا في ما فعلنا أم أخطأنا، عثرْنا في الأخير على صيغة سحريّة تجعل الناس غير مرئيّين. وفكّرنا أنّه أفضلُ لنا أن نكون غير مرئيّين من أن نظلّ على بشاعتنا الشديدة تلك. ولماذا؟ لأنّنا سنحبّ ذلك أكثر. وهكذا، فإنّ ابنتي الصغيرة التي هي بِعُمر فتاتِكم الصغيرة تماماً، وقد كانت فتاةً جميلة جداً قبل تبشيعها (وإن كانت ستعود سريعاً إلى حالتها السابقة حالما ينعكس السحر)، أقول إنّ ابنتي الصغيرة نطقت بالصيغة السحريّة، إذ يجب أن تصدر إمّا عن فتاة صغيرة وإمّا عنِ الساحر نفسِه — إنْ فهمتُم ما أعنيه — وإلّا فلن تكون فعّالة. ولماذا؟ لأنّه لا يحدث شيء عندئذٍ. وهكذا، فإنّ صغيرتي كليپسي نطقت بالصيغة السحريّة، إذ كان ينبغي

أن أقول لكم إنّها تُحسِن القراءة جيّداً، وإذا بنا جميعاً غيرُ مرئيّين تماماً كما يمكنكم أن تتمنّوا. وأنا أُوكّد لكم أنّه كان مُريحاً جداً ألّا نرى بعضُنا وجوه بعض. في البداية، على كلّ حال. إنّما خُلاصة الأمر كلّه أنّنا سئمنا كليّاً كوننا غير مرئيّين. وهنالك شيءٌ آخر بعد، ألا وهو أنّنا لم نحسب قطّ حِسابَ أن يصير ذلك الساحر غير مرئيٍّ أيضاً (أعني الساحر نفسه الذي أخبرتكم بأمره قبلاً). غير أنّنا لم نعُد نراه منذ ذلك الحين إطلاقاً. ولذلك لا نعرف أميْتٌ هو، أم قد رحل، أم هو جالسٌ في الطابق الأعلى هناك حيث لا يُرى، وربّما كان ينـزل إلى هنا ولا يُرى أيضاً. وصدّقوني أنّه لا نفْع في الإصغاء، لأنّه كان دائماً يمشي حافياً، فلا يُصدِر أيّ صوتٍ يتعدّى صوتَ هرٍّ كبيرٍ جدّاً. وسأقول لكم كلّكم، يا سادة، بصريح العبارة: إنّ الأمر قد صار أثقلَ من أن تقوى أعصابنا على احتماله».

تلك كانت قصّةَ الصوت الرئيسيّ، ولكنْ مُختصرةً كثيراً جدّاً، لأنّني أغفلتُ ما قالته الأصواتُ الأُخرى. وفي الواقع أنّه لم يكن يقول ستّ كلماتٍ أو سبعاً بغير أن يُقاطِعه الآخرون مُبدِين موافقتهم أو تشجيعهم، ممّا كاد يُفقِد النارنيانيّين صوابهم من نفاد الصبر. ولمّا انتهت القصّة، ساد صمتٌ طويلٌ جدّاً.

ثمّ قالت لوسي أخيراً: «ولكنْ، ما دخْلُنا نحن بهذا كلّه؟ لستُ أفهم ذلك!»

فأجاب الصوت الرئيسيّ: «يا لَلعجب! هل أطلتُ

حديثي ولم أُوضِح قصدي الأساسيّ؟» وهدرت الأصوات الأخرى بحماسةٍ شديدة: «بَل أوضَحْت، بل أوضحت! لم يكُن أحد يقدر أن يشرح الموضوع أوضح وأفضل مَا فعلت. فتابعْ، يا رئيس، تابع!»

فبدأ الصوتُ الرئيسيُّ يقول: «حسناً، لا داعيَ لأنْ أحكيَ القصَّة كلَّها من جديد».

وقال كاسپيان وإدمون: «لا داعي، بالتأكيد».

فقال الصوت الرئيسيُّ: «حسناً، بكلّ اختصار. طالما انتظرنا منذ وقتٍ بعيد فتاةً صغيرة جميلة من بلاد أجنبيَّة — مثلَكِ أنتِ على الأرجح يا آنسة — تصعد إلى الطابق الأعلى وتتوجَّه إلى الكتاب السحريّ وتعثر على الصيغة السحريَّة التي تُبطِل كوننا غير مرئيِّين، وتنطق بها. وقد حلفْنا جميعاً أنّ أوّل غرباء ينـزلون على جزيرتنا (وأقصد هنا جماعة معها بنتٌ صغيرة جميلة، لأنَّه لو لم تكن معهم لكانت مسألة أخرى) لَن نسمح لهم بالمغادرة وهم أحياء، إلّا إذا عملوا لنا ما يلزم. ولهذا السبب، يا سادة، فإذا كانت فتاتكم الصغيرة لا تفي بالمطلوب، ينبغي لنا أن نقطع أعناقكم جميعاً. وهذا على سبيل المعاملة بالمثل، كما قد تقولون، وأرجو ألّا تنزعجوا من هذا».

وقال ريبيتشيب: «لستُ أرى أسلحتكم. فهل هي أيضاً غير مرئيَّة؟» وما كادت الكلمات تخرج من فمه، حتَّى سمعوا صوت أزيز، وفي اللحظة التالية أصاب رمحٌ إحدى الأشجار خلفهم واستقرَّ فيها.

فقال الصوت الرئيسيُّ: «ذلك هو رُمح، ذلك هو!»

وردَّ الآخرون: «هو ذلك، يا رئيس، هو ذلك! لقد أحسنتَ في ما فعلت».

فتابع الصوت الرئيسيّ: «وقد رميتُه بيدي! وسلاحُنا يصير مرئياً عندما يُغادِر أيدينا».

وسألت لوسي: «ولكنْ لماذا تُريدون منّي أنا أن أفعل ذلك؟ لماذا لا تقدر أن تفعله واحدةٌ من قومكم؟ أليس لديكم أيَّةُ بنات؟»

فردَّت جميع الأصوات: «لا نجرؤ على ذلك، لا نجرؤ على ذلك. لن نصعد إلى الطابق الأعلى مرَّةً أُخرى!»

وقال كاسپيان: «معنى ذلك أنكم تطلبون من هذه الآنسة أن تواجه خطراً لا تجرؤون أن تطلبوا من أخواتكم وبناتكم أن يواجهنه!»

فردَّت جميع الأصوات بابتهاج: «هذا صحيح، هذا صحيح! لقد عبَّرتَ أحسن تعبير. إه، أنت مُثقَّف جداً، أنت كذلك. وأيُّ شخص يمكنه أن يرى ذلك».

وبدأ إدمون يقول: «حسناً، من بين جميع الأمور الوحشيَّة..». لكنَّ لوسي قاطعته قائلة:

«أعليَّ أن أصعد إلى الطابق الأعلى ليلاً، أم ينفع أن أصعد نهاراً؟»

فأجاب الصوت الرئيسيّ: «أُوه، نهاراً، نهاراً، بكلّ تأكيد. ليس في الليل. فلا أحد يطلب منكِ أن تفعلي ذلك: أن تصعدي إلى الطابق الأعلى في ظلام الليل؟ لا!»

www.rewity.com

فقالت لوسي: «حسنٌ جداً، سأفعل ذلك إذاً». ثمَّ التفتت إلى الباقين وقالت لهم: «لا، لا تحاوِلوا إيقافي. ألا ترون أنَّ ذلك لا ينفع؟ فهناك عشراتٌ منهم هنا. ولا نستطيع أن نقاتلهم. أمَّا إذا ذهبْت، فستكون لنا فرصةٌ بالفعل».

فقال كاسپيان: «ولكنَّ هناك ساحراً!».

أجابت لوسي: «أعرِف! ولكنْ ربَّما لا يكون رديئاً كما يقولون ألا تستنتجون أنَّ هؤلاء القوم ليسوا شجعاناً جدّاً».

وقال يُسطاس: «أكيدٌ أنَّهم ليسوا أذكياء جدّاً».

وقال إدمون: «انظُري إلى هُنا، يا لُو! لا يمكننا حقّاً أن ندعَكِ تعملين عملاً كهذا. اسألي ريب، فأنا على ثقة بأنَّه سيقول القول نفسه».

فردَّت لوسي: «ولكنَّ هذا لإنقاذ حياتي وحياتكم أيضاً. فأنا لا أريد أن تُقطِّعني سيوفٌ غير منظورة إرْباً إرْباً، لا أنا ولا أيّ شخصٍ غيري».

وقال ريبيتشيب: «إنَّ جلالتها على حقّ. فلو كان لدينا أيُّ ضمان لإنقاذها بمعركة، لكان واجبُنا واضحاً جدّاً. إنَّما يبدو لي أنْ لا ضمانَ لدينا أبداً. ثمَّ إنَّ الخدمة التي يطلبونها منها ليست بأيّة حال مُناقِضةً لشرَف جلالتها، بل هي عمل نبيل وبطوليّ. فإذا حدَّث الملكةَ قلبُها بأن تُغامِر بمقابلة السحر، فلن أمانِع أنا!».

وبما أنَّ أيّاً منهم كان يعرف أنَّ ريبيتشيب لا يخاف

من شيء، فقد استطاع أن يقول ذلك بغير أن يشعر البتَّة بأيّ حَرَج. ولكنَّ الفِتيان، الذين غالِباً ما كانوا يخافون، احمرَّت وجوههم جدّاً. غير أنَّ المنطق السليم بدا واضحاً جليّاً بحيث اضطُرُّوا إلى الموافقة. وعندما أُعلِن قرارُهم الإيجابيّ، انطلقت هُتافاتٌ عالية من القوم غير المرئيِّين، وعمد الصوت الرئيسيّ (بدعم حارٍّ من الأصوات الأُخرى كلِّها) إلى دعوة النارْنيانيِّين لتناول العشاء وقضاء الليلة هناك. ولم يرغب يُسطاس في تلبية الدعوة، إلَّا أنَّ لوسي قالت له: «أنا على ثقة بأنَّهم ليسوا غدّارين. إنَّهم ليسوا كذلك أبداً»، ووافقها الآخرون.

وهكذا رجع الجميع إلى ذلك البيت يصحبهم ضجيجٌ هائل من خبْط الأقدام المُطرِق (وقد ازداد حدَّةً لمَّا وصلوا إلى ساحة الدار المرصوفة بالحجارة والمُصدِرة للصدى).

الفصل العاشر

كتاب الساحر

عملَ القوم غيرُ المرئيّين لضيوفهم وليمةً ملوكيّة. وكان مُضحِكاً أن تَرى الأطباق والصِّحاف تأتي إلى المائدة ولا ترى أحداً يحملها. ولوِ انتقلَت الصُّحون بموازاة الأرض لكان الأمر مُضحِكاً. فذلك ما تتوقَّعه من أيدٍ غير منظورة. غير أنّها لم تتنقل هكذا: إذ تقدَّمَت على طول غرفة السُّفرة الطويلة في سلسلة من الوَثبات أو القَفزات. وعند أعلى نقطة من كلّ قفزة، كان الصحن يعلو في الهواء نحو خمسة أمتار، ثُمّ يهبط ليستقرّ فجأةً على علوّ مترٍ تقريباً عن الأرض. وعندما كان في الصحن شيءٌ كالحِساء أوِ المَرَق، كانت النتيجة شِبه كارثيّة.

وهمس يُسطاس في أذن إدمون: «بدأتُ أشعر بكثير من حُبّ الاستطلاع تجاه هؤلاء القوم. أتظنّ أنّهم آدميّون بأيّة حال؟ إنّهم أشبه بجنادب ضخمة أو ضفادع عملاقة، كما أرى».

فقال إدمون: «يبدو الأمر كذلك فعلاً. ولكنْ لا تضع فكرة الجنادب في رأس لوسي. فهي طالما كانت غير

متحمِّسة للحشرات، خصوصاً الكبيرة منها».

وكان يمكن أن تكون الوجبة أهنأ لو لم تكن بالغة الفوضى، ولو لم تكن الأحاديث أيضاً مؤلَّفة كلُّها من الموافقات. فإنّ القوم غير المَرئيّين أبدَوا موافقتهم على كلّ شيء. وبالحقيقة أنّ مُعظَم تعليقاتهم كانت من النوع الذي لَن يكون من السهل عدم الموافقة عليه: «ما أقوله دائماً هو أنّه عندما يكون الواحد جائعاً فهو يحبُّ شيئاً من المؤونة»، أو «بدأ الظلام يشتدُّ الآن، كما يحصل في الليل دائماً»، أو حتّى «آهَه، لقد أتيتُم على الماء، وهو سائلٌ كثير الرطوبة وقويّ، أليس كذلك؟» ولم تتمالك لوسي نفسَها عن النظر إلى ذلك المدخل المُتثائب المؤدّي إلى الدَّرَج — إذ كان يمكنها أن تراه من مكان جلوسها — وعن التساؤل عمّا قد تجده عند صعودها ذلك الدرج في صباح الغد. ولكنّ وجبة الطعام كانت جيّدة في ما عدا ذلك، بما فيها من حساءِ فُطر ودجاجٍ ساخن ولحمٍ مُقدَّد مطبوخ وكِشمِش وزَبيب ولبن وقِشدة وحليب وشرابٍ معسول. وقد أحبَّ الآخرون ذلك الشرابَ المعسول، إلّا أنّ يُسطاس ندم في ما بعد لأنّه شرب قليلاً منه.

وعندما استيقظَت لوسي صباحَ الغد، كان ذلك أشبه بالاستيقاظ في يومِ امتحانٍ مدرسيّ، أو في يوم ستذهب فيه إلى عيادة طبيب الأسنان. وقد كان صباحاً جميلاً، بدخول النحلات وخروجها من نافذة غرفتها المفتوحة وهي تطنّ داخِلةً نافذتَها وخارِجةً مِنها، وبظهور المرجة في

الخارج شبيهةً جداً بمكانٍ ما في إنكِلترة. وهكذا نهضَت ولبست ثيابها، وحاولت أن تتكلّم وتأكل بصورة طبيعيّة عند الفَطور. ثُمّ بعدما تلقّت التعليمات من الصوت الرئيسيّ بشأنِ ما يجب أن تفعله في الطابق الأعلى، ودّعتِ الآخرين، ولم تقُل كلمةً واحدة، ومشت إلى أسفل الدرج، وأخذت تصعد الدَرَجات بغير أن تنظر مرّةً واحدة إلى الوراء.

كان الضوء منتشراً بصورة كافية، وهذا أمرٌ جيّد. فقد كان في الواقع شُبّاكٌ قُدّامَها مباشرةً عند أعلى أوّل مجموعة من الدَرَج. وما دامت على تلك المجموعة، استطاعت أن تسمع تكتكة ساعة حائط كبيرة في القاعة السُفلى: تِك تُك، تِك تُك! ثمّ وصلت إلى مُنبسَط الدرج، وكان عليها أن تنعطف إلى يسارها لتصعد مجموعة الدَرَج الثانية؛ وبعد ذلك لم تعُد تقدر أن تسمع تكتكة الساعة.

ها هي قد وصلت أعلى الدَرَج. ثمّ تطلّعت فرأت ممرّاً عريضاً طويلاً في آخره نافذة كبيرة. والظاهر أنّ ذلك الممرّ امتدّ على طول البيت بكامله. وكان مُزيّناً بالنقوش والرسوم واللوحات، ومفروشاً بالسجّاد، وأبوابٌ كثيرة جدّاً تنفتح منه إلى كِلا جانبيه. فوقفت لوسي بلا حراك، ولم تتمكّن من سماع صأصأة فأر، ولا طنين ذبابة، ولا اهتزاز ستارة، ولا أيّ شيء آخر... ما عدا خفقان قلبها هي.

ثمّ قالت لنفسها: «آخِر باب إلى اليسار». وبدا صعباً بعض الشيء أن يكون ذلك آخِر باب. فحتّى تصل

إليه، كان عليها أن تتجاوز غرفةً بعد أُخرى. وفي أيّة غرفة يمكن أن يكون الساحر: نائماً، أو مستيقظاً، أو غيرَ مرئيّ، أو حتّى ميتاً. ولكنْ لا نفع في التفكير بذلك. وهكذا أكملت مسيرتها. وقد كانت السجّادة ثخينةً جداً بحيث لم تُصدِر قدماها أيّ صوت.

وقالت لوسي لنفسها: «لا شيءَ أبداً أخاف منه حتّى الآن». ومن المؤكّد أنّ الممرّ كان هادئاً وقد أناره ضوء الشمس، بل ربّما كان أكثر هدوءاً بقليل من اللازم. وكان من شأنه أن يكون أجمل لو لم تكُن رموزٌ غريبة مرسومة باللون القرمزيّ على الأبواب: أشكال معقّدة متعرّجة من الواضح أنّ لها معنًى ما، وربّما لا يكون معنًى حسناً جداً أيضاً. ولو لم تكن تلك الأقنعة مُعلّقةً على الحيطان، لكان الوضع أفضل. ليس أنّها كانت بشعة تماماً — أو بشعة جداً — بل إنّ محَاجِر العيون الفارغة بدت غريبةً فعلاً؛ ولو سمحتَ لنفسك لبدأتَ سريعاً تتصوّر أنّ تلك الأقنعة تعمل بعض الحركات حالما تُدير ظهرَك لها.

وبعد الباب السادس تقريباً، نالت لوسي جرعة رعبها الأولى. فقد شعرَتْ لحظةً ثانيةً واحدة شعوراً شبهَ يقينيّ بأنّ وجهاً قبيحاً صغيراً ذا لحية برز من الحائط وكشّر في وجهها. وأرغمت نفسها على التوقُّف والنظر إليه. فإذا به ليس وجهاً على الإطلاق، بل هو مرآةٌ صغيرة بحجم وجهها هي وشكله تماماً، فوقها شعرٌ وتحتها لحية مُتدلّية، بحيث إنّك عندما تنظر في المرآة يقع وجهُك بين الشعر

واللحية تماماً فيبدوان كأنَّهما لك. وهكذا قالت لوسي لنفسها: «إنَّما رأيتُ صورة وجهي في المرآة بطَرَف عيني وأنا مارَّة. ذلك كلُّ ما في الأمر. وليس فيه أيُّ ضَرَر أبداً». ولكن لم يُعجِبها منظر وجهها مع الشعر واللحية، فتابعت سيرها. (لا أعرف فائدة المرآة المُلتحية لأنَّني لستُ ساحراً.)

وقبل وصولها إلى آخر باب عن اليسار، بدأت تتساءل عن احتمال كون الممرّ قد صار أطول منذ بدأت مسيرتها، وعن كون ذلك جزءاً من السحر المرتبط بذلك البيت. غير أنَّها وصلت إلى ذلك الباب أخيراً، وقد كان مفتوحاً.

كانت الغرفة واسعة ولها ثلاثُ نوافذ كبيرة، وكانت حيطانها مرصوفة بالكُتب من الأرضيَّة إلى السقف: كُتُب أكثر ممَّا سبق أن رأته لوسي، كُتب صغيرة نحيفة، كُتب سميكة سمينة، كُتب أكبر من أيِّ كتابٍ مقدَّس رأيتَه في كنيسة، مُجلَّدة كلُّها بالجِلد وتفوح منها رائحة العِتَق والعِلم والسِّحر. ولكنَّ لوسي عرفت من التعليمات المُعطاة لها أنَّ عليها ألَّا تهتمَّ بأيِّ واحدٍ من تلك الكتب، لأنَّ الكتاب — كتاب السحر — كان موضوعاً على منضدة قراءة في وسط الغرفة تماماً. وتبيَّن لها أنَّ عليها أن تقرأه وهي واقفة (على كلِّ حال، لم يكن في الغرفة أيُّ كرسيّ)، وأنَّه ينبغي لها أن تقف وظهرُها نحو الباب في أثناء القراءة. لذلك دارت في الحال لتغلق الباب.

ولكنَّ الباب لم ينغلق.

ربَّما يُخالِف بعضُهم لوسي في الرأي بشأن ذلك، ولكنّي أعتقد أنّها كانت على حقٍّ تماماً. فقد قالت إنّها ما كانت لِتُعنى بإغلاق الباب أصلاً، ولكن من غير المُبهِج أن تُضطَرَّ إلى الوقوف في مثل ذلك المكان ووراءَ ظهرك تماماً بابٌ مفتوح. وكان من شأني أنا أن أشعر مثل شعورها تماماً. إنَّما لم يكُن ممكناً فعل أيِّ شيء آخر.

ومن الأمور التي أقلقتها كثيراً حجمُ الكتاب الكبير. فالصوتُ الرئيسيُّ لم يتمكّن من إعطائها أيّة فكرة عن الموضع الذي فيه يذكر الكتاب الصيغة السحريّة لجعل الأشياء مرئيّة. حتّى إنّه بدا مُتعجّباً من سؤالها له عن ذلك. فقد توقّع منها أن تبدأ من أوّل الكتاب وتُواصِل القراءة إلى أن تصل إلى ذلك الموضع. وكان واضحاً أنّه لم يُفكّر قطُّ بوجود أيّة طريقة أخرى للعثور على موضع ما في كتاب من الكتب. وإذ نظرت إلى المُجلّد الضخم، قالت: «ولكنَّ الأمر قد يستغرق أيّاماً وأسابيع! وها أنا الآن أشعر أنّني في هذا المكان منذ ساعات».

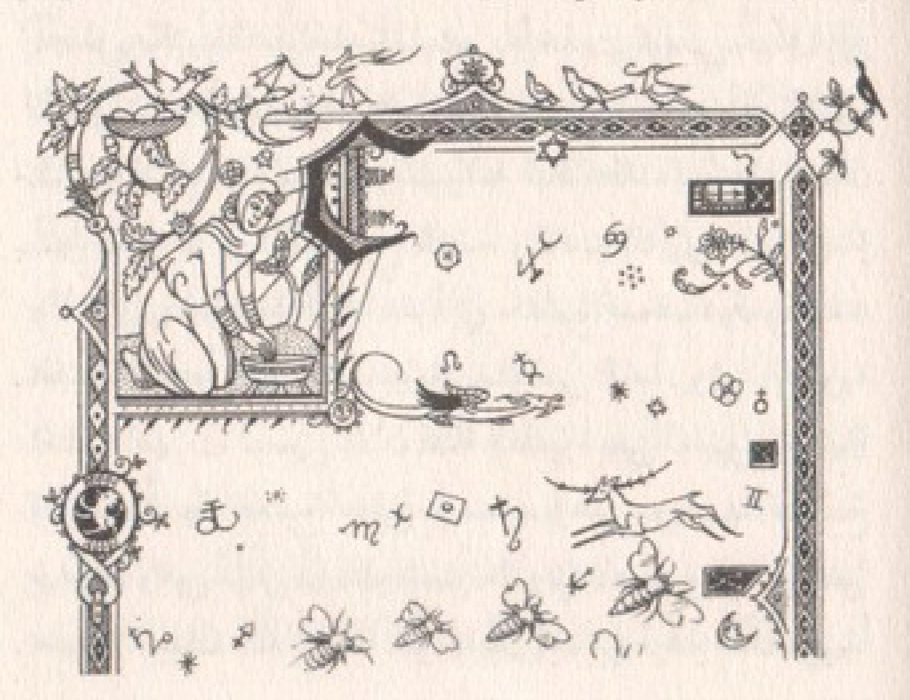
ثمّ تقدّمت إلى المنضدة ومدّت يدها إلى الكتاب، وما إن لمسته حتّى أحسّت بوخز خفيف في أصابعها، كما لو كان الكتاب مُكهرَباً. وحاولت أن تفتحه، لكنّها لم تقدر في البداية. إلّا أنّ سبب ذلك كان مجرّد كون الكتاب مُثبّتاً بمشبَكين ثقيلَين. وما إن فكّتهما، حتّى انفتح الكتاب بسهولة كافية. وما كان أعجبَه من كتاب!

فقد كان ذلك الكتاب مخطوطاً، لا مطبوعاً؛ مكتوباً بخطٍّ أنيقٍ واضح، مَدّاته العُليا رفيعة ومَدّاته السُفلى ثخينة، وحروفُه كبيرة جدّاً وأسهل على القراءة من الطَّبْع؛ وكان خطُّه جميلاً جدّاً حتّى حدّقت إليه لوسي مذهولةً دقيقةً بكاملها ونسِيَت أمر قراءته. كما كان ورقه رقيقاً وناعماً تنبعث منه رائحةٌ طيّبة، وقد زُيّن بالرسوم والصور

في حواشيه وحول الأحرف الكبيرة المُلوّنة في بداية كلّ صيغة سحريّة.

ولم يكن في الكتاب صفحةُ عُنوان، ولا عناوين، بل بدأتِ الصِّيَغ السحريّة مباشرة؛ وفي البداية لم يظهر فيها ما هو مُهِمٌّ جدّاً. فقد كانت هنالك وصفاتٌ لشفاء الثآليل (بغَسل يديك بضوء القمر في طَستٍ فضّيّ) ووجع الأسنان والمغص، ورُقيةٌ للإمساك بمجموعةِ نحلٍ جديدة. وقد كانت صورة الرجل المُبتلى بوجع الأسنان نابضةً بالحياة إلى حدٍّ أنّها يُمكِن أن تجعل أسنانك بالذات تؤلمك إذا تأمّلتَ فيها طويلاً. كما كانت النحلات الذهبيّة المنتشرة حوالَي الرُّقية الرابعة تبدو أوّلَ وهلة كأنّها طائرةٌ فعلاً.

صعُب على لوسي كثيراً أن تطوي الصفحة الأولى، ولكنّها لمّا قلبَتِ الورقة وجدت الصفحة التالية مُشوّقة



كذلك أيضاً. إلَّا أنَّها قالت لنفسها: «إنمّا ينبغي أن أتقدَّم». ثمَّ قلَّبَت نحو ثلاثين صفحة كان من شأنها — لوِ استطاعت أن تتذكَّرها — أن تُعلِّمها كيف تعثر على الكنوز المطمورة، وكيف تتذكَّر الأُمور المنسيَّة، وكيف تنسى ما تتمنَّى نسيانه، وكيف تعرف أنَّ أحدهم يقول الحقّ، وكيف تجلب (أو تحجب) الريح أو الضباب أو الثلج أو الصقيع أوِ المطر، وكيف تُنوِّم شخصاً نوماً سحريّاً، وكيف تجعل لأحدهم رأسَ حمار (كما جعل السَحَرة لِسَفُّول المسكين) وكلَّما قرأتْ أكثر، صارتِ الصُّوَر أروع وأكثر واقعيَّةً.

ثمَّ وصلَت إلى صفحةٍ كانت شُعلةً من الصُّوَر بحيث لا يكاد القارئ يُلاحِظ الكتابة. لا يكاد... إلَّا أنَّها لاحظت الكلماتِ الأُولى. وقد كانت: رُقية ناجعة لجعل الناطقة بها أجمل بكثير ممّا هو مُقدَّرٌ للبشر. فأخذت لوسي تُحدِّق إلى الصُّوَر ووجهُها قريبٌ جدّاً من الصفحة. ومع أنَّ الصُّوَر كانت قد بَدَت مُكتظَّة ومُشوَّشة قبلاً، فقد تبيَّن لها الآن أنَّها تقدر أن تراها بوضوحٍ كافٍ. وكانتِ الأُولى صورة فتاةٍ واقفة إلى منضدةِ قراءة تقرأ في كتابٍ ضخم. وقد كانت الفتاة لابسةً ثياباً تُشبه ثياب لوسي تماماً. وفي الصورة التالية ظهرت لوسي (لأنَّ فتاة الصورة هي لوسي نفسُها) واقفةً وفمُها مفتوحٌ على وسعه، وعلى وجهها ملامحُ مروِّعة، وهي تُرتِّل أو تتلو شيئاً ما. وفي الصورة الثالثة حلَّ عليها الجمال الفائق لِما هو مقدَّرٌ للبَشَر. وقد كان غريباً

— بالنظر إلى الحجم الصغير الذي بَدَت عليه الصُّوَر أوّلاً — أنَّ لوسي الصورة بدت الآن كبيرةً مثل لوسي الحقيقيَّة. ونظرتا إحداهما إلى عينَي الأُخرى، ثمَّ حوَّلت لوسي الحقيقيَّة وجهها بعد بضع دقائق لأنَّ جمال لوسي الأُخرى بهرها، مع أنَّها ما زالت تقدر أن ترى في ذلك الوجه الجميل شيئاً من الشبه بها. وما لبثت الصُّوَر أن بدأت تزدحم عليها بكثافة وسرعة. فرأت نفسها جالسةً على عرش عالٍ في مُباراة مُسايفة في كالورمِن وملوك العالم كلُّهم يتقاتلون من أجل جمالها. وبعدئذٍ تحوَّل الأمر من مجرَّد مبارزات إلى حروب حقيقيَّة، فإذا بنارنيا وبلاد آرخيا وتِلمار وكالورمِن وغالمّا وتيربنثيا جميعاً قد عمَّها الخراب من جرّاء ضراوة الملوك والدُّوقات والسادة العِظام الذين تقاتلوا للفوز برضاها. ثمَّ تغيَّرت الصورة، فإذا بلوسي، وهي ما تزال جميلةً جمالاً فائقاً لما هو مُقدَّر للبشر، قد رجعت إلى إنكلترة، كما أنَّ سوزان (التي طالما كانت حسناء العائلة) عادت من أميركا. وقد ظهرت سوزان الصورة تماماً مثل سوزان الحقيقيَّة، إنمّا أقبح، وذات ملامح بغيضة. وكانت سوزان مغتاظةً لغيرتها من جمال لوسي الباهر، ولكنَّ ذلك لم يهمّ قطّ لأنَّ أحداً لم يعُد يُبالي بسوزان أدنى مُبالاةٍ الآن.

وقالت لوسي: «سوف أنطق بالصيغة السحريَّة. لا يهمُّني شيء. سوف أنطق بها». وقد قالت لا يهمُّني شيء لأنَّه خالجها شعوٌر قويٌ بأنَّ عليها ألَّا تفعل ذلك.

ولكنْ لمّا نظرَت من جديد إلى الكلمات الأولى في الصيغة السحريّة، وجدت هُناك في وسط الكتابة – حيث كانت متأكّدة من عدم وجود أيّة صورة قبلاً – وجهَ أسدٍ عظيماً، بل وجه الأسد، أصلانَ نفسِه، محدّقاً إلى وجهها. وقد كان ملوّناً بلون ذهبيّ متألّق حتّى بدا آتياً نحوها من قلب الصفحة. وبالحقيقة أنّها لم تستطيع أن تجزم قطُّ في ما بعد أنّه لم يتحرّك قليلاً بالفعل. ومهما يكُن، فقد عرفت من سيماء وجهه تماماً أنّه كان يزأر، وكان يمكنك أن ترى مُعظم أسنانه. فخافت خوفاً شديداً وقلبتِ الصفحة حالاً.

وبعد بضع صفحات وصلت إلى رُقيةٍ تجعلك تعرف أفكار أصدقائك بشأنك. ولمّا كانت قد رغبت أشدَّ الرغبة في تجريب الرُقية الأخرى، تلك التي تجعلك أجمل بكثير ممّا هو مُقدَّر للبَشر، فقد شعرت برغبةٍ فعليّة في أن تنطق بهذه الرُقية تعويضاً عن عدم نُطقها بتلك. وخوفاً من أن يتغيّرَ فكرها، بادرت بسرعةٍ إلى النطق بكلمات الرُقية (لَن يضطرَّني شيء إلى ذِكر تلك الكلمات بحرفيّتها). ثمّ انتظرت حدوث شيء ما.

ولمّا لم يحدث أيُّ شيء، بدأت تتأمّل الصُوَر. وفجأةً رأت آخِر شيء توقّعته: صورة عربة قطار من الدرجة الثالثة، تقعد فيها تلميذتا مدرسة عرفتهما في الحال. فقد كانتا مَرجوري پرِستن وآنَ فَذَرسْتون. غير أنّها عندئذٍ لم تكُن مجرّد صورة. فقد كان مشهداً حيّاً. إذِ استطاعت أن

ترى أعمدة التلغراف تتوارى خارج النوافذ. ثمّ استطاعت أن تسمع ما كانتا تقولانه (كما يحدث عند زوال التشويش عن البثّ الإذاعيّ).

قالت آنّ: «هل يكون لنا كثير من اللقاءات هذا الفصل الدراسيّ؟ أم هل تنوين أن تظلّي مُولعةً ومأخوذة بلوسي پيڤنسي؟»

فقالت مَرجوري: «لا أفهم ماذا تقصدين بقولك 'مولعة ومأخوذة'؟»

أجابت آن: «بلى، أنتِ تفهمين. فقد كنتِ مشغوفةً بها في الفصل الأخير».

فقالت مرجوري: «لا، لم أكُن. فعندي ذوقٌ كثير يمنعني من ذلك. ليست فتاةً صغيرة سيّئة في واقع حالها. ولكنّني كنتُ قد بدأت أضجر منها تماماً قبل نهاية الفصل الدراسيّ».

وصاحت لوسي: «حسناً، تأكّدي تماماً أنّكِ لن تحصلي على أيّة فرصة أُخرى في أيّ فصل آخر، أيّتُها الشرّيرة الصغيرة ذات الوجهين!» إلّا أنّ صدى صوتها بالذات ذكّرها في الحال بأنّها كانت تُكلّم صورة، وأنّ مرجوري الحقيقيّة بعيدةٌ جداً في عالمٍ آخر.

ثمّ قالت لوسي لنفسها: «حسناً، لقد كنتُ أحسبها أفضل من ذلك. وكم أدّيتُ لها من خدمات في الفصل الأخير، وقد لازمتُها حين نبذَتها فتياتٌ كثيراتٌ أُخريات. وهي تعرف ذلك أيضاً. ثُمّ إنّها تقول ذلك لأنّ فَذَرسْتون

من بين الناس أجمعين! تُرى، أصديقاتي كلُّهنّ هكذا؟ هناك الكثير من الصُّوَر الأخرى. لا، لن أنظر إلى أيّة صورة أُخرى، لن أنظر، لن أفعل!»... ثمّ قلبَتِ الصفحة بجهدٍ جهيد، إنّما ليس قبل أن ترشّ عليها دمعةً كبيرة غاضبة.

وفي الصفحة التالية وصلت إلى رُقية «لإنعاش الروح». وقد كانت الصُّوَر هنا أقلّ، لكنْ جميلة جداً. ووجدت لوسي نفسها تقرأ قصّةً أكثر منها رُقية، في ثلاثِ صفحات. ولمّا وصلَت إلى ما قبل أسفل الصفحة، كانت قد نسِيَت كُلَّ النسيان أنّها تقرأ. إذ عايَشتِ القصّة كأنّها واقع حقيقيّ، كما كانت جميع الصور واقعاً حقيقياً. فعندما بلغتِ الصفحة التالية ووصلت إلى نهاية القصّة، قالت: «هذه أجمل قصّة قرأتُها في حياتي كلّها أو سأقرأها على الإطلاق. كم أتمنّى لو أمكنني أن أُواصِل قراءتها على مدى عشر سنين! على الأقلّ، سأقرأها مرّةً أخرى من جديد».

ولكنّ جزءاً من سحر ذلك الكتاب فعل فِعلَه آنذاك: فليس بمقدورك أن تقلب الصفحات إلى الوراء. أمّا الصفحات التي إلى يسارك، أي الصفحات التي لم تقرأها بعد، فيمكنك أن تطويَها. وأمّا التي إلى يمينك، فلا.

فقالت لوسي: «آه، واأسفاه! كم رغبتُ في قراءتها ثانيةً! حسناً، على الأقلّ يجب أن أتذكّرها. فلنرَ إذاً... لقد كانت عن... عن... يا ويلاه! إنّها كلّها تتلاشى من ذهني. حتّى هذه الصفحة الأخيرة تخلو من الكتابة. هذا

كتابٌ غريب عجيب. كيف يُعقَل أن أنسى؟ لقد كانت القصة عن كأس وسيف وشجرة وتلّة خضراء، هذا كلّ ما أعرفه. ولكنْ لا يمكنني أن أتذكّر، فماذا عساي أن أفعل؟»

ولم تقدر أن تتذكّر بتاتاً. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، صار ما تعنيه لوسي بالقصّة الجيّدة هو القصّة التي تُذكّرها بالقصّة المنسيّة في كتاب الساحر.

ثمّ قلَّبتِ الصفحات حتّى وجدت، لدهشتها، صفحة خاليةً من أيّ صورة، ولكنّ أوّل كلمات فيها كانت: «رُقية لجعل الأشياء المخفيّة مرئيّة». فقرأت تلك الصيغة السحريّة كلّها لتتأكّد من تهجئة جميع الكلمات الصعبة، ثُمّ تلَتها بصوتٍ عالٍ. وعلمت في الحال أنّها تفعل فِعلَها. فإنّه بينما كانت تتكلّم دبّتِ الألوان في الأحرف الكبيرة على رأس الصفحة وبدأتِ الصُّوَر تظهر على الحواشي. وكان ذلك مثل ما يحدث عندما تُقرّب إلى النار ورقةٌ مكتوباً عليها بحبرٍ غير مرئيّ فتبدأ الكتابة بالظهور تدريجياً؛ ما عدا أنّه بدل اللون الداكن الذي يصطبغ به عصير الليمون الحامض (وهو أسهلُ نوعٍ من الحبر السرّيّ) كان الخطُّ هُنا بألوانٍ زاهية: ذهبيّة وزرقاء وقرمزيّة. وكانت صُوَراً غريبة فيها أشكال عديدة لم يَرُق لوسي كثيراً أن تنظر إليها. لكنّها بعد ذلك فكّرت: «أظنُّ أنّني قد جعلتُ كلّ شيء منظوراً، لا المُطَرطِقين وحدهم. وقد يكون في أرجاء مكانٍ كهذا كثيرٌ من الأشياء غير

المرئيَّة. فلستُ واثقةً بأنَّني أُريد أن أراها كلَّها».

في تلك اللحظة سمعَت وقْع أقدام هادئاً ثقيلاً مُقبِلاً على طُول الممرّ وراءها. وتذكَّرت بالطبع ما قيل لها من أنَّ الساحر اعتاد أن يمشي حافياً فلا يُصدِر صوتاً يتعدَّى ما يُصدِرهُ هرٌّ كبير. وأفضلُ دائماً أن تستدير من أن تنتظر وصول أيِّ شيء يدبُّ وراء ظهرك. وذلك هو ما فعلته لوسي.

وعندئذٍ أشرق وجهُها فعلاً (وهي لا تدري ذلك طبعاً) حتَّى بَدَت هُنيهةً جميلةً مثل لوسي الصورةِ تماماً، وركضت إلى الأمام مُطلِقةً هُتافَ ابتهاجٍ بسيطاً، وفاتحةً ذراعيها. فإنَّ الذي وقف بالباب إنَّما كانَ أصلان نفسه، الأسد، أعلى جميع الملوك الأعلَين. وقد كان محسوساً وملموساً وحقيقيّاً ودافئاً، وسمح لها بأن تقبِّلَهُ وتغمر نفسها بلُبدته المتألِّقة. ومن الصوت المنخفض الشبيه بالزلزال والمنبعِث من داخله، استجرأت لوسي حتَّى أن تُفكِّر بأنَّه كان يُخرخِر.

وقالت: «آه، أصلان! لقد تلطَّفتَ حقّاً بأن تأتي».

فقال: «لطالما كنتُ هُنا دائماً، ولكنَّكِ إنَّما جعلتِني مرئيّاً الآن».

وقالت لوسي في ما يُشبِه العِتابَ قليلاً: «أصلان! لا تهزأ بي، وكأنَّ شيئاً أفعله أنا يمكن أن يجعلك أنت مَرئيّاً!»

فردَّ أصلان: «ذلك هو ما حصل فعلاً. فهل تحسبين

أنَّني لا أُطيع قوانيني الخاصَّة؟»

وبعد وقفةٍ قصيرة تكلَّم من جديد قائلاً:

«يا بُنيَّتي، أظنُّ أنَّكِ كنتِ تختلِسين السَّمْع».

«أختلِسُ السَّمع؟»

«لقد تنصَّتِّ إلى ما كانت رفيقتاكِ في المدرسة تقولانه عنكِ».

«أُوه، ذلك؟ لم أحسَب قطُّ، يا أصلان، أن يكون ذلك تنصُّتاً. أمَا كان سحراً؟»

«إنَّ التجسُّس على الآخرين بالسحر هو كالتجسُّس عليهم بأيَّة طريقة أُخرى. ولقد أساتِ الحُكم على صديقتك. فهي ضعيفة، ولكنَّها تحبُّكِ. وقد خافت من البنت الكُبرى فقالت ما لم تقصده».

«لا أظنُّ أنَّني سأتمكَّن أبداً من نسيان ما سمعتُها تقولُه».

«نعم، لن تتمكَّني!»

فقالت لوسي: «ويلاه! هل أفسدتُ كلَّ شيء؟ أتعني أنَّه كان ممكناً أن نبقى صديقتين لولا حدوثُ ذلك، وأن نبقى صديقتين صدوقتين حقاً، ربَّما طوال عمرنا، وأنَّنا الآن لن نكون كذلك أبداً؟»

وقال أصلان: «بُنيَّتي، ألم أُوضِح لكِ مرَّةً من قبل أنَّه لا يُقال لأيِّ واحدٍ أبداً ما كان ممكناً أن يحدث؟»

فقالت لوسي: «بلى، يا أصلان، لقد فعلتَ ذلك. أنا آسفة. ولكنْ رجاءً..».

«تابعي كلامَكِ، يا قلبي!»

«ألَن أتمكَّن أبداً من قراءة تلك القصَّة مرَّةً أُخرى، تلك التي لم أقدر أن أتذكَّرها؟ وهل تحكيها لي، يا أصلان؟ هلاّ تحكيها، هلاّ تحكيها!»

«نعم، بالحقيقة، سأحكيها لك طوال سنين وسنين. ولكنِ الآن، هيّا! يجب أن نُقابل رَبَّ هذا البيت».

www.rewity.com
روايتي Dalyia

الفصل الحادي عشر

إسعادُ الدّفادِمِ

تبعت لوسي الأسد العظيم إلى الممرّ خارج الغرفة، وفي الحال رأت مُقبِلاً نحوهما رجُلاً مُسِنّاً حافيَ القدمين لابساً ثوباً أحمر. وكان على شعره الأبيض إكليلٌ من ورق السنديان، ولحيته تتدلَّى حتَّى حزامِ وسطه، وهو يتوكّأ على عُكّاز منحوتٍ نحتاً غريباً. وحالما رأى أصلان، انحنى انحناءةً خفيضة وقال:

«أهلاً بك، يا سيّد، في أصغر بيوتك!»

«هل تعبتَ، يا كُرياكِن، من حُكم هؤلاء الرعايا الأغبياء الذين وضعتُهم في عهدتِكَ هنا؟»

فأجاب الساحر: «لا! إنَّهم مُغفَّلون جدّاً، ولكنْ ليس فيهم أيُّ أذًى فعليّ. لقد بدأتُ بالحريّ أتعلّق بهؤلاء المخلوقات. وربّما يقلّ صبري أحياناً وأنا أنتظر اليوم الذي فيه يمكن أن أحكمهم بالحِكمة بدلاً من هذا السحر القاسي».

فقال أصلان: «كلُّ شيء في وقته، يا كُرياكِن».

وجاء الجواب: «نعم، كلُّ شيء في وقته تماماً، يا سيّد!

هل تنوي أن تُظهِر لهم ذاتك؟»

فأجاب أصلان، بشِبه خرخرة بسيطة تعني ما يعنيه الضحك (كما ظنّت لوسي): «كلّا! من شأن ذلك أن يُخيفهم حتّى يفقدوا صوابهم. فإنّ نجوماً كثيرة سوف تشيخ وتأوي إلى الجُزر لتستريح قبل أن يصير قومُك ناضجين لتقبُّل ذلك. واليوم قبل الغروب يجب أن أزور طرَمبكِن القزم حيث يجلس في قصر كَيرپَراڤيل يَعدُّ الأيّام حتّى رجوع سيّده كاسپيان إلى الديار. وسأحكي له قصّتكِ كلّها، يا لوسي. لا تحزني كثيراً! فسوف نلتقي قريباً من جديد».

وقالت لوسي: «رجاءً، يا أصلان، ماذا تدعوه 'قريباً'؟»

فقال أصلان: «أدعو كلّ وقت 'قريباً'»، وفي الحال اختفى، وبقيت لوسي وحدها مع الساحر.

وقال الساحر: «ها قد ذهب! وأنتِ وأنا خائبا الأمل تماماً. هذه هي الحال دائماً: لا يمكنكِ أن تُبقيه عندك، فهو ليس أسداً أليفاً. ثُمَّ هل أعجبَكِ كتابي؟»

«لقد أعجبتني بعضُ أقسامه كثيراً بالفعل. أكنتَ عارفاً أنّني هُنا طوال الوقت؟»

«حسناً، لقد عرفتُ بالطبع لمّا جعلتُ الدّفّافين يصيرون غير مرئيّين أنّك ستأتين إلى هُنا لنـزع السحر عنهم. إنّما لم أكن متأكّداً من اليوم المحدَّد. ولم أكُن متنبّهاً على الخصوص هذا الصباح. أنتِ ترَين أنّهم قد جعلوني أنا

أيضاً غير مَرئيّ، وكوني غير مَرئيٍّ يجعلني كثير النُعاس. أُفّ! ها أنا أتثاءب من جديد! أأنتِ جائعة؟»

فقالت لوسي: «حسناً، لعلّي جائعةٌ قليلاً. لا فكرة لديَّ عن الوقتِ الآن».

وقال الساحر: «تعالَي، كلُّ وقتٍ قد يكون 'قريباً' بالنسبة إلى أصلان. ولكنْ في بيتي يكون كلُّ وقتِ جُوع هو الساعةَ الواحدة».

ثمّ تقدَّمها قليلاً عبر الممرّ، وفتح باباً. وإذ دخلت لوسي، وجدت نفسها في غرفة بهيجة ملأى بنور الشمس والأزهار. وكانت الطاولة فارغة عند دخولهما، إلّا أنّها كانت بالطبع طاولة سحرية، وبكلمةٍ من العجوز ظهر شرشف الطاولة والفضّيّات والصِّحاف والكؤوس والطعام.

وقال الرجُل: «أرجو أن يكون هذا ممّا يروقُكِ. فقد حاولتُ أن أقدّم لكِ طعاماً أشبهَ بطعام بلدكِ الخاصّ ممّا يمكن أن تكوني قد تناولتِه مؤخّراً».

فقالت لوسي: «إنّه لذيذ!» وقد كان كذلك فعلاً، وقوامُه: عجّة بيض ساخنة جدّاً، لحم غنم بارد وبازِلاً خضراء، مثلوج الفريز، وعصير برتقال للشرب مع الطعام وفنجان شوكولا بعدَه. ولكنَّ الساحر نفسه لم يأكل غير الخبز ولم يشرب غير النبيذ. ولم يكُن فيه أيُّ شيء يُثير التخوُّف؛ وسرعان ما أخذ هو ولوسي يُدردِشان كصديقين قديمَين.

سألته لوسي: «متى تفعل الصيغة السحريّة فِعلَها؟ هل يصير الدّفّافون* مرئيّين من جديد في الحال؟»

«نعم، فهم مرئيّون الآن. ولكنّهم ما زالوا نائمين على الأرجح. فهم يستريحون قليلاً في نصف النهار دائماً».

«أمَا — وقد صاروا مرئيّين الآن — تنوي أن تُزيل عنهم بشاعتهم؟ هل تُعيدهم إلى ما كانوا عليه في السابق؟»

فأجاب الساحر: «حسناً، ذلك سؤالٌ دقيقٌ تقريباً. ألا تعلمين أنّهم هم فقط يحسبون أنّهم كانوا حِسان المنظر جدّاً من قبل؟ فهم يقولون إنّهم بُشّعوا، ولكنْ ليس هذا ما أقوله أنا. حتّى إنّ كثيرين قد يقولون إنّ التغيير كان إلى حالٍ أفضل».

«أهُم مخدوعونَ حقاً؟»

«إنّهم هكذا. أو على الأقلّ الدفّافُ الرئيس، وهو قد علّم الباقين أن يكونوا هكذا. فهم دائماً يصدّقون أيّة كلمة يقولها».

فقالت لوسي: «لقد لاحظْنا ذلك».

«نعم، كان يُمكِن أن تكون حالُنا أفضل بغَيره، بطريقة ما. طبعاً، كان يمكنني أن أُحوّله إلى شيءٍ آخر، أو حتّى أُلقي عليه سحراً يجعلهم لا يُصدّقون كلمة واحدة ممّا يقوله. ولكنّني لا أُحبُّ أن أفعل ذلك. فخيرٌ لهم أن يُعجَبوا به من ألاّ يُعجَبوا بأحد».

* الدفاف: من يضرب على الدف. ويقصد به الذي يردّد الكلام وراء آخر دون فهم. تعبير يشير إلى البلادة والغباء.

وسألت لوسي: «ألا يُعجَبون بك أنت؟»

فقال الساحر: «لا، ليس أنا. فما كانوا ليُعجَبوا بي».

«لأيِّ سببٍ بشّعتَهم... أعني ما يُسمُّونه هم تبشيعاً؟»

«حسناً، لم يقبلوا أن يقوموا بما طلبتُه منهم. فإنّ شُغلَهم هو الاعتناء بالبستان وجمع المؤونة، ليس لي كما يتصوَّرون، بل لهُم هم. وما كانوا ليعملوا ذلك بتاتاً إن لم أجعلْهم يعملونه. وبطبيعة الحال، يحتاج البُستان إلى ماء. وهناك نبعٌ عذب يبعد أقلَّ من كيلومتر على التلّة. ومن ذلك النبع يجري جدول يمرُّ بقرب البستان تماماً. وكلُّ ما طلبتُه منهم كان أن يستقوا المياه اللازمة من الجدول بدل تسلُّق التلّة صعوداً إلى النبع حاملين دلاءهم، مرّتين أو ثلاثاً كلَّ يوم، وإرهاق أنفسهم، فضلاً عن إهراق نصف الماء في طريق العودة. ولكنّهم لم يفهموا ذلك، وفي الأخير رفضوه رفضاً صريحاً».

فسألت لوسي: «أهُم مُغفَّلون إلى هذا الحدّ؟»

وتنهّد الساحر قائلاً: «لَن تُصدِّقي كم كان لي من مصاعب ومتاعب معهم. فمنذ بضعة أشهر انطلقوا جميعاً لغسل الصحون والسكاكين قبل الغداء، إذ قالوا إنّ ذلك يوفّر عليهم وقتاً بعد الغداء. وقد قبضتُ عليهم مرّةً يزرعون بطاطا مسلوقة ليوفّروا على أنفسهم عناء سلقها بعد اقتلاعها. وذاتَ يومٍ دخلتِ الهرّةُ إلى غرفة اللّبَن، فانشغل

عشرون منهم بنقل الحليب واللبن إلى الخارج، ولم يُفكّر أيُّ واحدٍ منهم بإخراج الهرّة. ولكنْ يبدو أنّكِ فرغتِ من الغداء. فلنذهب ونُلقِ نظرة على هؤلاء الدفّافين ما دام يمكن الآن أن نُبصِرَهم».

ودخلا إلى غرفة أُخرى كانت ملأى بأدواتٍ مصقولة يصعب استيعابُها: مثل الأسطُرلاب، ومِبيان النظام الشمسيّ، والكرونوسكوب، والمِشعار، ومِقياس النظم، والمِثلاه*. ولمّا وصلا إلى الشُبّاك هناك، قال الساحر: «هُناك. هُناك دفّافُوكِ!»

فقالت لوسي: «لستُ أرى أحداً. وما تلك الأشياء الشبيهة بالفُطر؟»

كانت الأشياء التي أشارت إليها منتشرةً على العشب المُستوي في كل مكان. وقد كانت تُشبِه الفُطر كثيراً، لكنّها

*الأسطُرلاب: آلة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية وبعدُها بعضها عن بعض، وكذلك لقياس أطوال النهار والليل والسنة وغيرها من القياسات الفلكية.

مبيان النظام الشمسي: نماذج المجموعة الشمسية تحدّد موقع الكواكب السيارة بعضها من بعض من جهة، وموقعها من الشمس من جهة أخرى.

الكرونوسكوب: آلة تقيس بدقّة أجزاء الوقت القصيرة جداً.

المشعار: آلة خيالية لقياس العروض في الشعر.

مقياس النظم: آلة خيالية لقياس العروض و النظم في الشعر.

المثلاه: آلة خيالية لدراسة ما يتعلق بالآلهه.



أكبر بكثير جدّاً: ساقُ كلٍّ منها تُناهِز المتر ارتفاعاً، والمظلّة بالطول نفسه تقريباً من طرَفٍ إلى طرف. ولمّا دقّقت لوسي النظر لاحظت أيضاً أن الساق تتصل بالمظلّة ليس من الوسط بل من جهة واحدة، ممّا أضفى عليها منظراً يفتقر إلى التوازُن. وكان عند أسفل كُلّ ساقٍ — ممَدّداً على العُشب — شيءٌ يُشبِه صُرّةً صغيرة. وبالحقيقة، كلّما أنعمت لوسي النظر إلى تلك الأشياء، بَدَت أقلَّ شبهاً بالفُطر. فإنّ جُزءَ المظلّة لم يكُن بالحقيقة مدوّراً كما حسبته في البداية. إذ كان طوله أكبر من عرضه، وكان مُتّسعاً عند أحد طرَفَيه. وكان هنالك كثير من تلك الأشياء، خمسون أو أكثر.

عندئذٍ دقّت الساعة ثلاثاً.

وفي الحال حدث شيء فائقٌ للعادة جدّاً. فكلُّ حبّة من حبّات ذلك «الفُطر» انقلبت فجأةً رأساً على عقب. وإذا بالصُرَر الصغيرة التي كانت ممدّدة عند الساق رؤوس وأجسام! أمّا الساق نفسها فكانت رِجلاً. إنّما لم يكن لكلّ جسمٍ رِجلان، بل كان لكلّ جسمٍ رِجلٌ واحدة ثخينة تحته تماماً (ليس إلى جهةٍ واحدة كرِجل مَن بُترت

إحدى ساقَيه)، وعند طرَف الرِجل قدمٌ واحدةٌ ضخمة: قَدَمٌ عريضةُ الأصابع مُقدَّمُها معقوفٌ قليلاً نحو الأعلى بحيث تبدو كقاربِ كَنُو صغير *. وفهمَت حالاً سبب ظهورهم بمظهر الفُطر. فقد كانوا مُستلقِين على ظهورهم وقد رفع كلٌّ منهم رِجلَه الوحيدة في الهواء وخيَّمت قَدَمُها الضخمةُ عليه. وقد عرفت في ما بعد أنَّ تلك كانت طريقتهم المألوفة في الاستراحة، لأنَّ القدم تحميهم من المطر والشمس. وإذا تمدَّد أُحاديُّ القدم تحت قدمه بالذات، يكون ذلك جيِّداً تقريباً مثل لجوء المرء إلى خيمة.

عندئذٍ انفجرت لوسي ضاحكةً وصاحت: «ياه! ما أعجبَهم وما أغربهم! أأنت جعلتَهم هكذا؟»

أجاب الساحر: «نعم، نعم! أنا جعلتُ الدفّافين أُحاديِّي القدم». وقد كان هو أيضاً يضحك حتّى سالت الدموع على خدَّيه. ثمَّ أضاف: «ولٰكن شاهِدي!»

وكان المنظر يستحقُّ المشاهدة. فطبعاً، لم يكُن هؤلاء الرجال الصغار ذوو القَدَم الواحدة يقدرون أن يركضوا أو يمشوا كما نفعل نحن، بل كانوا يتنقَّلون قفزاً، كالبراغيث أو الضفادع. وكم كانت قفزاتهم هائلة!... كأنَّ كلَّ قَدَم كبيرة كانت كتلةً من الزنبركات. بل كم كانت هبطاتُهم رائعة أيضاً! وذلك هو ما أصدر صوت الخَبْط الذي حيَّر لوسي جدّاً يوم أمس. فإنَّهم أخذوا الآن

* قارب الكَنُو: قارب صغير خفيف يُرفَع بالمجداف.



يقفزون في كلِّ اتّجاه وينادون بعضهم بعضاً: «هاي، يا فِتيان! لقَد عُدنا مرئيِّين!»

وقال واحد منهم يعتمر قُبَّعة حمراء ذات شُرّابة، بدا واضحاً أنَّه أُحاديُّ القَدَم الرئيس: «مرئيُّون نحن! وما أقوله هو أنَّه عندما يكون القَوم مرئيِّين، عندئذٍ يمكنهم طبعاً أن يروا بعضهم بعضاً».

فصاح الآخرون كلُّهم: «آهه، أحسنتَ أحسنت، يا رئيس! هذا هو بيت القصيد. لا أحد أصفى ذِهناً منك. فقد أوضحت الأمر خيرَ إيضاح».

وقال أُحاديُّ القدم الرئيسُ: «لقد قبضَت على العجوز نائماً، تلكَ البنتُ الصغيرة. إنَّنا غلبناه هذه المرَّة!»

فردَّدت الجوقة برتابة: «ذلك ما كنّا ننوي أن نقوله نحن تماماً. لقد بتَّ اليومَ أقوى منك في أيِّ وقتٍ مضى، يا رئيس. فإلى الأمام، إلى الأمام!»

وقالت لوسي: «ولكنْ هل يجرؤون أن يتكلّموا عنك هكذا؟ لقد بدا أنّهم خائفون منك جدّاً يومَ أمس. أفلا يعرفون أنّك قد تكون مُصغياً إليهم؟»

فأجاب الساحر: «ذلك أحد الأشياء الغريبة العجيبة بشأنِ هؤلاء الدفّافين. فإنّهم حيناً يتحدّثون كما لو كنتُ أُديرُ كلَّ شيء، وأسمع كلَّ شيء، وكما لو كنتُ خطراً كلَّ الخطر. وفي اللحظة التالية يتصوّرون أنّهم يقدرون أن يغلبوني بالحِيَل التي لا ينخدع بها الطفل... فما أعجب أمرهم!»

وسألت لوسي: «أينبغي أن تَرُدَّ لهم أشكالَهم اللائقة؟ أُوه، أرجو فعلاً ألّا يكون من المُجحِف إبقاؤهم على حالهم هذه. هل يَعنيهم هذا الأمر كثيراً؟ إنّهم يبدُون سُعَداء جدّاً. أمَا تَرى تلك القفزة؟ كيف كان شكلهم قبلاً؟»

فقال: «كانوا أقزاماً صغاراً عاديِّين، لا يشبهون في شيء ذلك النوع الحسن الذي لديكم في نارْنيا».

وقالت لوسي: «سيكون أمراً مثيراً للشفقة أن يَرُدُّوا إلى أصلهم. فإنّهم مُضحِكون جدّاً، بل هُم ظُرَفاء هكذا. هل تعتقد أنّ إخباري إيّاهم بذلك يُحدِث أيَّ فرقٍ عندهم؟»

«أنا متأكّد أنّه يُحدِث... إذا قدرتِ أن تُدخلي ذلك في رؤوسهم».

«هلّا تأتي معي، فنُجرِّب!»

«لا، لا! ستُحرِزين تقدُّماً أفضل من دوني».

فقالت لوسي: «شكراً جزيلاً على الغداء!» ثمَّ دارت ومضت مُسرِعة. ونزلت بسرعة على الدَرَج الذي كانت قد صعدت عليه متوتّرةً جدّاً ذلك الصباح، واصطدمت بأدمون عند أسفل الدرج. وكان الباقون كلُّهم معه ينتظرون هناك، فأنّبها ضميرُها عندما رأت وجوههم المُتلهّفة وأدركت كم نسِيَتهم طويلاً.

وصاحت: «الأمر حسنٌ جدّاً. كلُّ شيءٍ بخير. الساحر لطيف المعشر جدّاً. وقد رأيتُه، رأيتُ أصلان!»

وبعد ذلك غادرتهم كالريح واندفعت إلى البستان. وهنالك كانت الأرض تهتزُّ تحت قفزات أُحاديّي القدم، والهواء يُجلجِل بهتافاتهم. فتضاعف ذلك كلُّه لمّا وقعت أنظارهم عليها.

وصاحوا: «ها قد أتت، ها قد أتت. هُتافاً مُثلّثاً للفتاة الصغيرة! آه! لقد تغلّبَت على السيّد العجوز بكلّ مهارة، وأحسنَت في ما فعلت».

ثمَّ قال أحاديُّ القَدَم الرئيس: «ونحنُ آسِفون أشدَّ الأسف لعدم قدرتنا على إبهاجك بمرآنا قبل أن تمّ تبشيعُنا، فإنّك لن تُصدِّقي الفرق، وهذه هي الحقيقة، إذ لا يُنكِر أحدٌ أنّنا الآن بَشِعون على نحوٍ هائل، ولذلك لن نخدعَكِ!»

فقالت لوسي، وقد كانت تصرخ صراخاً حتّى تُسمَع جيداً: «ولكنّني لا أظنُّ أنكم بَشِعون أبداً، بل أعتقد أنّكم ظُرفاء جدّاً».

وقال أُحاديُو القَدَم: «اسمعوها، اسمعوها! صدَقتِ يا آنسة. فنحن نبدو ظُرَفاء جداً. ولا يُمكِنكِ أن تجدي مَن هو وسيمٌ أكثر منّا». وقد قالوا ذلك بغير إبداء أيّة مُفاجأة، ولم يظهر أنّهم لاحظوا تغيير رأيهم.

ثمّ علّق أُحاديُّ القَدَم الرئيس: «كانت تـ... تقول كم كُنّا نبدو ظرفاء قبل أن تمّ تبشيعُنا».

وردّد الآخرون: «صدقتَ، يا رئيس، صدقت! ذلك ما قالته. ونحن سمعناه بآذاننا!»

فزعقت لوسي: «لم أقُل ذلك، بل قلتُ إنكم ظُرَفاء جداً الآن!»

وقال الرئيس: «هكذا قالت، هكذا قالت. إنّها قالت إنّنا كنا ظرفاء آنذاك».

فقال أُحاديُو القَدَم: «اسمعوهما كِلَيهما، اسمعوهما كليهما! ها هنا اثنانِ لكُم. وهما دائماً على حقّ. وقد عبّرا عن ذلك أحسن تعبير».

واعترضت لوسي، ضاربةً الأرض بقدمها من قلّة الصبر: «ولكنّ كلّ واحدٍ منّا يقول عكس ما يقوله الآخر تماماً!»

فقال أُحاديُو القدم: «هكذا تفعلان، بالتأكيد، هكذا تفعلان. لا شيء مثل التعاكس. تابِعا كلاكما!»

وقالت لوسي: «إنكم فعلاً تُسبّبون الجنون لأيّ شخص كان!» ثمّ كفّت عن محاولاتها. إنّما بدا أنّ أُحاديّي القَدم راضون إلى التمام، فقرّرت لوسي أنّ المحادثة كانت ناجحة إجمالاً.

ثمّ قبل أن يُخلِد الجميع إلى النوم أيضاً حدث في ذلك المساء شيء آخر جعل أحاديّي القَدَم أكثر رضىً بعدُ بحالتهم ذات الرِجْل الواحدة. فإنّ كاسپيان وباقيَ النارْنيانيّين ذهبوا إلى الشاطئ بأسرع ما يمكن ليُطلِعوا على أخبارهم رِنْس وسائرَ الموجودين على ظهر جوّابة الفجر، وكان القلق آنذاك قد بدأ ينهشهم نهشاً. وبطبيعة الحال، ذهب أُحاديُو القَدَم معهم وهم يقفزون كالكُرات ويوافقون بعضهُم بعضاً بأصواتٍ عالية إلى أن قال يُسطاس: «أتمنّى لو يجعلهم الساحر مُتعذَّراً سماعُهم بدَلَ كونِهم غير مرئيّين». (وسُرعان ما ندم كثيراً لكونِه قد تكلّم، إذِ اضطُرَّ إلى أن يشرح لهم أن الشيء الذي يتعذّر سماعُه هو شيءٌ لا يمكنك أن تسمعه. ومع أنّه حاول بأقصى جهده، فهو لم يشعر قطّ بأنّ أُحاديّي القَدَم قد فهموا حقّاً. وما أزعجه إزعاجاً خاصّاً أنّهم قالوا أخيراً: «إه، إنّه لا يقدر أن يُعبّر عن الأُمور بمِثل براعة رئيسنا. ولكنّكَ سوف تتعلّم، يا فتى. أصغُوا إليه! فهو سيُعلّمكم كيف تقولون ما تودّون قوله. ها هُنا مُتكلّمٌ ينفعكم!»)

ولمّا وصلوا إلى الخليج، خطرَت لريبيتشيب فكرةٌ رائعة. فقد طلب أن يُدلّى قاربُه الصغير (القُرقُل)، وأخذ يُجذّف بنفسه فيه ويجول به إلى أن أثار اهتمام أُحاديّي القَدَم تماماً. ثمّ وقف في القارب وقال: «يا أُحاديّي القدم الأفاضِل والأذكياء، إنكُم لا تحتاجون إلى قوارب. فعند

كلٌّ واحدٍ منكم قَدَمٌ تحلُّ محلَّ ذلك. فاقفزوا فقط على الماء بأخفِّ ما يمكنكم وشاهِدوا ما يحدث!»

فتردَّد أُحاديُّ القَدَم الرئيسُ وحذَّر الآخرين بقوله إنّهم سيجدون الماء سائلاً كثير الرطوبة جداً. ولكنَّ واحداً أو اثنين من الاصغر سنّاً جرَّبوا ذلك في الحال تقريباً؛ ثمَّ حذا حذوَهم بعضُ الآخرين، وفي الأخير عملت المجموعة كلُّها ما عمله أولئك. وفعل ذلك الأمرُ فِعلَه تماماً. فإنَّ القَدَم الواحدة الضخمة التي يملكها أُحاديُّ القَدَم قامت بدَور طَوفٍ أو قاربٍ عاديّ. ثُمَّ لمّا علَّمهم ريبيتشيب كيف يقطعون لأنفسهم من الأغصان مجاذيفَ مُرتَجلة، أخذوا يطوفون مُجذِّفين في الخليج وحول جوّابة الفجر، وهم يبدون للآخرين كأسطولٍ من قوارب الكَنْو الصغيرة، حيث يقف قزمٌ سمين في مؤخَّرِ كُلِّ كَنْو تماماً. وأجرَوا سباقات، ودُلِّيَت لهم من السفينة قنانيُّ نبيذ كجوائز، وقد وقف البحّارة متّكئين على جوانب السفينة وراحوا يضحكون حتّى كادت خواصِرُهم تنفجر.

كذلك أيضاً سُرَّ الدفّافون كثيراً باسمهم الجديد «أحاديُو القَدَم»، وقد بدا لهم اسماً فخماً، مع أنّهم لم يستطيعوا لفظه بطريقة صحيحة بتاتاً. فقد جأروا قائلين: «ذلك هو ما نحن: ديُو العَدَم، أُحاقيُو الدم، حوّاديُو الدقّ. وهو تماماً الاسم الذي كان على رؤوس ألسنتنا وكُنّا ننوي أن نُسمّي أنفُسَنا به». ولكنّهم سرعان ما خلطوا ذلك باسمهم القديم «الدَّفّافون» حتّى استقرُّوا أخيراً على

تسمية أنفسهم «الدَّفادِم» (وواحِدُهم «دَفدَم»). وهذا هو الاسم الذي رُبَّما سيُعرَفون به على مدى قُرون.

في ذلك المساء تعشّى النارْنيابيُّون جميعاً في الطابق الأعلى مع الساحر، ولاحظت لوسي كم بدا الطابق العلويُّ كلُّه مختلفاً الآن بحيث لم تعُد خائفةً منه. كانت الرموز الغامضة على الأبواب ما تزال غامضة، ولكنْ بَدَت الآن كأنّها ذاتُ معانٍ ظريفة وبهيجة، حتّى إنَّ المرآة المُلتحية بدت مضحكة ولم تعُد راعِبة. وعند العشاء حصل كلٌّ منهم بالسحر على ما أحبَّ أكله أو شُربه أكثر الكُلّ؛ وبعد العشاء أدّى الساحر عملاً سحرياً نافعاً وجميلاً جدّاً. فقد نشر على الطاولة قطعتَي ورقٍ فاخر كبيرتين بيضاوَين، وطلب من دِرينيان أن يرويَ له بالتفصيل ما صادفوه في رحلتهم حتّى ذلك الحين. وبينما دِرينيان يتكلّم، ارتسم كلُّ ما وصفه على الورق بخطوطٍ رقيقة واضحة، حتّى صارت في الأخير كلُّ ورقة خريطة فاخرة للمحيط الشرقيّ، تظهر فيها غالما وتيربنثيا والجُزر السبع، والجزر المنفردة وجزيرة التنّين والجزيرة المحروقة، وجزيرة ماء الموت، وأرض الدفّافين ذاتها، وكلُّها بالحجم الصحيح تماماً وفي مواقعها بالضبط. وكانت هاتان الخريطتان أوّل خريطتين رُسِمتا لتلك البحار، وأفضل من أيّة خرائط رُسِمت منذ ذلك الحين بغير سِحر. فإنّه في هاتين الخريطتين - مع أنَّ المدن والجبال ظهرت أوّلاً كما قد تظهر في أيّة خريطة عاديّة - لمّا أعارهم الساحر

عدسة زُجاجيّة مُكبّرة رأوا صُوَراً صغيرة كاملة للأشياء الحقيقيّة، بحيث كان يمكنك أن ترى تماماً القصر وسُوق العبيد والشوارع في مِيناصُغرى، وهي كلُّها واضحة جداً وإن كانت بعيدة جدّاً، كالأشياء التي تراها حين تضع المنظار على عينيك بالمقلوب. ولكنّ النقص الوحيد كان أنّ خطوط السواحل في معظم الجزر لم تكُن كاملة، لأنّ الخريطتين أظهرتا فقط ما قد رآه دِرينيان بعينيه. وعندما اكتملت الخريطتان، احتفظ الساحر بإحداهما وأهدى الأُخرى إلى كاسپيان، وهي ما تزال مُعلّقة في حُجرة أدواته بقصر كَيرپراڤيل.

ولكنّ الساحر لم يتمكّن من إخبارهم بأيّ شيء عن البحار أو الأراضي الواقعة في أقصى الشرق. غير أنّه في الواقع أخبرهم بأنّه منذ سبع سنين تقريباً أرست في مياهه سفينةٌ نارنيانيّة على متنها اللوردات ريڤِلْيان وآرغُوز ومَفرَمُورن ورُهوب. وهكذا استنتجوا أنّ الرجُل الذهبيّ الذي رأوه مُمدّداً في ماء الموت لا بدّ أن يكون هو اللورد رستيمار.

وفي الغد أصلح الساحر مؤخّر جوّابة الفجر حيث خرّبته أفعى البحر، وحمّلها هدايا نافعة؛ وجرى وداعٌ ودودٌ جدّاً. ولمّا أبحرت في الساعة الثانية بعد الظُّهر طاف حولها الدُّفادِم كلُّهم مجذّفين، مُرافقين إيّاها إلى مدخل المرفأ، وظلّوا يهتفون مودّعين حتى خرجت من نطاق سماع هُتافاتهم.

الفصل الثاني عشر

جزيرة الظلام

بعد تلك المُغامرة، واصلوا إبحارهم جنوباً، وشرقاً بعض الشيء، طوال اثني عشر يوماً، تهبُّ عليهم ريحٌ خفيفة تحت سماءٍ صافية جدّاً وفي جوٍّ دافئ. ولم يروا طيوراً ولا سمكاً، ما عدا مشاهدتَهم مرّةً بعض الحيتان تقذف نوافير من الماء بعيداً جدّاً إلى جهة الميمنة. وفي تلك الأثناء لعبت لوسي مع ريبيتشيب بالشطرنج كثيراً. ثمّ في اليوم الثالث عشر، لمح إدمون من على بُرج القتال ما بدا مثلَ جبل كبير مُظلِم إلى جهة ميسرتهم الأماميّة.

فغيّروا خطَّ سيرهم وتوجّهوا نحو تلك الأرض، مستخدمين المجاذيف على الأغلب، لأنّ الريح لم تكن مؤاتية لدفعهم إلى الشمال الشرقيّ. ولمّا حلّ المساء كانوا ما يزالون بعيدين عنها جداً، وظلّوا يُجذّفون طوال الليل. وفي الصباح التالي كان الطقس حسناً، ولكنّ هدوءاً مُريباً كان مُخيّماً. وكانت الكُتلة المُعتِمة قُدّامهم أقرب وأكبر بكثير، ولكنّها ما تزال قاتمة جدّاً، بحيث حسب بعضهم أنّها ما زالت بعيدة عنهم جدّاً وحسب

آخرون أنّهم داخلون في غمامةِ ضباب.

ونحو الساعة التاسعة من ذلك الصباح، صاروا فجأةً قريبين جداً من تلك الكتلة السوداء، حتّى تمكّنوا من أن يعرفوا أنّها لم تكن أرضاً قطّ، ولا حتّى ضباباً بالمعنى المألوف. لقد كانت ظلاماً. ومع أنّه يصعب وصفُها، ففي

وسعك أن تدرك حقيقتها إذا تخيّلت أنّك تنظر إلى قلب فُوّهة نَفَق من أنفاق قطارات سكّة الحديد: نفقٍ إمّا طويل جدّاً وإمّا مُتعرّج كثيراً بحيث لا يمكنك أن ترى النور في الطرَف الأقصى. وأنت تعرف كيف يكون ذلك. فإلى مسافة مترين أو ثلاثة تقريباً ترى قضبان السكّة وعوارضها الخشبيّة والحصى في ضوء النهار المباشر، ثمّ يصل نظرك إلى مكان فيه تبدو تلك كلُّها كما لو كانت تحت الشفَق، وبعد ذلك — فجأةً تماماً إنّما بالطبع دون حدٍّ فاصل واضح — يغيب كلُّ شيء في ظلام دامس كثيف. هكذا كانت الحال هنا. فعلى بُعد أمتار قليلة جدّاً من مُقدَّم السفينة، أمكنهم أن يروا أمواج البحر المتألّقة بلونها الأزرق الضارب إلى الخُضرة. ووراء ذلك، أمكنهم أن يروا المياه وهي تبدو شاحبة ورماديّة كما تكون في أواخر الغروب. ولكنْ وراءَ ذلك بَعد، عمَّ الظلام الحالك، وكأنّهم قد وصلوا إلى طرَف ليلٍ غاب عنه القمر والنجوم.

عندئذٍ نادى كاسپيان عريفَ الملّاحين لوقف تقدُّم السفينة، واندفع الجميع إلى الأمام، ما عدا المُجذّفين، وأخذوا يُحملِقون من على حافة المُقدَّم. ولكنْ لم يستطيعوا أن يروا شيئاً، مهما حملقوا. فوراءهم كان البحر والشمس، وأمامَهمُ الظلام.

أخيراً سأل كاسپيان: «هل ندخُل هذه؟»

فقال درِينيان: «أنا لا أنصحُ بهذا».

وقال بضعة بحّارة: «الرُّبّان على حقّ».

وقال إدمون: «وأنا أُرجّح أن يكون كذلك».

ولم يقُل يُسطاس ولوسي شيئاً، لكنّهما شعرا بكثيرٍ من السرور الداخليّ بالمنحى الذي بدا أنّ الأمور تسير فيه. إلّا أنّ صوت ريبيتشيب الواضح اخترق جدار الصمت، قائلاً:

«ولِمَ لا؟ هل يُفسّر لي أحدٌ لماذا لا؟»

ولم يتحمّس أحد للتفسير، فتابع ريبيتشيب قائلاً:

«لو كُنّا نخاطِب فلّاحين مأجورين أو عبيداً، لاعتبرتُ هذا الاقتراح صادراً عن الجبن. ولكنْ أرجو ألّا يُحكى في نارنيا أبداً أنّ جماعةً من النبلاء والملوك في ريعان شبابهم فرّوا هاربين خوفاً من الظلام».

وسأل درينيان: «ولكنْ بأيّ نفْع يعود علينا إبحارُنا وسط تلك الظُلمة؟»

فأجاب ريبيتشيب: «نفْع؟ نَفع، يا رُبّان؟ إن كنتَ تقصد بالنَّفْع مَلْءَ بطوننا أو جيوبنا، أُقِرُّ بأنّنا لن نجني أيَّ نفْع أبداً. وعلى حدّ علمي، فإنّنا لم نركبِ البحر بحثاً عن الأمور النافعة بل طلباً للشّرَف والمغامرة. وها هُنا مغامرة كأعظم ما سمعتُ به من المغامرات، كما أن ها هُنا — إنْ لُذنا بالفرار — تجريحاً غيرَ قليل بكراماتنا أجمعين».

وقال بعض البحّارة همساً أقوالاً بَدَت مثل «سُحقاً للكرامة والشرَف!» غير أنّ كاسپيان قال:

«آه، أفٍّ منك يا ريبيتشيب. كدتُ أتمنّى لو تركْناك في الوطن. حسنٌ جدّاً! ما دمتَ قد عبّرتَ عن الأمر بهذه

الطريقة، أرى أنّ علينا أن نمضيَ قُدماً... إلّا إذا فضّلت لوسي عدم المُضيّ».

وشعرَت لوسي بأنّها لم تكن لتُفضّل المُضيّ، ولكنّ ما قالته بصوت عالٍ كان: «أنا عازمةٌ على التقدُّم!»

وقال درِينيان: «لو تأمر جلالتك على الأقلّ بإضاءة الأنوار!»

فأجاب كاسپيان: «بالتأكيد! فاهتمّ بهذا، يا رُبّان».

وهكذا تمّ إشعالُ المصابيح الثلاثة، في المُقدَّم وفي المؤخَّر وفي أعلى الصاري، وأمر درينيان بإضاءة مِشعلَين في وسط السفينة. وبدَت هذه الأضواء كلُّها باهتة وشاحبة تحت نور الشمس. ثمّ صدر أمرٌ إلى جميع الرجال، ما عدا قِلّةً منهم تُركوا في الأسفل عند المجاذيف، بأن يصعدوا إلى ظهر السفينة بكامل سلاحهم ويتّخذوا مواقعهم القتالية وسيوفُهم مجرّدة. وأُقيمت لوسي مع رماةِ سهامٍ آخرين على بُرج القتال بأقواس مشدودة وسهامٍ جاهزة للإطلاق. ومضى راينِلف إلى المُقدَّم حاملاً حبل القِياس الرفيع، على أُهبة سَبر الأعماق. ووقف معه ريبيتشيب وإدمون ويُسطاس وكاسپيان بدروعهم البرّاقة. أمّا درينيان فتولّى أمر ذراع الدفّة.

ثمّ صاح كاسپيان: «والآن، باسْم أصلان، إلى الأمام! جذّفوا تجذيفاً بطيئاً ثابتاً. وليَبقَ كلُّ رجُلٍ صامتاً ويُبقِ أُذنيه مفتوحتين للأوامر».

وبصوتِ صريرٍ وصريف، بدأت جوّابة الفجر زحفها

إلى الأمام حالما بدأ الرجال بالتجذيف. وقد تمكّنت لوسي، وهي على بُرج القتال، من أن ترى منظراً رائعاً لِلَحظةِ دخولهم في الظلام تماماً، حيث اختفى المُقدَّم قبل أن زال ضوء الشمس عن المؤخَر، وهي رأته يختفي. إذ في لحظة واحدة كان المؤخَر المُزَخرف والبحر الأزرق والسماء جميعاً في وَضَح النهار، ثُمَّ في اللحظة التالية تلاشى البحر والسماء وبات مصباح المؤخَر — بعدما كان بالكادّ يُلاحَظ قبلاً — هو الشيء الوحيد الظاهر في آخِرِ السفينة. وقد استطاعت لوسي أن ترى قُدّام المصباح شكل دِرينيان مُنحنياً على ذراع الدفّة. وتحتها في الأسفل كشف المشعلان رُقعتَين صغيرتين من ظهر السفينة، وومض ضوؤهما على السيوف والخُوَذ، وفي الأمام كانت جُزَيْرَةٌ أُخرى من الضوء على مقصورة المُقدَّم. وبمعزلٍ عن ذلك، بدا بُرجُ القتال — وقد أضاء عليه مصباحُ أعلى الصاري الذي كان فوق لوسي تماماً — عالماً مُضاءً صغيراً مستقلاً بذاته، عائماً وسط الظلمة المُوحِشة. أمّا الأنوار نفسها، كما يحدث دائماً عندما تُضطرُّ إلى إضاءتها في غير وقتها من النهار، فقد بدت شديدةَ الشحوب وغير طبيعيّة. كذلك لاحظت لوسي أيضاً أنّها كانت تشعر بالبرد الشديد.

ولم يعرف أحدٌ كم استغرقت تلك الرحلة في قلب الظلام. ولَولا صريفُ مساند المجاذيف وطرطشة المجاذيف لم يكن أيُّ دليلٍ على أنّهم يتحرّكون قطعاً. وإذ حدّق إدمون من أعلى المُقدَّم، لم يقدر أن يرى سوى

انعكاس ضوء المصباح أمامه. وقد بدا انعكاساً شبه زيتيّ، كما ظهر التموُّج الذي أحدثه مُقدَّم السفينة المندفع إلى الأمام ثقيلاً وقصيراً وبلا حياة. وبمرُور الوقت بدأ الجميع يرتجفون من البرْد، ما عدا المُجذّفين.

وفجأةً صدرَت من مكانٍ ما — إذْ لم يعُد حسُّ الاتّجاه لدى أيّ واحدٍ منهم فعّالاً جداً — صرخةٌ أطلقها إمّا صوتٌ غير بشريّ وإمّا صوتُ مَن بلغ به الرُّعب أقصى حدٍّ حتّى فقدَ بشريَّته تقريباً.

وكان كاسپيان ما زال يُحاوِل أن يتكلّم، وقد جفَّ حلقُه أيَّ جفاف، إذْ سُمِع صوتُ ريبيتشيب الحادُّ الصافِر، وبدا أعلى من المُعتاد في غمرة ذلك السُكون، قائلاً:

«مَن ينادي؟ إذا كنتَ عدوّاً فنحن لا نخافك؛ وإذا كُنتَ صديقاً فسنعلّم أعداءَك أن يخافوا منّا!»

فصاح الصَّوت: «رأفةً بي! رأفةً بي! حتّى لو كُنتم مجُرَّدَ حلمٍ آخر، فارحموني. أصعِدوني إلى ظهر السفينة. أصعِدوني، ولَو قتلتموني! ولكنْ بحقّ جميع المراحِم، لا تتوارَوا وتتركوني في هذه الأرض الرهيبة».

ونادى كاسپيان: «أين أنت؟ اصعَد إلى ظهر السفينة، وأهلاً بك!»

ثُمّ سُمِعت صرخةٌ أُخرى، إمّا من فَرَح وإمّا من رُعب، وبعدئذٍ علموا أنّ أحداً ما يسبح صوبهم.

وقال كاسپيان: «استعدُّوا لرفعه، يا رجال!»

فقال البحّارة: «إي نعم، يا صاحب الجلالة». وتجمّع

بعضُهم عند حاجز الميسرة الأعلى، وقد أحضروا حبالاً، فيما مدَّ أحدُهم يده بالمشعل مُنحنياً على الحافة بأقصى ما يمكنه. وإذا بوجه أبيض غريب الشكل يظهر في المياه المُعتِمة. ثُمَّ بعد شيء من الشدّ والسحب، أصعدت اثنتا عشرة يداً ودودة ذلك الغريبَ إلى متن السفينة.

خُيِّل إلى إدمون أنّه لم يرَ رجُلاً أغرب من ذلك شكلاً. فمع أنّه لم يبدُ مُسِناً جدّاً، كان شعرُه كتلةً منفوشة من البياض، وكان وجهه نحيلاً ومُتجعِّداً، أمّا ثيابُه فكانت بضع خِرَق مُبلَّلة تتدلى عليه. ولكنّ ما كان لافتاً للانتباه هو عيناه اللتان كانتا مفتوحتين على وسعهما حتّى بَدتا بلا أجفانٍ البتّة، وكانتا تُحدّقان كما في نوبة خوفٍ شديد. وما إن وطئت قدماه ظهر السفينة حتّى قال:

«فِراراً! فراراً! أسرِعوا بسفينتكم هاربين! جذّفوا، جذّفوا، جذّفوا إنقاذاً لحياتكم، مبتعِدين عن هذا الشاطئ اللعين».

وقال ريبيتشيب: «هدِّئ من روعك، وقُل لنا ما الخطر. فنحن لم نتعوَّد أن نهرب».

فأجفل الغريب مذعوراً من صوت الفأر الذي لم يكن قد لاحظه من قبل. وقال لاهثاً:

«ومع ذلك، فلا بدَّ أن تفرُّوا من هنا. هذه هي الجزيرة التي فيها تتحقّق الأحلام».

فقال أحد البحّارة: «تلك هي الجزيرة التي طالما بحثتُ عنها زماناً. فقد حسبتُ أنّني سأجد نفسي متزوِّجاً بِنانسي إن نزلنا إلى البرّ هنا».

وقال آخر: «وأنّني أنا سأجد طام حيّاً أيضاً».

فقال الرجل وهو يخبط الأرض بقدمه ساخطاً: «يا للغباوة! ذلك هو نوع الحديث الذي أتى بي إلى هنا، وقد تمنّيتُ لو أنّني غرقت أو لم أولَد قطّ. هل سمعتم ما أقوله؟ ها هُنا الأحلام — الأحلام، هل فهمتم — تصير واقعاً حيّاً، تصير واقعاً ملموساً. ليس أحلام اليقظة، بلِ الأحلام!»

ثمّ ساد الصمت نحو نصف دقيقة. وبعدئذٍ، بكثيرٍ من صلصلة الدروع، اندفع أفراد الطاقم كلُّهم عبر الفتحة الرئيسيّة بأسرع ما يمكنهم وخفُّوا إلى المجاذيف ليُجذّفوا كما لم يُجذّفوا قطُّ من قبل، وأخذ درينيان يُدير ذراع الدفّة، فيما كان عريف الملاّحين يُصدِر أسرع دعوةٍ إلى التجذيف سُمِعت في البحر يوماً. فقد كان نصف تلك الدقيقة كافياً حتّى يتذكّروا كلهم أحلاماً مُعيّنة سبق أن رأوها — أحلاماً تجعلك تخاف أن تعود إلى النوم — وحتّى يُدركوا ما معنى النزول على البرّ في بلدٍ تتحقّق فيه الأحلام.

غير أنّ ريبيتشيب وحده ظلّ ساكناً هادئاً. ثمّ قال:

«يا صاحب الجلالة، يا صاحب الجلالة! أتنوي أن تسمح بهذا التمرُّد، بهذا الجُبن الشديد؟ هذا ذُعر، هذا شَغَب!»

فجأر كاسپيان: «تجذيفاً، تجذيفاً! أسرعوا إنقاذاً لحياتنا كلّنا. هل رأس السفينة في الاتّجاه الصحيح، يا درينيان؟

يمكنك أن تقول ما تشاء، يا ريبيتشيب. فهنالك بعض أشياء لا يقدر أيُّ رجُل على مواجهتها».

وردَّ ريبيتشيب، بانحناءةٍ رسميّة جدّاً: «إذاً، من حُسن حظّي أنّني لستُ رجلاً!».

سمعَت لوسي كلَّ شيء، وهي في الأعلى. وفي لحظةٍ واحدة عاودها ذلك الحلم الذي حاولَت بأقصى جهدها أن تنساه، حيّاً نابضاً كما لو أنّها قد استيقظت منه فوراً. إذاً ذلك هو ما كان وراءهم، على الجزيرة، في وسط الظلام! وأرادت لُحيظةً أن تنزل إلى ظهر السفينة لتكون برفقة إدمون وكاسپيان. ولكنْ ما نفْع ذلك؟ فإذا بدأت الأحلام تتحقّق، فقد يتحوّل إدمون وكاسپيان أنفسُهما إلى شيءٍ مُروّع حالما تصل إليهما. وتمسّكت بحاجز بُرج القتال، محاولة أن تُثبّت نفسها. وقد كان الرجال يُجذّفون للرجوع إلى النور بأقصى جهدهم، بحيث كان يمكن أن يكون كلُّ شيء بخير بعد ثوانٍ قليلة. ولكنْ حبّذا لو يكون كل شيء بخير الآن!

ومع أنَّ التجذيف كان يُصدِر مقداراً لا بأس به من الضجّة، فهو لم يحجب تماماً الصمت الكلّيَّ المُحيط بالسفينة. وقد عرف كلُّ واحد أنّه أفضلُ ألّا يُصغيَ لأيِّ صوتٍ من الظلام، وألّا يُدير أُذنه لسماع شيء. لكنْ لم يستطعْ أيُّ واحدٍ أن يمنع نفسه عن سماع بعضِ الأمور. وسرعان ما أخذ الجميع يسمعون أصواتاً شتّى، وقد سمع كلٌّ منهم شيئاً مختلفاً.

وسأل يُسطاس راينِلف: «هل تسمع ضجّةً تُشبِه... تُشبِه صوتَ مقصٍّ ضخم ينفتح وينطبق... هناك؟»

فقال راينِلف: «اشْش! إنّني أسمعهم يزحفون صاعدِين على جانبَي السفينة».

وقال كاسپيان: «إنّه سيستقرُّ على الصاري».

وقال أحد البحّارة: «يُوه! ها هي الأجراس تنطلق. كنت أعرف أنّها سترنّ».

وإذ حاول كاسپيان ألّا ينظر إلى أيِّ شيء (وخصوصاً ألّا يظلَّ ينظر وراءه) ذهب إلى دِرينيان في المؤخَّر، وسأله بصوتٍ خفيضٍ جدّاً:

«دِرينيان، كم استغرق من الوقت تجذيفُنا إلى الداخل؟... أعني التجذيف إلى حيث انتشلْنا الغَريب؟»

فهمس دِرينيان: «ربّما خمس دقائق! لماذا؟»

«لأنّنا قضينا أكثر من ذلك حتّى الآن ونحن نحاول الخروج».

فارتجفت يد دِرينيان على ذراع الدفّة، وجرى على وجهه خطٌّ من العرق البارد. وخطرت لجميع الذين على متن السفينةِ الفكرةُ عينُها. وأنَّ المجذّفون قائلين: «لن نخرج أبداً، لن نخرج أبداً. إنّه يُخطئ في توجيهنا. فنحن ندور وندور في حلقات، ولن نخرج البتّة!».

ثمّ إنَّ الغريب، الذي كان ما يزال مُتكوِّماً على نفسه على ظهر السفينة، جلس وانفجر يضحك ضحكة زاعقة مروِّعة:

«لن نخرج أبداً! هذا هو الواقع، طبعاً. لن نخرج البتّة. ما كان أغباني إذ حسبتُ أنّهم سيُطلِقون سراحي بمثل تلك السهولة! لا، لا، لن نخرجَ البتّة».

أسندت لوسي رأسها إلى حافة برج القتال، وهمست: «أصلان، أصلان، إن كنتَ تحبُّنا فعلاً، فأرسِل إلينا معونةً الآن!» ومع أنّ الظلمة لم تخفّ قطّ، فقد بدأت لوسي تشعر بأنّها أحسنُ حالاً بقليل... بقليلٍ جدّاً جدّاً. وفكّرت: «رغمَ كلّ شيء، لم يحدث لنا شيءٌ بالفعل بعد».

ثمّ صاح راينلِف بصوته الأجشّ من أعلى المقدّم: «انظروا!» وإذا أمامهم بُقعة ضوء صغيرة جدّاً، وبينما هم يراقبون، سقط منها شُعاعُ نور عريضٌ على السفينة. ولم يُبدِّل ذلك الظلمةَ المحيطة، إلّا أنّ السفينة كلّها أُضيئت كما بنورٍ كشّاف. وطرفت عينا كاسپيان، وأجال بصره فرأى وجوه رُفقائه كلّهم وعليها تعابيرُ غريبةٌ ثابتة. وكان كلٌّ واحد منهم يحدّق إلى الجهة عينها، ووراء كلٍّ منهم ظِلّه الأسود الواضح المعالم.

ونظرت لوسي على طول الشُعاع فأبصَرت في الحال شيئاً فيه. وقد بدا ذلك الشيء أوّلاً كأنّه صليب، ثمّ بدا كأنّه طيّارة، ثمّ بدا كأنّه طائرة ورقية، ثمّ ظهر أخيراً فوق رؤوسهم تماماً بجناحيه الطنّانَين، فإذا هو طائرُ قَطرَس.*

* طائر القطرس: طائر بحري عظيم قوي الجناحين وكبيرهما، معقوف المنقار أبيض الريش.

وحلّق ثلاث مرّات حول الصاري، ثمّ حطّ لحظةً على رأس التِنّين المزخرف في مقدّم السفينة. ونادى بصوت عذب قويّ بما بدا أنّه كلام، مع أنّ أحداً لم يفهمه. وبعد ذلك نشر جناحيه ونهض، وأخذ يطير ببطءٍ قُدّامهم، مُنعطِفاً قليلاً إلى جهة الميمنة. فوجّه دِرينيان السفينة وراءه، وهو لا يشكّ أنّه وفّر إرشاداً صالحاً. ولكنْ لا أحد غير لوسي عرف أنّه لمّا حام حول الصاري همس لها: «تشجّعي، يا قلبي!» وقد كان الصوت، كما تأكّد لها تماماً، هو صوت أصلان، ومع الصوت فاحت على وجهها رائحة زكيّة!

وما هي إلّا لحظات قليلة حتّى تحوّلت الظلمة أمامهم إلى لونٍ رماديّ، ثمّ قبل أن يجرؤوا على البدء بالأمل تقريباً كانوا قد خرجوا مندفعين إلى ضوء الشمس، فإذا بهم من جديد في العالم الأزرق الدافئ. وفجأةً أدرك الجميع أنّه ليس من شيءٍ يخافونه، ولم يكُن من شيءٍ قطّ. ثمّ طرفوا بأعيُنهم وأجالوا البصر حواليهم. فأذهلهم تألّق السفينة بذاتها، بعدما كانوا قد توقعوا تقريباً أن يجدوا الظلام مُلتصقاً بألوانها — الأبيض والأخضر والذهبيّ — بشكل وسخ أو تلطُخ ما. ثمّ بدأ أحدهم يضحك، وبعده آخر، ثمّ آخرون.

وقال راينلِف: «أحسبُ أنّنا قد خدعْنا أنفسنا إلى حدٍّ لا بأس به!»

ثمّ إنّ لوسي لم تتوانَ عن النزول إلى ظهر السفينة، حيث وجدت الآخرين مجتمعين كلّهم حول القادم

الجديد. وقد مضى وقتٌ طويل وهو لا يقدر أن يتكلّم من فرط سعادته، بلِ كل ما استطاع عمله هو أن يحدّق إلى البحر والشمس، ويتلمّس جوانب السفينة وحبالها، وكأنّه يُريد أن يتأكّد من أنّه يقظانٌ حقًّا، فيما انهمرت الدموع على خدّيه. وأخيراً قال:

«شكراً لكم! لقد خلّصتموني مِن... ولكنْ لن أتكلّم عن هذا. والآن، عرّفوني مَن أنتم. أنا تلماريٌّ من نارنيا، وعندما كانت لي قيمةٌ ما كان الناس يدعونني اللورد رُهوب».

فقال كاسپيان: «وأنا كاسپيان، ملك نارنيا، وقد أبحرتُ لأعثر عليك وعلى رفقائك لأنكم كنتم أصدقاء أبي».

وركع اللورد رُهوب على ركبتيه، وقبّلَ يد الملك، ثم قال: «مولاي، أنت بين الناس أجمعين الرجل الذي تمنّيتُ أن أراه أكثر الكُلّ. فاصنعْ معي معروفاً».

فسأله كاسپيان: «وما هو؟»

أجاب: «ألّا تُعيدني إلى هناك أبداً»، وأشار بيده إلى ما وراء السفينة. فنظر الجميع إلى هناك. ولكنّهم لم يرَوا إلّا البحر الأزرق المتألّق والسماء الزرقاء الصافية. إذ إنّ جزيرة الظلامِ والظُّلمةَ قدِ اختفتا إلى الأبد.

وصاح اللورد رُهوب: «عجباً! لقد دمّرتموها!»

فقالت لوسي: «لا أعتقد أنّنا نحنُ مَن فعل ذلك».

وقال درينيان: «يا مولاي، هذه الريح مؤاتية للإبحار باتّجاه الجنوب الشرقيّ. فهل أُصعِد رُفقاءنا المساكين إلى

فوق وأستأنف الإبحار؟ وبعد ذلك يمضي كلُّ رجُلٍ يمكن الاستغناء عنه إلى أُرجوحته الشبكيّة!»

فقال كاسپيان: «نعم، واسقُوا الجميعَ شراباً مُنعِشاً. يا للَعجب! أشعر أنّني أنا نفسي أستطيع أن أنام اثنتي عشرة ساعة متواصلة».

وهكذا أبحروا بعدَ الظهر كُلّه بفرحٍ عظيم نحو الجنوب الشرقيّ، تدفعهم ريحٌ مؤاتية. إلّا أنّ أيّاً منهم لم يلاحِظْ متى اختفى طائرُ القَطْرس.

الفصل الثالث عشر

النائمون الثلاثة

لم تنقطعِ الريح قطّ، بل غَدَت أرقَّ كلَّ يوم حتّى صارت الأمواج في الأخير أقوى قليلاً من الترَقرُق، وأخذتِ السفينة تنساب ساعةً بعد ساعة وكأنّهم كانوا يُبحِرون في بُحيرَةٍ تقريباً. وشاهدوا كلَّ ليلة في الشرق مجموعاتٍ جديدةً من النجوم لم يسبق أن رآها أحدٌ في نارنيا. ولربّما – كما فكّرت لوسي بمزيج من الفرَح والرهبة – لم تَرَها قطُّ عينُ كائنٍ حيٍّ من قبل. وكانت تلك النجوم الجديدة كبيرة وساطعة، كما كانت الليالي دافئة. فأخذ معظمهم ينامون على ظهر السفينة ويسهرون إلى وقتٍ متأخّر من الليل وهم يتحادثون، أو يتّكئون على الحواجز الجانبيّة وهم يراقبون تراقُصَ الزَبَدِ المتألّقَ الذي يشقُّه مُقدَّم السفينة.

وذاتَ مساءٍ باهرِ الجمال، إذْ كان الغروب وراءهم مُصطبِغاً بكثيرٍ منَ الألوان القرمزيّة والأرجوانيّة وواسعَ النِطاق كثيراً حتّى إنّ الفضاء نفسه بدا أنّه صار أكبر، لاحت أمامهم أرضٌ إلى جهة الميمنة، ثمّ أخذت تقترب

شيئاً فشيئاً، وقد جعل الضوء وراءهم رؤوسَ تلك الأرض الجديدة وخلجانَها تبدو كأنّها تشتعل. ولكنّهم آنذاك كانوا يُبحرون بمُحاذاة سواحلها، وقد بات رأسُها الغربيُّ الآن قائماً عن ميسَرتِهم، فظهر أسودَ مُقابِلَ الفضاء الأحمر وحادّاً كأنّه مُفصَّل من الكَرتون، وعندئذٍ استطاعوا أن يروا طبيعة تلك الأرض بصورة أفضل. فلم يكُن فيها جبال، بل عدّةُ تلال معتدلة الارتفاع ذات مُنحدَرات كالوسائد. وقد انبعثت منها رائحة جذّابة، دعتها لوسي «رائحة غامضة أُرجوانيّة»، وقال إدمون (وحسِبَ رِنْس) أنّها عَفِنة، ولكنّ كاسپيان قال: «أنا أعرف ما تقصدين».

وواصلوا إبحارهم مسافةً لا بأس بها، مُجاوزين نقطةً بعد نقطة، آمِلين أن يجدوا مرفأً عميقاً حسناً، ولكنّهم اضطُرّوا أخيراً إلى الاكتفاء بخليج واسع قليل العُمق. ومع أنّه بدا هادئاً من عُرض البحر، فقد كان هنالك بالطبع موجٌ يتكسّر على الرمل، ولم يتمكّنوا من الاقتراب بجوّابة الفجر نحو الشاطئ كما كانوا يرغبون. وألقوا المرساة على بُعدٍ معقول عن الساحل، حيث كان نـزولُهم إلى القارب محفوفاً بالبَلَل والتعثُّر. وقد بقي اللورد رهُوب على متن جوّابة الفجر. فإنّه لم يرغبْ في رؤية مزيدٍ من الجُزر. وطوالَ بقائهم في ذلك البلد، ظلّ صوت الأمواج الطويلة المتكسّرة يتردّد في آذانهم.

تُرِك رجُلان لحراسة القارب، وتقدّم كاسپيانُ الآخرين إلى داخِل البلد، إلّا أنّه لم يتوغّل كثيراً لأنّ وقت

الاستكشاف كان قد فات والمساء يقترب. ولكنْ لم يكُن من داعٍ للتوغّل كثيراً للحصول على مغامرة. فإنّ الوادي المنبسِط الواقعَ عند رأس الخليج لم يبدُ فيه طريقٌ أو مجاز أو أيّة علامة أخرى على كون المنطقة مأهولة. وكانت تحت أقدامهم تُربةٌ لطيفة ليّنة ينتشر في أماكن متفرّقة منها نباتٌ كثيفٌ خفيض حسبه إدمون ولوسي خَلَنجاً. أمّا يُسطاس، وقد كان في الواقع جيّد الاطّلاع على علم النبات، فقال إنّه ليس خَلَنجاً؛ وربّما كان على حقّ، إلّا أنّ ذلك النبات كان شيئاً من النوع نفسه تقريباً.

وبعدما ابتعدوا عن الشاطئ أقلّ من رمية سهم، قال درينيان: «انظروا! ما ذاك؟» فتوقّف الجميع.

وقال كاسپيان: «ألعلّها أشجار كبيرة؟»

فقال يُسطاس: «أظنّ أنّها أبراج».

وقال إدمون بصوتٍ أدنى: «ربّما تكون عمالقة أو مَرَدة».

وقال ريبيتشيب: «الطريقة الوحيدة لمعرفة حقيقتها هي أن نذهب إلى وسطها حالاً»، فيما سحب سيفه وتقدّم بخُطًى سريعة وخفيفة أمامهم جميعاً.

ولمّا اقتربوا منها مسافةً كافية، قالت لوسي: «أظنّ أنّها خرائب»، فكان تخمينها هو الأفضل حتّى الآن. إذ كان ما رأوه ساحة مستطيلة واسعة مرصوفة بحجارة ملساء وحواليها أعمدة رماديّة، لكنّها غير مسقوفة. وكان عليها من أوّلها إلى آخِرها مائدة طويلة فُرِش عليها شرشف قرمزيّ فاخر تدلّت

أطرافه حتّى كادت تمسّ الأرضيّة المرصوفة بالحجارة. وكان إلى كِلا جانبيها كراسيُّ كثيرة من حجر منحوتة نحتاً جميلاً مُتقَناً، وعلى مقاعدها وسائد من حرير. أما على المائدة نفسها فقد وُضِعَتْ مأدُبة لم يُرَ مثلُها قبلاً، ولا حتّى حين كان بطرس الملك الأعلى يُقيم بلاطه في كَيرپاڤيل. إذ كان على المائدة ديوك روميّة ووَزٌّ وطواويس، ورؤوس غَنَم مشويّة وقطع كبيرة من لحم الغزال، وحلوى على شكل سُفن مُبحِرة أو تنانين أو أفيال، وحلوى جليديّة وجرادُ بحرٍ لمّاعٌ وسمكُ سليمان برّاق، وجوزٌ وعِنب وأناناس ودُرّاق ورُمّان وبطّيخ وطماطم. وصُفّت أباريقُ من ذهب وفضّة وزُجاجٍ غريب الصُّنع. وقد هبّت عليهم رائحة الفاكهة والشراب كوعدٍ بكلّ سعادة منشودة.

فقالت لوسي: «يا لَلعجب العُجاب!»

ثمّ اقتربوا أكثر فأكثر، وكلُّهم صامتون تماماً.

وسأل يُسطاس: «تُرى، أين الضيوف؟»

فقال رِنْس: «يمكننا نحن أن تكون الضيوف!»

وقال إدمون بصوتٍ حادّ: «انظروا!» وكانوا آنذاك قد صاروا داخل الأعمدة، واقفين على الأرضية المرصوفة. فنظر الجميع إلى حيث أشار إدمون. وإذا بالكراسيّ ليست فارغةً كلُّها. فإلى رأس الطاولة، وفي المقعدين المجاوِرَين، كان هنالك شيء، أو ربّما ثلاثة أشياء.

وسألت لوسي همساً: «ما هذه؟ إنّها تبدو مثل ثلاثة سَمامير جالسة إلى المائدة».

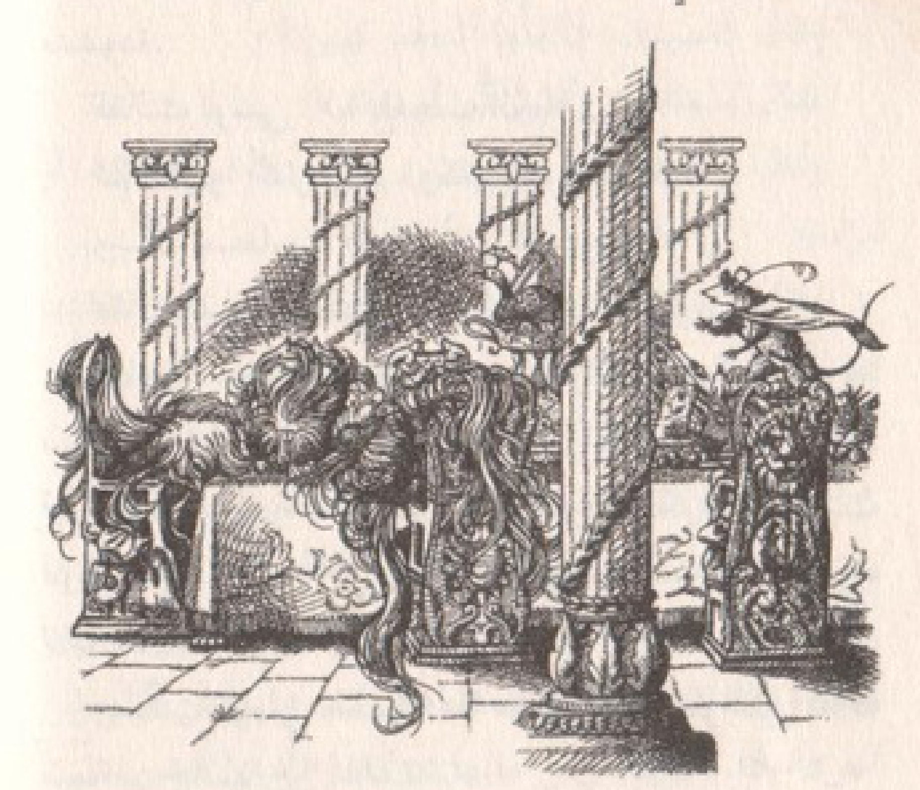
فقال إدمون: «أو عُشٌ طائر ضخم».

وقال كاسپيان: «تبدو لي كأنّها كُدس قشّ!».

ثمّ تقدَّم ريبيتشيب راكضاً، وقفز إلى كرسيّ، ومنه إلى الطاولة، وركض عليها وهو يشقُّ طريقه بخفَّة ورشاقة كالراقص بين الكؤوس المرصّعة بالجواهر وأكوام الفاكهة والمَمالح العاجيّة. وركض حالاً إلى الكتلة الرماديّة الغامضة في آخِر الطاولة، ثمّ حدّق ودقّق وتلمّس، وبعدئذٍ نادى قائلاً:

«هؤلاء لن يُقاتِلوا، كما أظنّ».

عندئذٍ اقترب الجميع، فرأوا أنّ ما كان جالساً على تلك الكراسيّ الثلاثة هو ثلاثة رجال، وإن كان صعباً



تمييزُهم بصفتهم رجالاً قبل التحديق إليهم عن قُرب. فإنّ شعرهم الأشيب كان قد تدلّى على عيونهم حتّى غطّى وجوههم تقريباً، ولحاهم قد طلعت على الطاولة، مُعربشةً على الصحون والأقداح ومجدولةً حولها كما يُطوّق العُلّيق سياجاً، وقد تداخلت كلُّها في سجّادة شعر كبيرة وفاضت من فوق حافة الطاولة نازلةً إلى الأرض. ومن رؤوسهم تدلّى الشعر فوق ظهور كراسيهم حتّى اختفَت تماماً. وفي الواقع أنّ الرجال الثلاثة كانوا كُتلاً من الشعر تقريباً.

وقال كاسپيان: «أهُم أموات؟»

فرفع ريبيتشيب إحدى أيديهم من كتلة الشعر المتشابكة حولها بمخلبيه الأماميَّين، وقال: «لا أظنُّ ذلك، يا مولاي. فهذا الرجل دافئ ونبضه يدقّ».

وقال درينيان: «وهذا أيضاً، وذاك كذلك».

وقال يُسطاس: «عجباً، إنّهم نائمون فقط».

فقال إدمون: «ومع ذلك فقد كان نومهم طويل المدى بحيث طال شعرهم هكذا».

وقالت لوسي: «لا بدَّ أنّه نوم ناجمٌ عن سحر. فقد شعرتُ لحظة هبوطنا في هذه الجزيرة أنّها حافلة بالسحر. أُوه، هل تظنُّون أننا جئنا إلى هنا كي نفكَّ السحر عنهم؟»

فقال كاسپيان: «يمكننا أن نجرِّب»، وبدأ يهزُّ أقرب النائمين الثلاثة إليه. وحسب الجميع لحظةً أنّه سينجح،

لأنّ الرجل تنفّس نفساً شديداً وتمتم: «لن أذهب نحو الشرق بعد. حرّكوا المجاذيف رجوعاً إلى نارنيا». ولكنّه تراخى من جديد في الحال تقريباً وعاد إلى نومٍ أعمق من ذي قبل. ذلك أنّ رأسه الثقيل تدلّى نحو الطاولة عدّة سنتيمترات، وباءت بالفشل جميع المحاولات لإيقاظه من جديد.

وحصل الأمر نفسُه تقريباً مع الرجل الثاني، إذ قال قبل أن يتراخى أيضاً: «لم نُخلَق حتّى نعيش كالحيوانات. اذهبوا إلى الشرق ما دامت لكم فُرصة... إلى الأراضي الواقعة وراء الشمس». أمّا الثالث فقال: «الخَرْدلَ، من فضلك!» ثم نام نوماً عميقاً.

وقال دِرينيان: «حرّكوا المجاذيف رجوعاً إلى نارنيا، إيه؟»

فردّ كاسپيان: «نعم، أنت على حقّ، يا درينيان. أظنّ أنّ مطلبنا كاد يتحقّق! فلننظرْ إلى خواتمهم. نعم، هذه هي شعاراتهم. فهذا هو اللورد رِيڤِليان. وهذا هو اللورد أرغوز. وهذا اللورد مَفْرَمُورن».

وقالت لوسي: «ولكنّنا لا نقدر أن نوقظهم. فماذا ينبغي أن نفعل؟»

فقال رِنْس: «أرجو عفو جلالاتكم جميعاً... لماذا لا نتناول الطعام ونحن نبحث في الأمر؟ فإنّنا لا نرى مائدةً كهذه كلّ يوم».

وقال كاسپيان: «ليس على حساب حياتك!»

وقال بضعة بحّارة: «هذا صحيح، هذا صحيح. فها هنا كثير من السحر. وكُلّما عجّلنا في الرجوع إلى السفينة، كان أفضل».

فقال ريبيتشيب: «صدّقوني، مِن أكل هذا الطعام استغرق هؤلاء اللوردات الثلاثة في نومة سبع سنين».

وقال دِرينيان: «لَن أَمسه، حفاظاً على حياتي».

وقال راينِلف: «إنّ النور يخفتُ بسرعة».

فتمتم الرجال: «رجوعاً إلى السفينة، رجوعاً إلى السفينة!»

وقال إدمون: «أظنّ فعلاً أنّهم على حقّ. يمكننا أن نُقرّر ما نفعله بالنائمين الثلاثة غداً. إنّنا لا نجرؤ على الأكل من هذا الطعام، ولا فائدة في أن نبيت ليلتنا هنا. فالمكان كلّه عابق برائحة السحر... والخطر».

فقال ريبيتشيب: «أنا على رأي الملك إدمون تماماً، بالنسبة إلى ملاّحي السفينة عموماً. ولكنّني أنا نفسي سأجلس إلى هذه الطاولة حتّى شروق الشمس».

وسأل إدمون: «ولماذا، يا تُرى؟»

فأجاب الفأر: «لأنّ هذه مغامرة عظيمة جدّاً، ولا يبدو لي أيّ خطر عظيماً مثل عِلمي عندما أرجع إلى نارنيا أنّني تخلّيتُ عن كشفِ سرٍّ بداعي الخوف».

فقال إدمون: «سأبقى معك، يا ريب».

وقال كاسپيان: «وأنا أيضاً».

وقالت لوسي: «وأنا كذلك».

ثمَّ تطوَّع يُسطاس أيضاً للبقاء. وقد كان ذلك منه فِعلَ شجاعةٍ عظيماً، لأنَّ عدم قراءته إطلاقاً عن مثل هذه الأُمور، أو حتّى عدم سماعه عنها قبل انضمامه إلى رُكّاب جوّابة الفجر، جعل ذلك الأمر أسوأَ له مما هو للآخرين.

وباشرَ دِرينيان يقول: «ألتمس من جلالتك...»

فقال كاسپيان: «كلّا، سيِّدي اللورد! إن مكانك هو في السفينة، وأنت اشتغلتَ طول النهار باجتهاد فيما نحن الخمسة كُنّا نسترخي متكاسلين». وحصل نقاشٌ كثير في هذا الموضوع، إلّا أنَّ رغبة كاسپيان تمَّت. وبينما انطلق الملّاحون نحو الشاطئ، وظلامُ الليل يقترب سريعاً، لم يقدر أيٌّ من الساهِرين الخمسة — ما عدا ريبيتشيب على الأرجح — أن يتجنَّب الشعور بالبَرْد في معدته.

وقد تمهَّلوا قليلاً في اختيار مقاعدهم حول الطاولة المحفوفة بالخطر. وربَّما كان السبب نفسه لدى كلٍّ منهم، ولكنَّ أيّاً منهم لم يُصرِّح به علناً. إذ كان ذلك الاختيار كريهاً إلى أبعد حدّ. فبالكادِ يتحمَّل الإنسان أن يجلس ليلاً بقرب كُتَل الشَّعر الثلاث الرهيبة، تلك التي إن لم تكُن ميِّتة فبالتأكيد لم تكُن حيَّة بالمعنى المُعتاد. ثُمَّ إنَّ جلوسَك في الطَّرَف الأقصى، حيث تقلُّ رؤيتك لهم كلَّما اشتدَّ ظلام الليل ولا تدري هل يتحرَّكون، وربَّما لَن تراهم بتاتاً حوالى الساعة الثانية ليلاً، كان أمراً مُجرَّدُ التفكير فيه مُروِّع. وهكذا أخذوا يمشون حول الطاولة ببطء مرَّةً بعد مرَّة، قائلين: «ماذا لو جلسنا هنا؟» أو «ربَّما أفضلُ أن نبتعد

قليلاً»، أو «لماذا لا نجلس في هذا الجانب؟» حتّى استقرُّوا أخيراً في الوسط تقريباً، إنَّما أقربَ إلى النائمين ممّا هم إلى الناحية الأُخرى. وكانت الساعة آنذاك قد صارت نحو العاشرة، والظلام شِبه حالِك. وقد توهَّجت مجموعات النجوم الغريبة الجديدة في الشرق بعيداً. وكان من شأن لوسي أن تستأنس بتلك النجوم على نحوٍ أفضل لو كانت مجموعتَي «الفهد» و«السفينة» وغيرهما من المجموعات الأليفة القديمة في سماء نارنيا.

ثمَّ تلفَّفوا بعباءاتهم البحريَّة، وقعدوا بلا حراك، وأخذوا ينتظرون. وجرَت في البداية بعضُ محاولاتٍ للتحدُّث، إلّا أنَّها لم تنجح كثيراً. فظلُّوا قاعدين بِلا كلام مدَّة طويلة، وهم يسمعون دائماً تكسُّرَ الأمواج على الشاطئ.

وبعد ساعات بَدَت كأنَّها دُهور، جاءت لحظة عرفوا فيها كلُّهم أنَّ النُعاس قد غلبهم قليلاً قبل هُنَيهة لكنَّهم استيقظوا كلُّهم فجأةً يقظةً كاملة. وكانت النجوم كلُّها في مواقع مختلفة تماماً عن تلك التي لاحظوها أخيراً، وقد صار الفضاء شديد السواد ما عدا بعض الضوء الرماديّ الباهت جدّاً في الشرق. وشعروا بالبرد — رُغم عطشهم — وبالتيبُّس. إلّا أنَّ أيّاً منهم لم يتكلَّم، لأنَّه آنذاك أخيراً كان شيءٌ ما يجري.

كان أمامهم، وراء الأعمدة، سفحُ تلٍّ منخفض. فإذا بباب ينفتح في جانب التلّ، وبنورٍ يظهر في المدخل، فيخرج شخص وينغلق الباب وراءه. وقد كان ذلك

الشخص يحمل ضوءاً، وكان ذلك الضوء بالحقيقة كلَّ ما استطاعوا أن يروه بوضوح. وقد تقدَّم نحوهم ببطء شيئاً فشيئاً، حتّى وقف أخيراً عند الطاولة مقابلهم تماماً. عندئذٍ استطاعوا أن يروا أنَّ الشخص هو شابَّة طويلة القامة تلبس ثوباً طويلاً واحداً، لونُه أزرق صافٍ، تبرز منه ذراعاها العاريتان. وقد كان رأسها مكشوفاً، وشعرها الأشقر يتدلَّى على ظهرها. فلمّا نظروا إليها حسبوا أنَّهم لم يعرفوا قطُّ معنى الجمال من قَبل!

أمّا الضوء الذي كانت تحمله فهو شمعة طويلة في شمعدان فضّيّ ما لبثت أن وضعته على الطاولة. وإنْ كان في أوائل اللّيل أيُّ ريح تهبُّ من البحر، فلا بدَّ أنّها سكنتِ الآن، لأنَّ لَهَب الشمعة تصّاعد مستقيماً وهادئاً كما لو كانت في غرفة مُقفلة النوافذ ومُسدَلة الستائر. وتألّق الذهب والفضّة على الطاولة في ضوئها.

عندئذٍ لاحظَت لوسي على الطاولة شيئاً مُلقًى بالطُّول لم تكُن قد انتبهت إليه قبلاً. وكان ذلك سكّيناً حجريّة، حادّة كسكّين الفولاذ، يوحي منظرها بالخشونة والقِدَم.

ولم يكُن أحدٌ قد نطق بكلمةٍ بعد. ثمَّ هبَّ ريبيتشيب واقفاً أوّلاً، وتبعه كاسبيان، ثمَّ وقف الجميع، لأنّهم شعروا بأنّهم في حضرة سيّدة عظيمة.

وقالتِ الشابَّة: «أيُّها المسافرون الذين جئتم من بعيد إلى مائدة أصلان، لماذا لا تأكلون وتشربون؟»

فأجاب كاسبيان: «سيّدتي، خِفنا من الطعام لأنّنا

حَسِبنا أنّه سبَّب لأصدقائنا نوماً سحريّاً».

قالت: «إنَّهم ما ذاقوه قطّ!»

وسألت لوسي: «رجاءً، ماذا حدث لهم؟»

فأجابتِ الشابَّة: «منذ سبع سنين، جاءُوا إلى هُنا في سفينة أشرعتها خِرَق مُمزَّقة وخشبُها يكاد يتصدَّع، وكان معهم قليلون آخرون، بعضُ البحّارة. ولمّا وصلوا إلى هذه المائدة قال أحدهم: 'ها هُنا المكان الجيِّد. لنكفَّ عن نشر الأشرعة وثنيها، وعن التجذيف، ولنقعُد ونُنهِ أيّامنا بسلام!' وقال الثاني: 'لا، بل لنركبْ متن السفينة من جديد ونُبحِر إلى نارنيا والغرب، فربّما مات ميراز.' لكنَّ الثالث — وقد كان رجُلاً بارعاً جدّاً — هبَّ واقفاً وقال: 'لا، بحقِّ السماء! نحن رجال وتِلماريّون، ولسنا وحوشاً. فماذا ينبغي أن نفعل غير طَلَب المغامرة تلو المغامرة؟ لم يبقَ لنا كثير من العُمر على كلِّ حال. فلنَقضِ بقيَّة عُمرنا في استكشاف العالَم غير المأهول وراء مشرق الشمس.' وإذ تخاصموا، التقط السكّين الحجريَّة المُلقاة هناك على الطاولة، وهمَّ بأن يُقاتِل رفيقيه. ولكنَّ هذه السكّين شيءٌ لا يحقُّ له لمسُه. وإذ أطبقت أصابعه على المِقبَض، سطا النوم العميق على الثلاثة جميعاً. ولا يمكن أن يستيقظوا أبداً إلّا عندما يُبطَل السِّحر».

وسأل يُسطاس: «وما السكّين الحجريَّة هذه؟»

فقالت الشابَّة: «ألا يعرف أحدٌ منكم ما هي؟»

أجابت لوسي: «أنا... أنا أظنُّ أنّني رأيتُ شيئاً كهذا

من قبل. فبمثل هذه السكّين قتلت الساحرة البيضاء أصلان على طاولة الحجر منذ زمان بعيد».

فقالت الشابة: «كانت هي إيّاها، وقد أُحضِرت إلى هنا للاحتفاظ بها رمزاً للإجلال ما دام العالم قائماً».

وبعدما كان الانـزعاج قد بدا على إدمون بصورة مُتزايدة في أثناء الدقائق الأخيرة القليلة، تكلّم قائلاً:

«اسمعي! أرجو ألّا أكون جباناً لعدم الأكل من هذا الطعام؛ أعني — وأنا واثق — أنّني لا أقصد أن أكون فظّاً. فنحن إنّما صادفنا كثيراً من المغامرات في رحلتنا هذه، والأمور ليست ما تبدو عليه دائماً. وعندما أنظر إلى وجهك، لا أملك إلّا أن أُصدّق كلّ ما تقولينه. إلّا أنّ هذا هو تماماً ما قد يحدث بالنسبة إلى ساحرةٍ أيضاً. فكيف نعرف أنكِ صديقة؟»

فقالتِ الشابّة: «لا يمكنكم أن تعرفوا، بل يمكنكم فقط أن تُصدّقوا أو ألّا تُصدّقوا».



وبعد لحظةٍ من الصمت، سمُع صوتُ ريبيتشيب الخافتِ وهو يقول لكاسپيان:

«مولاي، هلّا تملأ لي من فضلك كأسي نبيذاً من ذلك الإبريق! إنّه أكبرُ من أن أقوى على حمله. سأشرب نخب الآنسة الفاضلة».

فلبّى كاسپيان الطلب، ثم حمل الفأر — وهو واقفٌ على الطاولة — كأساً ذهبيّة بين مِخلبَيه الأماميَّين النحيفَين وقال: «سيّدتي، عربونَ محبّتي واحترامي!» ثمّ باشر الأكل من طاووس بارد، وبعد وقتٍ قصير حذا الجميعُ حَذوَه. فقد كان الجميع جائعين، وكانتِ المأدُبة فاخرة كعشاء متأخّر جدّاً، وإنْ لم تكُن ما ترغب فيه لِفَطورٍ باكرٍ جدّاً.

وبادرَت لوسي سائلةً: «لِماذا تُدعى هذه مائدة أصلان؟»

فأجابتِ الشابّة: «إنّها موضوعة هنا بموجب أمره، لأجل الذين يبلغون هذا المكان البعيد في سفَرهم. بعضُهم يُسمّون هذه الجزيرة 'آخِر العالم'. فمع أنّه يُمكِنكم أن تُبحِروا بعدُ من هُنا، فهذا أوّلُ آخِر العالم».

وسأل يُسطاس العمليُّ: «ولكنْ كيف يبقى الطعام محفوظاً؟»

فأجابتِ الشابّة: «إنّه يؤكل ويتجدّد كلّ يوم. وسترَون هذا».

وسأل كاسپيان: «وماذا سنفعل بشأن النائمين؟ في العالمَ الذي جاء منه أصدقائي هؤلاء، وهنا أومأ برأسه

نحو يُسطاس والپيڤِنسيِّين، تُحكى قصةٌ عن أميرٍ أو مَلِك يأتي إلى قصرٍ جميعُ مَن فيه نائمون نوماً مسحوراً. وفي تلك القصّة لا يمكنه أن يُبطِل السِّحر إلّا بتقبيل الأميرة النائمة».

فأجابت الشابّة: «ولكنّ الحال مختلفة هنا. فهُنا لا يمكنه أن يُقبِّل الأميرة إلّا بعد أن يُبطِل السِّحر».

فقال كاسپيان: «إذاً، باسْمِ أصلان، أريني كيف أبدأ هذا العمل حالاً».

أجابتِ الشابّة: «أبي سيُعلِّمك ذلك».

فقال الجميع: «أبوكِ! مَن هو؟ وأين هو؟»

فدارتِ الشابّة وأشارت إلى الباب في جانب التلّ، قائلةً: «انظروا!» ونظروا فاستطاعوا أن يروا الباب بسهولةٍ أكثر الآن، لأنّه بينما هم يتحدّثون كان ضوء النجوم قد صار باهتاً وفَجواتٌ واسعة من النور الأبيض بدأت تظهر في الفضاء الشرقيّ الرماديّ اللون.

أوّلُ آخرِ العالم

انفتح الباب ببطءٍ مرّةً ثانية، وخرج منه شخصٌ طويل القامة ومُستقيمُها كالفتاة، ولكنْ ليس بمِثل نُحولها. ولم يكُن يحمل ضوءاً، لكنّ الضوء بدا منبعثاً منه. ولمّا اقترب، رأت لوسي أنّه يُشبه رجُلاً مُسِنّاً. وقد كانت لحيتُه الفضّيّة تصل إلى قدمَيه الحافيتين من الأمام، وشعرُه الفضّيُّ يتدلّى حتّى عَقِبَيه من الوراء، وبدا أنّ رداءه مصنوع من صوف الخِراف الفضّيّ. وقد بدا الرجُل دَمِثاً ورزيناً جدّاً بحيث هبَّ المسافرون كلُّهم وقوفاً صامتين.

إلّا أنّ الشيخ تقدّم بغير أن يُكلِّم المسافرين ووقف عند الجانب الآخر من الطاولة مقابل ابنته. ثمّ مدَّ كِلاهما أذرعهما أمامهما ودارا كي يواجها الشرق. وفي وضعهما ذاك بدأا يُغنّيان. وكنتُ أتمنّى لو أقدر أن أكتب كلمات الأُغنية. إلّا أنّ أيّاً من الحاضرين لم يستطع أن يتذكّرها. وقد قالت لوسي في ما بعد إنّها كانت عالية، بل حادّة تقريباً، لكنْ جميلةً جدّاً: «أُغنية من النوع الهادئ، كأغاني الصباح الباكر». وبينما هما يُغنّيان، انزاحت الغيوم

الرماديّة عن الفضاء الشرقيّ وأخذت الرُّقَع البيضاء تكبر وتكبر حتّى صار كلّه أبيض، وبدأ البحر يتألّق كالفضّة. وبعد ذلك بوقت طويل (وقد ظلّا يُغنّيان باستمرار) بدأ الشرق يحمرّ، وأخيراً – بلا غيوم – طلعت الشمس من البحر، وترامت أشعّتُها الطويلة فوق الطاولة كلّها على الذهب والفضّة والسكّين الحجريّة.

كان النارنيانيّون، مرّةً أو مرّتين من قبل، قد تساءلوا عن الشمس هل ظهرت عند شروقها في تلك البحار أكبر منها في ديارهم. ولكنّهم هذه المرّة تأكّدوا من ذلك. فلم يكن شكٌّ في ذلك الآن. ثمّ إنّ تألّق أشعّتها على النّدى وعلى الطاولة كان أكثر بهاءً وضياءً بكثير جدّاً من أيّ صباح مُشرِق سبق أن رأوه على الإطلاق. وقد قال إدمون في ما بعد: «رغم حدوث أشياء كثيرة في هذه الرحلة تبدو أكثر تشويقاً، فإنّ تلك اللحظة كانت بالفعل هي الأكثر تشويقاً». ذلك أنّهم عرفوا الآن أنّهم قد وصلوا حقّاً إلى أوّل آخِر العالم.

ثمّ بدا أنّ شيئاً ما يطير نحوهم منطلقاً من قلب الشمس الشارقة تماماً، ولكنّ المرء لا يمكنه بالطبع أن ينظر إلى ذلك الاتّجاه على نحوٍ ثابت حتّى يعرف ما هو ذلك الشيء حقّاً. غير أنّ الهواء ما لبث أن ردّد أصداءَ أصواتٍ غمرت أرجاءه، وهي أصواتٌ شاركت في الأغنية عينها التي كانت تلك السيّدة ووالدُها يُغنّيانها، إنّما بألحانٍ أعجب بكثير، وبلغةٍ لم يعرفْها أحد. وبُعيدَ ذلك تمكّنوا من

رؤية أصحاب تلك الأصوات. فقد كانت طيوراً، كبيرةً وبيضاء، وقد جاءت بالمئات والأُلوف وحطّت على كلّ شيء: على العُشب، وعلى الأرضيّة المرصوفة، وعلى الطاولة، وعلى كتفَيك ويدَيك ورأسك، حتى بدا كأنّ ثلجاً ثقيلاً قد تساقط. فإنّ تلك الطيور، شأنّها شأنُ الثلج، جعلت كلّ شيءٍ أبيض، إلّا أنّها شوّهت وأفسدتْ كلّ شكل. ولكنّ لوسي، إذ نظرت من بين أجنحة الطيور التي حطّت عليها بكثرة، شاهدَت طائراً يطير نحو الشّيخ وفي مِنقاره شيءٌ بدا شبيهاً بثمرة صغيرة، إلّا إذا كان جمرةً صغيرة متوهّجة، وكان ممكناً أن تكون كذلك لأنّها كانت تبهر الأنظار. ثمّ وضع الطائر ذلك الشيء في فم الشيخ.

بعدئذٍ توقّفت الطيور عن غنائها، وبدا أنّها مشغولة جدّاً عند الطاولة. ولمّا غادرتِ المائدة، كان كلّ ما يؤكل أو يُشرب عليها قدِ اختفى. ثمّ نهضت تلك الطيور من وليمتها، بآلافها ومئاتها، وحملت إلى البعيد كلّ ما لا يمكن أن يؤكل أو يُشرب، كالعظام والقشور والبقايا، وعادت طائرةً رجوعاً إلى الشمس الشارقة. ولكنْ لأنّها لم تكن تُغنّي الآن، بدا أنّ طنين أجنحتها جعل الهواء كلّه يرتعش. وقد بقيت هناك الطاولةُ نظيفةً وفارغة بعدما التقطَتِ الطيور كلّ ما كان عليها، ولوردات نارنيا الثلاثة ما يزالون يغطّون في نومهم العميق.

عندئذٍ التفت الشيخ أخيراً إلى المسافرين ورحّب بهم. فقال له كاسپيان:



«سيّدي، هلاّ تقول لنا كيف نُبطِل السّحر الذي يُبقي هؤلاء اللوردات النارنْيانيّين الثلاثة في قبضة النوم؟»

فأجاب الشيخ: «سأقول لك ذلك بسرور، يا بُنيّ. فلِكي تُبطلوا هذا السّحر، يجب عليكم أن تُبحِروا إلى

آخِر العالم، أو إلى أقرب مكان منه يمكنكم الوصول إليه، وعليكم أن ترجِعوا بعد أن تتركوا هناك واحداً من ملاّحيكم على الأقلّ».

وسأل ريبيتشيب: «وماذا يجب أن يحدث لذلك الواحد؟»

«يجب أن يتقدَّم إلى قلب الشرق الأقصى ولا يرجع أبداً إلى العالم».

فقال ريبيتشيب: «هذه مُنية قلبي».

وسأل كاسپيان: «أونحن الآن بقرب آخِر العالم، يا سيّد؟ ألديك أيُّ عِلمٍ بالبحار والأراضي التي تبعد إلى الشرق أكثر من هذا المكان؟»

فأجاب الشيخ: «لقد رأيتُها منذ زمنٍ بعيد، ولكنَّ ذلك كان من علوٍّ شاهق. ولا يمكنني أن أُخبركم بالأمور التي ينبغي أن يعرفها الملاّحون».

فاندفع يُسطاس قائلاً: «هل تعني أنّك كنتَ طائراً في الهواء؟»

وأجاب الشيخ: «كنتُ أعلى بكثير جدّاً فوق الهواء، يا بُنيّ. فأنا رَمَندو. إنّما أرى أنّكم تُحدِّقون بعضكم إلى بعض وأنّكم لم تسمعوا هذا الاسم قبلاً. ولا عجب، لأنَّ الأيّام التي فيها كنتُ نجماً قد انقضت قبل زمانٍ طويل من تعرُّف أيٍّ منكم بهذا العالم، وجميع أبراج النجوم قد تغيَّرت».

وتمتم إدمون همساً: «عجباً! إنّه نجم متقاعد!»

ثمَّ سألت لوسي: «ألَم تعُد نجماً؟»

فأجاب رَمَندو: «أنا نجم في استراحة، يا بُنيَّتي. فعندما غِبتُ آخِر مرَّة، وقد استبدَّ بي العجز والهرم فوق كلّ ما يمكنكم أن تتصوَّروا، حُمِلتُ إلى هذه الجزيرة. وأنا لستُ الآن عجوزاً كما كنتُ آنذاك. ففي كلّ صباح يأتيني طائرٌ بثمرةٍ من تُوتِ النار، من الأودية التي في الشمس، وكلُّ تُوتةِ نارٍ تُزيل قليلاً من شيخوختي. وعندما أصير كالطفل الذي وُلِد يومَ أمس، عندئذٍ أستأنف طُلوعي من جديد (لأنّنا على حافة الأرض الشرقيَّة) فأعود مجدَّداً إلى جولات رقصتي العُظمى».

وقال يُسطاس: «النجم في عالَمِنا كُرَة هائلة من الغاز المشتعل».

«حتَّى في عالَمِكم، يا بُنيّ، ليست تلك حقيقة النجم، بل هي فقط مادَّته. وفي هذا العالم سبق لكم فعلاً أن قابلتُم نجماً، إذ أظنُّ أنكمُ الْتقيتُم كُرياكِن».

فسألت لوسي: «أهو أيضاً نجمٌ متقاعد؟»

أجاب رَمَندو: «حسناً، ليس تماماً. فلم تكن إقامته على حُكم الدفَّافين إراحةً له في الواقع. يصحُّ أن تدعُوا ذلك عقاباً. فقد كان ممكناً أن يظلَّ ساطعاً آلاف السنين في سماء الشتاء الجنوبيَّة لو سار كلُّ شيء كما يُرام».

وسأل كاسپيان: «ماذا فعل، يا سيِّد؟»

أجاب رَمَندو: «يا بُنيّ، ليس لك — وأنتَ واحدٌ من أبناء آدم — أن تعرف أيَّة أخطاء يمكن أن يرتكبها نجمٌ

ما. ولكنْ هيَّا! إنَّنا نضيِّع وقتنا في هذا الحديث. أحسَمتم أمرَكُم الآن؟ هل تُبحِرون متوغّلين نحو الشرق، ثم تعودون تارِكين واحداً لن يرجع أبداً، وبهذا تُبطِلون السحر؟ أم هل تُبحِرون غرباً؟»

فردَّ ريبيتشيب: «حتماً، سيدي، لا شكَّ في الأمر! فواضحٌ تماماً أنَّ مطلبنا يشمل إنقاذ هؤلاء اللوردات الثلاثة من قبضة السِّحر».

وأجاب كاسپيان: «هذا هو ما أُفكِّر فيه تماماً، يا ريبيتشيب. حتَّى لو لم يكُن هذا هو واقعَ الحال، فإنَّ قلبي سيغتمُّ كثيراً إن كنَّا لا نصل إلى أقرب نقطة من آخِر العالم تقدر جوّابةُ الفجر أن تحملنا إليها. غير أنَّني أُفكِّر في البحَّارة. فهُم قد انضمُّوا إلى رحلتنا بحثاً عن اللوردات السبعة، وليس للوصول إلى طرف الأرض الأقصى. وإن أبحرنا شرقاً من هُنا نُبحِر للوصول إلى حافَةِ العالَم، إلى أقصى الشرق. ولا أحد يعرف كم يبعد ذلك عنّا. إنَّهم رجالٌ شُجعان، ولكنَّني ألمح ما يوحي أنَّ بعضهم قد تعبوا كثيراً من الرحلة ويتشوَّقون إلى توجيه مُقدَّمنا نحو نارنيا من جديد. فلا أعتقد أنَّه ينبغي لي أن آخُذَهم إلى مكانٍ أبعد بغير معرفتهم وموافقتهم. ثُمَّ هنالك اللورد رُهُوب المسكين، فهو رجلٌ مُحطَّم».

فقال النَّجم: «يا بنيّ، لن يكون أيُّ خير — حتَّى لو رغبتَ أنت — في الإبحار طلباً لبلوغ آخِر العالم مع رجالٍ غير راغبين، أو مخدوعين. فلا يتم إبطال العظيمة بهذه

الطريقة. فيجب أن يعرفوا إلى أين هم ذاهبون ولماذا. ولكنْ مَن هو ذلك الرجل المُحطَّم الذي ذكرتَه؟»

وروى كاسپيان لرَمَندو قِصَّة رُهوب. فقال رَمَندو:

«يمكنني أن أُزوِّده بما يحتاج إليه أشدَّ حاجة. ففي هذه الجزيرة نومٌ بلا قيدٍ ولا حدّ، نومٌ لم يُسمَع فيه قطّ وتخلو من أيّ حلمٍ تماماً. فليقعد إلى جانب هؤلاء الثلاثة الآخرين ويتجرَّعِ النسيان حتّى رجوعكم».

فقالت لوسي: «حسناً، فلنفعل ذلك يا كاسپيان. أنا متأكّدة أنّ ذلك هو ما يتمنّاه تماماً».

وفي تلك اللحظة قاطعهم ضجيجُ عدّة أقدامٍ وأصوات. إذ إنّ درينيان وباقي ملّاحي السفينة كانوا يتقدّمون نحوهم. وقد وقفوا مشدوهين لمّا شاهدوا رَمَندو وابنته. ثمّ كشف كلّ رجُلٍ عن رأسه، إذ بدا واضحاً أنّهم في حضرة شخصين عظيمَين. ورمق بعضُ البحّارة الصحونَ والأباريق الفارغة على الطاولة بأسفٍ وحسرة.

وقال كاسپيان لدِرينيان: «سيّدي اللورد، أرجو أن تبعث رجُلَين رجوعاً إلى جوّابة الفجر برسالةٍ إلى اللورد رُهوب. وليقولا له إنّ آخِر رُفقاء سفره نائمون هنا — نوماً بلا أحلام — وإنّه يستطيع أن يُشارِكهم فيه».

وعندما تمّ ذلك، طلب كاسپيان من باقي البحّارة أن يجلسوا، وعرض عليهم الوضْع كلّه. ولمّا انتهى، خيّم صمتٌ طويل وقليلٌ من التهامُس، إلى أن هبّ قائدُ المُجذِّفين واقفاً وبادر قائلاً:

«ما بَرِح كثيرون منّا، يا صاحب الجلالة، راغبين منذ وقتٍ طويل في أن يسألوا كيف يمكننا أن نرجع إلى ديارنا عندما ننعطف للعودة، سواءٌ انعطفنا هُنا أو في أيّ مكانٍ آخر. ولطالما كانت الرياح غربيّة وشماليّة غربيّة، يتخلّلها هدوء من حين إلى آخر. وإن لم يتغيّر هذا الوضع، فإنّي أرغب أن أعرف أيّة آمال لدينا برؤية نارنيا من جديد. فليس من إمكانيّة كبيرة بأن تكفينا المؤونة فيما نُجذِّف طوال رحلة العودة».

فقال دِرينيان: «هذا حديثُ أهْل البَرّ! ففي هذه البحار تسود الرياح الغربيّة دائماً حتّى أواخر الصيف، ثمّ يتغيّر الوضع دائماً بعد رأس السنة. وسوف تتوافر لنا رياح كثيرة للإبحار غرباً، أكثر ممّا قد نرغب فيه، وممّا نعرفه من أيةِ رواية».

وقال بحّار عتيق كان غالْمِيّاً بالولادة: «ذلك صحيح، يا سيّدي. فإنّنا نتلقّى طقساً عاصفاً جدّاً من جهة الشرق في شهري كانون الأول وشباط (يناير وفبراير). ومن بعد إذن جلالتك، يا مولاي، لو كنتُ أنا أتولّى قيادة هذه السفينة لأشرتُ بأن نقضيَ الشتاء هنا، ثمّ نبدأ رحلة العودة إلى الديار في آذار (مارس)».

وسأل يُسطاس: «وماذا تأكلون وأنتم تقضون فصل الشتاء هنا؟»

فأجاب رَمَندو: «هذه الطاولة ستمتلئ بمأدبة الملك كلّ يوم عند الغروب».

وقال عددٌ من البحّارة: «هذا كلام!»

ثمَّ قال راينِلف: «يا ذوي الجلالة، وجميعَ مَن هُنا من سادة وسيِّدات، عندي أمرٌ واحد أودُّ أن أقوله. ليس من واحدٍ منّا، نحن الرجال، أُجبِرَ قَسراً على القيام بهذه الرحلة. فنحن متطوّعون. وها هنا قومٌ ينظرون إلى هذه المائدة بشوق ويفكّرون في مآدب الملوك ممَّن كانوا يتحدَّثون بأعلى صوتهم عن المغامرات يومَ أقلعنا من كيرپراڤيل وحلفوا أنَّهم لن يرجعوا قبل أن نجد آخِر العالَم. وقد وقف بعضٌ على رصيف الميناء مِمَّن كانوا مستعدِّين لبذل كلّ ما يملكونه حتَّى يُرافِقونا. آنذاك حُسِب الحصول على مرقد غُلام سفينة على ظهر جوّابة الفجار أمراً أفضل من لبْس حزامِ فارس. لستُ أدري هل فهمتم مغزى كلامي. ولكنَّ ما أقصده هو أنّني أعتقد أنَّ رجالاً مثلنا ممَّن يركبون البحر لا بدَّ أن يَظهروا سُخفاء مثلَ — مثلَ أولئك الدَّفادِم — إذا رجعنا إلى ديارنا وقُلنا إنَّنا وصلنا إلى أوَّلِ آخِرِ العالم وأعوزَتنا الشجاعة للمُضيِّ إلى الأمام».

وأبدى بعض البَحارة ابتهاجهم بذلك، فيما قال آخرون إنَّ الأمر الآخر حسن جدّاً.

فهمس إدمون في أُذن كاسپيان: «لَن يكونَ الأمر مُمتِعاً جدّاً. فماذا عسى أن نفعل إذا تردَّد نصف هؤلاء الرجال؟»

وردَّ كاسپيان هامساً: «مهلاً، ما زالت بيدي ورقة ألعبُها».

وهمست لوسي: «ألن تقول شيئاً، يا رِيب؟»

فأجاب ريبيتشيب بصوتٍ سمعه مُعظمُهم: «لا! ولماذا تتوقَّعين جلالتُكِ ذلك؟ إنّي قد رسمتُ خُططي. فما دام ذلك مُمكِناً، فسأبحِر شرقاً في جوّابة الفجر. وعندما تخذلني، أُجَذِّف إلى الشرق في قُرقِلي. وحينما يغرق، أسبح شرقاً بمخالبي الأربعة. وعندما لا أعود قادراً على السباحة، فإذا لم أكُن قد وصلتُ إلى بلَد أصلان، أو قذفَني من فوق حافَة العالم شلّالٌ غزير، أغرق ووجهي نحو مشرق الشمس، فيصير بيبيسيك رئيساً للفئران الناطقة في نارْنيا».

وقال أحد البحّارة: «اسمعوا، اسمعوا! إنّني أقول القول نفسَه، حاذفاً ما يتعلَّق بالقُرقِل، لأنَّه لَن يحملني».

ثمَّ أضاف بصوتٍ أوطأ: «لن أقبل أن يغلبني فأر!»

عندئذٍ هبَّ كاسپيان واقفاً، وقال: «يا أصحاب، أظنُّ أنَّكم لم تفهموا تماماً قصدنا. فأنتم تتكلَّمون وكأنَّنا جئنا إليكم مادِّين أيدينا نستعطي ملّاحين! ليس الوضع هكذا أبداً. فنحنُ وأخونا وأختنا الملوكيّان ونسيبُهما والسيِّد ريبيتشيب، الفارس الصالح، واللورد دِرينيان، نقوم برحلةٍ مَهمَّة إلى طرَف العالم. ويسرُّنا أن نختار من بينكم مَن هم راغبون ممَّن نحسبهم أهلاً لهذه المَهمَّة السامية جدّاً. ولم نقُل إنَّ أيّاً منكم يمكن أن يُقدِّم نفسَه ليُطلَب رأيُه. لهذا آمُر الآن اللورد دِرينيان والسيِّد رِنْس بأن يفكِّرا بدقّةٍ أيُّ رجال بينكم هم الأشدُّ في القتال،

والأمهر في ركوب البحر، والأشرف نَسَباً، والأكثر ولاءً لشخصنا، والأنقى سيرةً وأخلاقاً؛ وأن يُقدِّما إلينا أسماءهم في جدول». وبعدما توقّف هُنيهةً، تابع يقول بلهجةٍ أسرع وأعلى: «ورأسِ أصلان! أتظنّون أنّ امتياز رؤية الأمور الأخيرة يُشترَى بأغنية؟ حقّاً إنّ كلّ رجُلٍ منكم يُرافقنا سوف يُورِّث ذُرّيّته كُلّها لقَب جوّابة الفجر الشريف. وعندما ننزل في كَيرپرافيل في آخِر رحلة العودة، فسيكون عنده من الذهب أو الأراضي ما يكفي لأنْ يجعله غنيّاً طوال عمره. والآن، تفرّقوا على الجزيرة كلّكم! وفي ظرف نصف ساعة، سأتلقّى الأسماء التي يُحضِرها إليّ دِرينيان».

ثم خيّم صمتٌ يغلب عليه الارتباك، بعدَه أدّى البحّارة انحناءاتهم ومضَوا، كلٌّ إلى جهة، إنّما معظمُهم في جماعاتٍ قليلة العدد، وهم يتحادثون.

وقال كاسپيان: «والآن، إلى اللورد رُهوب!»

إلّا أنّه التفت إلى رأس الطاولة فرأى أنّ رُهوب هناك فعلاً. فإنّه كان قد وصل بصمت دون أن يلاحظه أحد فيما كان النِقاش جارياً، وأُجلِس إلى جانب اللورد أرغوز. وقد وقفَتِ ابنةُ رَمَندو بقربه كما لو كانت قد ساعدته توّاً في الجلوس على كُرسيّه، ووقف رَمَندو وراءه، وكِلتا يديه على رأس رُهوبَ الأشيَب. وقد انبعث من يَدَي النجم، حتّى في وَضَح النهار، ضوءٌ فضّيٌّ باهت. وعَلَتِ ابتسامةٌ وجهَ رُهوب المهزول، ومدّ إحدى يديه إلى لوسي، والأُخرى

إلى كاسپيان. وبدا لحظةً كأنّه هَمّ بأن يقول شيئاً. ثمّ أشرقتِ ابتسامتُه وكأنّه يشعر بإحساس مُبهج، وانطلقت من بين شفتيه تنهُّدةُ رضًى طويلة، ونكّس رأسه إلى الأمام، ونام.

فقالت لوسي: «يا لرُهوبَ المسكين! أنا مسرورة بشأنه. فلا بدّ أنّه مرّ في أوقات عصيبة رهيبة».

وقال يُسطاس: «لا نُفكّرَنّ في ذلك مجرّد تفكير!»

في تلك الأثناء كانت خطبة كاسپيان قد أخذت تأتي بمفعولها الذي قصده منها، وربّما ساعدها على ذلك شيءٌ من سحر الجزيرة. فإنّ كثيرين ممّن كانوا متلهّفين للاستعفاء من الرحلة استاؤوا تماماً من إعفائهم منها. وبالطبع، كلّما أعلن أحد البحّارة أنّه قرّر أن يطلب الإذن بالإبحار، شعر الذين لم يفعلوا ذلك أنّهم يقلّون عدداً ويزدادون ارتباكاً. حتّى إنّه قبل انتهاء نصف الساعة تقريباً كان بضعة أشخاص يتملّقون درينيان ورنْس تملُّقاً حتّى يقدّما عنهم تقريراً جيّداً. وسرعان ما تبقّى فقط ثلاثةُ أشخاص ممّن لم يريدوا الذهاب، وأخذ هؤلاء الثلاثة يحاولون جاهدين أن يُقنِعوا آخرين بالبقاء معهم. وبُعيدَ ذلك بقي واحدٌ فقط. وفي الأخير بدأ هو أيضاً يخشى أن يُترك وحده، فغيّر رأيه.

وعند انتهاء نصف الساعة عادوا جميعاً مندفعين نحو مائدة أصلان، ووقفوا جانباً فيما تقدّم دِرينيان ورِنْس وقعدا مع كاسپيان وقدّما إليه التقرير، فقبل كاسپيان

جميع الرجال ما عدا ذلك الذي غيَّر رأيه في آخِر لحظة. وقد كان اسمه بِتنكْرِم، وظلَّ في جزيرة النجم طوال المدَّة التي مضى الآخرون فيها للبحث عن آخِر العالَم، وتمنّى كثيراً لو ذهب معهم. فإنّه لم يكن من نوع الرجال الذين يمكنهم أن يتمتَّعوا بمحادثة رَمَندو وابنة رَمَندو (كما لم يرُقهما أن يتحدَّثا هما إليه)؛ وقد سقطت كميّات كثيرة من المطر. ورُغم وجود وليمة فاخرة على المائدة كلَّ مساء، فإنّه لم يتمتّع بذلك كثيراً. وقد قال إنَّ جلوسه هناك وحده (وتحت المطر الذي زاده انزعاجاً)، وأولئك اللوردات الأربعة نائمون في أقصى الطاولة، أوقع في نفسه شعوراً بالرَّهبة والوحشة.

ولمّا رجع الآخرون، شعر بِتنكْرِم بأنّه في غير موضعه تماماً، حتّى إنّه تركهم عند رحلة العودة إلى الديار في الجزر المنفردة، ومضى وأقام في كالورمِن، حيث مضى يحكي قصصاً عجيبة عن مغامراته عند آخِر العالم حتّى صدَّقها هو نفسُه أخيراً. وهكذا يمكنك أن تقول، بمعنًى من المعاني، إنّه عاش سعيداً بعد ذلك دائماً. غير أنّه لم يكُن ليُطيقَ الفئران إطلاقاً.

ولنعُد إلى عشيّة انطلاق جوّابة الفجر نحو آخِر العالم. ففي تلك الليلة، أكل الجميع وشربوا معاً حول المائدة العظيمة بين الأعمدة، حيث جُدِّدتِ المائدة بطريقة سحريّة. وفي صباح الغد أبحرت جوّابة الفجر من جديد تماماً بعد مجيء الطيور وذهابها من جديد.



وقال كاسبيان: «سيِّدتي، أرجو أن أُكلِّمكِ ثانيةً بعد إبطال مفاعيل السحر». فنظرتِ ابنةُ رَمَندو إليه وابتسمت.

الفصل الخامس عشر

عجائبُ البحر الأخير

بعد مدَّة قصيرة من مغادرتهم بَلَد رَمَندو، بدأوا يشعرون بأنَّهم قد أبحروا فعلاً إلى ما وراء العالم. فقد كان كلُّ شيء مختلفاً. إذ إنَّهم، من جهة، وجدوا كلُّهم أنَّهم يحتاجون إلى وقتٍ من النوم أقلَّ من المعتاد. ولم يكُن الواحد منهم يرغب في النوم، ولا في الأكل كثيراً، ولا حتّى أن يتحدَّثوا إلّا بصوتٍ خافت. ومن جهةٍ أُخرى، كان الضوء مُذهِلاً، لأنَّه كان غزيراً جدّاً، وقد بدت الشمس، عند شروقها كلَّ صباح، أكبر بمرَّتين — إن لم يكن بثلاث مَرات — من حجمها المألوف. وكانت جميع الطيور البيضاء الكبيرة في كلِّ صباح تتدفَّق فوق رؤوسهم ثمَّ تتوارى خلف مؤخَّر السفينة في طريقها إلى مائدة أصلان، وهي تُغنّي أُغنيتها بأصواتٍ بشريَّة في لُغةٍ لم يعرفها أحد (الأمرُ الذي بمُجمله بعث لدى لوسي أعجب شعورٍ بين الجميع). وبعد وقتٍ قصير كانت الطيور ترجع طائرةً إلى أن تختفي في قلب الشرق.

وبينما كانت لوسي مُنحنيةً فوق حاجز الميمنة في عصر

النهار الثاني، قالت لنفسها: «ما أجمل صفاء المياه!»

وقد كانت كذلك فعلاً. وكان أوَّل أمر لاحظته شيئاً أسود صغيراً، بحجم فردة حذاء تقريباً، يُواكِب السفينة بمثل سُرعتها. فتصوَّرت أوَّلَ وهلة أنَّه شيءٌ يطفو على سطح المياه. ولكنْ بعد قليل لاحظت لوسي قطعة خبز عَفِنة كان الطبّاخ قد رماها توّاً من مطبخ السفينة. وبدا كأنَّ قطعة الخبز تلك ستصطدم بذلك الشيء الأسود، ولكنَّها لم تصطدم به، بل مرَّت من فوقه، وتبيَّن للوسي أنَّ الشيء الأسود لا يمكن أن يكون على سطح الماء. ثمَّ صار ذلك الشيء الأسود فجأة أكبر حجماً بكثير جدّاً، قبل أن يرجع إلى حجمه الطبيعيِّ بعد لحظةٍ.

عندئذٍ أدركت لوسي أنَّه سبق لها أن رأت شيئاً مثل ذلك تماماً يحدث في مكانٍ آخر، إلّا أنَّها تمنَّت فقط لو تتذكَّر أين. ثمَّ أسندت رأسها بيدها وعبَّست ومدَّت لسانها من فمها مُحاوِلةً أن تتذكَّر. وأخيراً تذكَّرت! طبعاً، كان ذلك مثل ما تراه من نافذة قطار في يومٍ مُشمِس. إذ إنَّك ترى الظلَّ الأسود الذي تنشره عربة القطار التي أنت فيها يجري على طول الحقول بمثل سرعة القطار. وبعد ذلك يدخل القطار نفقاً غير مسقوف، وفجأةً يقترب الظلُّ نفسُه إليك ويكبر كثيراً فيما يركض على طول العشب الذي يكسو ضفَّة النفق. ثمَّ يخرج القطار من النفق المكشوف، وإذا بالظلِّ الأسود يرجع مرَّة أُخرى إلى حجمه الطبيعيِّ ويجري على طول الحقول.

فقالت لوسي: «هذا ظِلُّنا! ظلُّ جوّابة الفجر. إنَّه ظلُّنا يجري على قعر البحر. فعندما يكبر، يكون جارياً على تلَّة. ولكنْ في هذه الحالة لا بُدَّ أن يكون الماء أصفى مّما حسبتُ. يا لَلرَّوعة! لا بدَّ أنّني أُشاهد قاع البحر عبر قاماتٍ وقاماتٍ من الأعماق».

وحالما قالت ذلك، تبيَّن لها أنَّ السطح الفضّيَّ العظيم الذي كانت تراه (بغير أن تُلاحِظ) إنَّما كان رمال قاع البحر، وأنَّ جميع تلك الرُّقَع ذات الألوان القاتمة أو الزاهية لم تكُن أضواءً أو ظِلالاً على سطح المياه، بل كانت أشياءَ حقيقيَّة على القاع. فمثلاً، في تلك اللحظة كانت السفينة، تمرُّ فوق كتلة ذات لونٍ أخضرَ أُرجوانيٍّ ناعم، في وسطها حزامٌ مُتعرِّجٌ ذو لون رماديٍّ باهت. ولكنَّها إذ عرفت أنَّ ذلك الشيء هو في القعر، تمكَّنت من رؤيته بصورة أفضل جداً. فقدِ استطاعت أن ترى أنَّ أجزاءً من الكُتَل القاتمة كانت أعلى بكثير من الأجزاء الأُخرى، وكانت تتموَّج تموُّجاً خفيفاً. وقالت لوسي: «هذا يُشبِه تماماً الأشجار إذ تحرّكها الرِّيح. وأنا أعتقد أنَّ هذه هي حقيقتها: غابة تحت مياه البحر!»

ثمَّ مرَّت السفينة فوق «الغابة البحريَّة»، وفي الحال اتَّصلت الخطوط الباهتة بعضُها ببعض، ففكَّرت لوسي: «لو كنتُ هُناك في الأسفل، لبدا ذلك الخطُّ تماماً مثل طريق وسط الغابة. وذلك المكان الذي فيه يتَّصل بالآخر، هو مُلتَقى طُرق. يا ليتني هناك! ما هذا؟ إنَّ الغابة تنتهي.

وأنا أعتقد أنَّ الخطَّ كان بالحقيقة طريقاً! ما زال بإمكاني أن أراه يستمرُّ عبر الرمال المنظورة، وهو ذو لون مختلف. كما أنَّه مُعلَّم بشيء عند حافتَيه: بخطوط مُنقَّطة، لعلَّها حجارة. ثُمَّ إنَّه يزداد عرضاً الآن».

غير أنَّه لم يكُن في الواقع يزداد عرضاً، بل كان يزداد قرباً. وقد أدركت لوسي ذلك من الطريقة التي بها اندفع ظلُّ السفينة مُقبِلاً نحوها بسرعة. ثمَّ إنَّ الطريق — وقد باتت متأكِّدةً الآن أنَّها طريق — بدأت تتعرَّج تعرُّجاً كثيراً. فمن الواضح أنَّها كانَتْ تصعد تلاًّ شديد الانحدار. وعندما أدارت رأسها ونظرت إلى الوراء، كان ما رأته شبيهاً جداً بما تراه حينما تنظر إلى طريقٍ متعرِّج من على قِمَّة جبل. حتّى إنَّها استطاعت أن ترى أشعَّة الشمس تخترق المياه العميقة لتترامى على الوادي المليء بالشجر، وكلُّ شيء في البعيد البعيد يتلاشى في اخضرارٍ باهت. ولكنَّ بعض الأماكن — تلك التي يُصيبها ضوء الشمس كما تصوَّرت — كانت زرقاء زُرقةً لازَوَرديَّة.

ولكنَّها لم تستطيع أن تبقى وقتاً طويلاً ناظرةً إلى الوراء. فإنَّ ما كان يتكشَّف لعينيها من الأمام كان مشوِّقاً جدّاً. فقد بدا أنَّ الطريق وصلت الآن إلى قمَّة التلَّة وتقدَّمت مباشرةً إلى الأمام، وظهرت بُقَع صغيرة تتحرَّك عليها ذهاباً وإياباً. ثمَّ إنَّ شيئاً عجيباً جدّاً (من حُسنِ الحظّ تحت ضوء الشمس العارم، أو أقصى ما يمكن أن يصله الضوء عبر قاماتٍ كثيرة من المياه) برز للعِيان فجأةً. وقد كان ذا عُقَد

وشقوق، وذا لونٍ لؤلؤيٍّ أو ربّما عاجيّ. وكانت هي فوقه مُباشرة تقريباً بحيث صعب عليها أوّلاً أن تحزر ما هو. ولكنّ كلّ شيء توضّح لمّا تأمّلت ظلّه. فإنّ ضوء الشمس كان يترامى من فوق كتفَي لوسي، بحيث انتشر ظلُّ ذلك الشيءِ على الرمال وراءه. ومن شكله تبيّنَ لها بوضوح أنّه ظلُّ أبراج وقلاع وقباب ومنائر.

فقالت لوسي لنفسها: «عجباً!... إنّها مدينة أو قصرٌ ضخم. ولكنْ لماذا، يا تُرى، هي مَبنيّة على قمّة جبلٍ عالٍ؟»

وبعد ذلك بزمن طويل، لمّا رجعت إلى إنكلترة وكانت تتحدّث مع إدمون عن هذه المغامرات، فكّرا بسببٍ أنا متأكّد تماماً أنّه السبب الحقيقيّ. فكلّما نزلْتَ في البحر مسافةً أعمق، يزداد الظلام ويشتدُّ البرد، وهناك في الأعماق — في الظلام والبرد — تعيش الكائنات الخطرة، حبّار البحر وأفعى البحر والكَركَن (وحش البحر الخُرافيّ). فالأودية هي الأماكن البرّيّة الخَطِرة. وأهل البحر يخشون أوديتهم كما نخشى نحن الجبال، ويأنسون إلى جبالهم كما نأنس نحن إلى الأودية. ففي الأعالي (أو كما قد نقول نحن «في الأودية») يجدون الدفء والسكِينة. كما أنّ الصيّادين المُجازفين والفرسان الشجعان من أهل البحر يهبطون إلى الأعماق طلباً للطرائد والمغامرات، ولكنّهم يرجعون ليبيتوا في الأعالي طلباً للراحة والأمان، والمؤانسة والمشاورة، والرياضة والرقص والغناء.

وبعدما جاوزَتِ السفينةُ المدينةَ، بقي قاع البحر مرتفعاً، حتّى بات العمق بضع مئاتٍ من الأقدام فقط تحت السفينة، وقد اختفت الطريق. وقد باتوا يُبحِرون فوق أراضٍ مكشوفة تشبه المتنزهات، تتوزّع فيها هُنا وهناك بساتين من الخُضرة الزاهية الألوان. عندئذٍ كادت لوسي تصرخ عالياً من فرط تشوّقها، إذ إنّها رأت بعضاً من أهل البحر.

كان هنالك ما بين خمسة عشر وعشرين من أولئك القوم، وكلُّهم يمتطون أفراسَ بحر، لا مثل فرس البحر الصغير الضئيل الذي ربّما شاهدت مثله في أحد المتاحف، بل أفراساً أكبر من راكِبيها أنفُسِهم. ولا بدّ أنّهم كانوا قوماً من النبلاء والسادة الشُرَفاء، كما حسبَت لوسي لأنّها استطاعت أن تلمح بريق الذهب على جِباه بعضهم، وقُصاصاتٍ زُمرُّديّة اللون أو برتقاليّة تُرفرِف من أكتافهم في تيّار الماء. ثمّ ما لبثت لوسي أن قالت: «آه، أُفٍّ من هذا السمك!» ذلك لأنّ فوجاً كاملاً من السمك الصغير السمين، كان يسبح تحت سطح الماء تماماً، اعترض بينها وبين أهل البحر. ولكنّ ذلك، رغم إفساده لرؤيتها، أدّى إلى أكثر الأشياء تشويقاً. فإنّ سمكة مفترسة صغيرة من نوع لم يسبق أن رأت لوسي مثله اندفعت إلى الأعلى كالسهم ثمّ أطبقت فكّيها على إحدى السمكات السمينة والتقتطها وغاصت بها بسرعة. وكان أهل البحر كلُّهم مُمتطين أفراسهم ومُحدّقين إلى ما جرى. وبدا

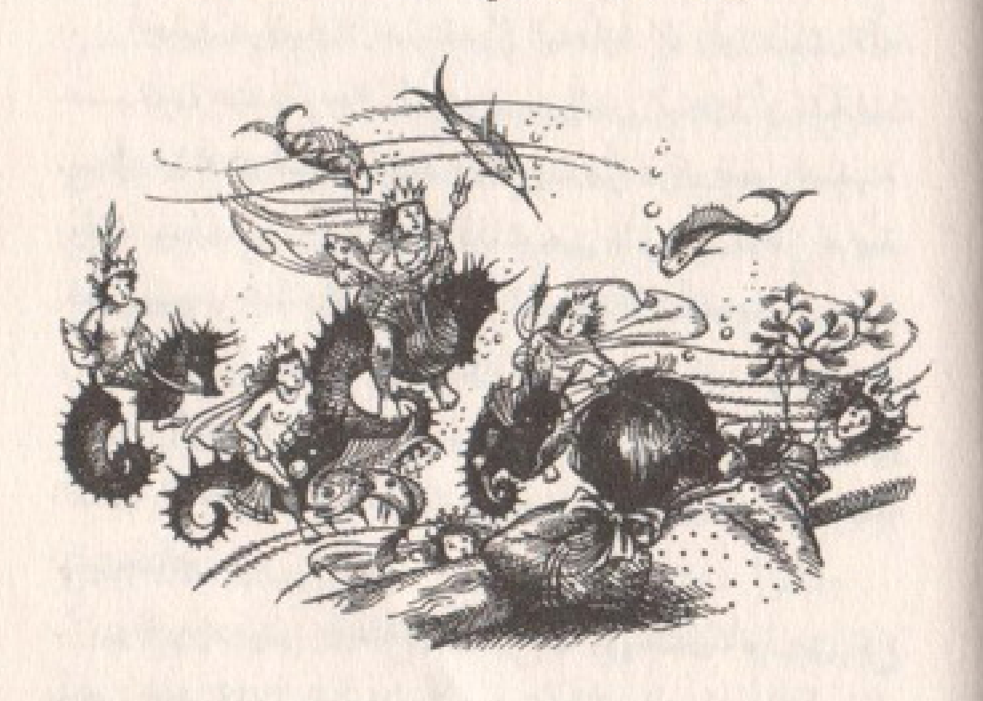
أنّهم يتحادثون ويتضاحكون. وقبل أن رجعتِ السمكةُ الصيّادة إليهم بفريستها، صعدت أخرى من النوع نفسه من بين أهل البحر. وتأكّدت لوسي تماماً تقريباً أنَّ شاباً كبيراً من عرسان البحر جالساً على فرسه البحريّ في وسط المجموعة هو الذي أرسل تلك السمكة أو أطلقها، وكأنّه كان يُمسِك بها حتّى ذلك الحين في يده أو على معصَمِه.

فقالت لوسي: «يا لَلعجب! إنّي أُوكّد فعلاً أنّها فرقة صَيد، بل هي أشبه بحملة صَيدٍ بواسطة الصُّقور. نعم، هي هكذا. فهم قدِ انطلقوا راكبين وعلى معاصِمِهم تلك السمكات المفترسة الصغيرة مثلما كنّا نحن ننطلق راكبين والصُّقورُ على معاصمنا لمّا كنّا مَلِكَين وملكتَين في كيرپاڤيل منذ زمانٍ طويل. ثُمّ إنّهم يُطيّرون تلك السمكات نحو الأُخرى؛ أو ربّما كان ينبغي أن أقول يُسبّحونها نحوها. يا لَلْـ...!»

وقد توقّفت فجأةً لأنّها لاحظت تغيُّرَ المشهد. فإنَّ أهل البحر تنبّهوا إلى جوّابة الفجر، كما أنَّ فوج السمك تفرّق في كلّ اتجّاه، فيما أخذ أهل البحر أنفسُهم يصعدون ليكتشفوا سرَّ ذلك الشيءِ الأسود الكبير الذي اعترض بينهم وبين الشمس. وباتوا قريبين جداً من سطح الماء بحيث لو أنّهم كانوا في الهواء، لا في الماء، لاستطاعت لوسي أن تتكلّم إليهم. وقد كان فيهم عرسانٌ وعرائس على السواء، وعلى رأس كلٍّ منهم إكليلٌ من نوعٍ ما،

وحول أعناق بعضِهم عقودُ لؤلؤ. ولم يكونوا لابسين أيّةَ ثياب، وكانت أجسامهم بلون العاج العتيق، وشعرهم بلون الأرجوان الداكن. أمّا الملك في الوسط (ولا يمكن أن يُخطِئ أحد فيحسبَه شيئاً غير الملك) فقد نظر بتعالٍ وشراسة إلى وجه لوسي، وهزَّ رُمحاً كان بيده، وحذا فرسانُه حذوَه. وارتسمت على أوجُه العرائس علامات الذهول الشديد. فتأكّدت لوسي تماماً أنَّ أهل البحر أولئك لم يكونوا قطُّ قد رأوَا سفينة أو بشراً... ومن أين لهم ذلك في بحارٍ وراء آخِرِ العالَم، حيث لم تصل سفينةٌ من قبل؟

وسأل صوتٌ بقرب لوسي: «إلامَ تُحدّقين، يا لُو؟»



لكنَّ لوسي كانت قدِ استغرقت في تأمُّل ذلك المشهد، حتّى أجفلت عند سماعها الصوت. ولمّا التفتت، تبيَّنَ لها

أنّ ذراعها قد خدرت من جرّاء طول اتّكائها على حاجز الحافة في وضع واحد. وشاهدت درينيان وإدمون بقربها، فقالت: «انظرا!».

فنظرا كلاهما، ولكنْ في الحال تقريباً قال درينيان بصوت منخفض:

«أديرا وجهيكما في الحال، يا صاحبيَ الجلالة. نعم، استديرا وظهراكما صوب البحر. ولا تُظهرا أنّكما كنتما تتكلّمان عن أيّ أمر مهمّ».

فسألت لوسي وهي تفعل ذلك: «لماذا؟ ماذا في الأمر؟».

أجاب درينيان: «سيتضرّرُ البحّارة إن رأوا ذلك كلّه. فسيكون عندنا رجال يُغرَمون بعرائس البحر، أو يُشغَفون ببلاد ماتحت البحر ذاتها، ويقفزون من فوق ظهر السفينة. ولقد سمعتُ بوقوع مثل ذلك من قبل في بحارٍ غريبة. فمن سوء الحظ دائماً أن يرى المرء هؤلاء القوم».

فقالت لوسي: «ولكنّنا كنّا نعرفهم من زمان، في الأيّام القديمة في كيرپاراڤيل حين كان أخي بطرس هو الملكَ الأعلى. فقد طلعوا إلى سطح الماء وغنّوا في حفلة تتويجنا».

وقال إدمون: «أعتقد، يا لُو، أنّ أولئك كانوا من نوع آخر. فقد كانوا يقدرون أن يعيشوا في الهواء وتحت الماء على السواء. وأغلبُ ظنّي أنّ هؤلاء لا يقدرون على ذلك. فيبدو من منظرهم أنّهم لو استطاعوا لطلعوا إلى سطح الماء

وشنّوا علينا هجوماً منذ وقتٍ طويل. إذ يبدو أنّهم شرِسون جدّاً».

فقال درينيان: «على كلّ حال...». ولكنْ في تلك اللحظة سُمع صوتان. كان أحدُهما صوت سقوطِ شيءٍ ما في الماء؛ وكان الثاني صوتاً من على بُرج القتال يصيح: «سقط رَجُلٌ في الماء!» وعندئذٍ انشغل الجميع. إذ تسلّق بعضُ البحّارة إلى الأعلى لثني الشراع، وأسرع بعضهم إلى الأسفل لمدّ المجاذيف، وأخذ رِنس الذي كان يقوم بنوبته في إدارة مسكة الدفّة بأقصى جهده كي تنعطف السفينة وترجع إلى حيثُ سقط الرجل من على متنها. ولكنْ ما لبث الجميع أن أدركوا أنّ الذي سقط في الماء لم يكن واحداً من الرجال بالمعنى الحرفيّ، بل كان ريبيتشيب بعينه.

وقال درينيان: «أفٍّ من ذلك الفأر! إنّه أكثر إزعاجاً من ملاّحي السفينة مُجتمعين معاً. فلا يوجد أيُّ مأزِق يمكن الدخول فيه إلّا دخله حالاً! ينبغي أن نقيّده بسلاسل حديديّة... أن نجرّه وراء السفينة حتّى يتهذّب... أن نهجره في إحدى الجزر النائية... أن نقصّ له شاربيه. هل يرى أحد هذا الفاسد الصغير؟»

ولكنّ ذلك كلّه لم يعنِ أنّ درينيان كان يكره ريبيتشيب حقّاً. فهو، على العكس، كان يحبّه كثيراً جدّاً، ومن ثمّ خاف عليه فعلاً، وجعله خوفُه سيّئ المزاج: تماماً كما يكون غضب والدتك عليك من جرّاء اندفاعك راكضاً إلى الشارع أمام سيّارة عابرة أشدّ من غضب

www.rewity.com

الغريب. طبعاً، لم يخَف أحد أن يغرق ريبيتشيب، لأنّه كان سبّاحاً ماهراً. ولكنّ الثلاثة الذين عرفوا ما يجري تحت سطح المياه كانوا خائفين من تلك الرماح الفتّاكة الطويلة في أيدي أهل البحر.

وفي ظرف دقائق قليلة كانت جوّابة الفجر قد دارت دورتها، واستطاع الجميع أن يَرَوا تلك اللطخة الصغيرة في الماء والتي كانت هي ريبيتشيب. وقد كان يُثرثِر بأقصى تأثُّر، ولكنّ لأنّ فمه كان يمتلئ بالماء لم يستطِع أحد أن يفهم ما كان يقوله.

فصاح درينيان: «إنّه سيبوح بكلّ شيء إن لم نُطبق فمه!» وتجنُّباً لذلك، اندفع إلى الحافة ودلّى بيده حبلاً، صائحاً بالبحّارة: «لا بأس، لا بأس! عودوا إلى أماكنكم. أظنّ أنّني أستطيع أن أنتشل فأراً بغير مساعدة». وإذ بدأ ريبيتشيب يتسلّق الحبل – بقليلٍ من الرشاقة لأنّ فروه المُبلّل جعله ثقيلاً – انحنى درينيان وقال له همساً:

«لا تقُل شيئاً. لا تتفوّه بكلمة واحدة».

ولكنْ لمّا وصل الفأر الذي يقطرُ ماءً إلى ظهر السفينة، تبيّنَ أنّه غير مهتمّ قطعاً بأهل البحر، إذ صأصأ قائلاً:

«إنّه حلو! حلوٌ، حلو!»

فسأله درينيان بحِدَّة: «عمَّ تتكلّم؟ ولا ضرورة لأن تُنفِّض الماء عنك على كلّ جسمي أيضاً!»

أجاب الفأر: «أقول لك إنّ الماء حلو. إنّه حلوٌ وعَذب؛ وليس مالحاً».

ولم يتنبّه أحدٌ أوّلَ وهلة إلى أهميّة هذا الأمر. إلّا أنّ ريبيتشيب تلا مرّةً أخرى تلك النبوءة القديمة:

حيث يحلو الموجُ كَمَنِّ السماء،
لا تشُكَّ أبداً، يا ريبيتشيب...
أنّ هنالك الشرقَ المُطلَقَ الحبيب.

وعندئذٍ فهم الجميع أخيراً.

فقال درينيان: «هاتِ لي دلواً، يا راينِلف».

وأتاه بدلوٍ، فدلّاه إلى المياه، ثمّ انتشله أيضاً. فإذا بالماء فيه يتألّق كالزجاج.

وقال درينيان لكاسپيان: «لعلّ جلالتك ترغب في تذوُّقه أوّلاً».

فحمل الملك الدلو بكِلتا يديه، ورفعه إلى شفتيه، ورشف منه قليلاً، ثمّ عبّ عبّاً ورفع رأسه. فإذا بوجهه قد تغيّر، وبدا كلّ ما فيه أكثر تألُّقاً، لا عيناه وحدهما. وقال:

«نعم، إنّه حُلو. إنّه ماءٌ عذبٌ حقيقيّ. لستُ واثقاً بأنّه لن يقتلني. ولكنّه الموتُ الذي كنتُ أختاره طائعاً... لو كنتُ قد عرفتُ بأمره قبل الآن».

فسأله إدمون: «ماذا تعني؟»

أجاب كاسپيان: «إنّه... إنّه مثلُ النور أكثر ممّا هو مثل أيّ شيء آخر».

فقال ريبيتشيب: «تلك هي حقيقته. إنّه نورٌ يُشرَب. لا بدَّ أنّنا اقتربْنا جداً من آخِرِ العالمَ الآن».

ثمَّ خيّم الصمت هُنيهةً بعدها ركعت لوسي على ظهر السفينة وشربت من الدلو. وقالت وهي تلهث قليلاً:

«إنّه أعذبُ شيء شربتُه على الإطلاق. لن نحتاج لأن نأكل شيئاً الآن».



وشرب جميع مَن في السفينة واحداً فواحداً. ولزموا الصمت كلُّهم وقتاً طويلاً. فقد شعروا تقريباً بأنّهم أحسن حالاً وأوفر قوّةً من أن يحتملوا ذلك، وبدأوا سريعاً يُلاحِظون نتيجة أُخرى. فكما سبق أن قُلت، كان هنالك دائماً نورٌ غزير جداً منذ أن غادروا جزيرة رَمَندو: إذ كانتِ الشمس كبيرة جداً (ولكنّها ليست شديدة الحرارة)،

والبحرُ فائق التألُّق، والفضاء بالغ الإشراق. أمّا الآن، فلم يكُن النور قد خفتَ — بل إن كان قد تغيّرَ فإنّه تزايد — إلّا أنّهم كانوا يقدرون أن يحتملوه. وكان بمقدورهم أن ينظروا إلى الشمس مباشرةً ولا تطرف عيونهم، وأن يروا من النور أكثر ممّا سبق أن رأوه من قبل على الإطلاق. كما أنّ ظهر السفينة وأشرعتها ووجوهَهم هُم وأجسامهم صارت أكثر فأكثر إشراقاً، وكلُّ حبل تألَّق تألُّقاً. وفي الصباح التالي، لمّا أشرقتِ الشمس، وكانت أكبر من حجمها القديم بخمس مرّات أو ستّ، حدّقوا إليها تحديقاً شديداً، فاستطاعوا أن يرَوا حتّى ريش الطيور التي انطلقت طائرةً منها.

وبالكادِ سُمِعت كلمةٌ على ظهر السفينة طيلة ذلك النهار، حتّى اقترب وقت العشاء (ولم يكُن أيٌّ منهم يرغب في تناول شيءٍ من الطعام، إذ كان الماء كافياً لهم)، إلى أن قال درينيان:

«لا يمكنني أن أفهم هذا. فليس من نسمة هواء واحدة، والشراع يتدلّى بلا حراك، والبحر ساكنٌ كأنّه بِركة، ومع ذلك نجري بسرعةٍ كبيرة كما لو أنَّ وراءنا ريحاً شديدة».

فقال كاسپيان: «ذلك ما كنتُ أفكّر فيه أنا أيضاً. لا بدَّ أنّنا عالقون في تيّارٍ قويّ».

وقال إدمون: «هُمْم! ليس هذا حسناً جداً إذا كان العالمُ بالحقيقة ذا حافَة ونحن الآن نقترب منها».

فسأله كاسپيان: «أتعني أنّنا فعلاً قد نُجرَف من فوقها؟»

وصاح ريبيتشيب وهو يُصفِّق بكفّيه: «نعم، نعم. فلطالما تصوّرتُ الأمر هكذا: العالم مثل طاولة مُدوَّرة كبيرة، ومياه جميع المحيطات تتدفَّق من على حافتها دائماً أبداً. وهذه السفينة سوف تنقلب، فتقف على رأسها، وسنرى لحظةً مّا فوقَ الحافة، وبعدئذٍ نـزولاً نـزولاً سنندفع مُسرِعين..».

فسأله درينيان: «وماذا برأيك سيكون في انتظارنا عند القعر، إيه؟»

أجاب الفأر وعيناه تبرقان: «ربَّما بَلَد أصلان. أو ربَّما لا يكونُ قعرٌ البتَّة. فلعلَّ الماء يظلُّ يسقط إلى أبد الآبدين. ولكنْ مهما كان ذلك، أفلا يستحقُّ شيئاً مجرَّدُ النظر لحظةً واحدة إلى ما وراءَ حافَةِ العالَم؟»

وقال يُسطاس: «ولكنِ انظرْ إليَّ. هذا كلُّه كلامٌ فارغ. إنَّ العالم مُدوَّر: أعني أنّه مُدوَّر مثل الكُرَة، وليس مثل الطاولة».

فقال إدمون: «عالمُنا هو كذلك. ولكنْ هل هذا مثله؟»

وسأل كاسپيان: «هل تقصد أن تقول إنكم أنتم الثلاثةَ جئتم من عالَم مُدوَّر (مُدوَّر مثل الكُرة) ولم تقولوا لي قَطّ! ذلك غير جيِّد جداً منكُما؛ لأنَّ عندنا قصصاً خُرافيَّة تظهر فيها عوالم مدوَّرة، ولطالما شُغِفتُ بها. ولم أُصدِّقْ قطُّ أنَّها عوالم حقيقيَّة. ولكنَّني طالما تمنَّيتُ وجودَ مثلِها ورغبتُ دائماً في أن أعيش في أحدها. أوّاه! إنَّني أبذل أيَّ شيءٍ يُطلب منّي... وأنا أتساءل: لماذا تقدرون أنتم أن تأتوا إلى

عالَمِنا فيما لا نقدر نحن أبداً أن نذهب إلى عالَمِكم؟ حبَّذا لو أُتيحَت لي فرصةٌ لذلك! فلا بدَّ أنّه أمرٌ مُشوِّق أن يعيش المرءُ على شيءٍ مثل الكرة. وهل ذهبتم مرَّةً إلى الأجزاء التي فيها يتجوَّل الناس ورؤوسُهم إلى تحت؟»

فهزَّ إدمون رأسه قائلاً: «ليس الوضعُ مثل ما تتصوَّره. فلا شيءَ مُشوِّقاً بشكلٍ خاص في عالَمٍ مدوَّر حين تكونُ موجوداً فيه».

الفصل السادس عشر

آخِرُ العالَمِ تماماً

كان ريبيتشيب، بين رُكّاب السفينة، هو الشخص الوحيد الذي لاحظ أهل البحر، فضلاً عن درينيان والبِيڤِنسيِّين. فإنَّه غطس في الحال لمَّا شاهد ملك البحر يهزُّ رمحه، إذ عدَّ ذلك نوعاً من التهديد أو التحدّي، وأراد أن يُسوّي المسألة هناك فوراً. ولكنَّ تأثُّره باكتشاف كون المياه حلوةً وعذبةً الآن شتَّت انتباهه. وقبل أن يتذكَّر أهل البحر من جديد، أخذه لوسي ودِرينيان جانباً وحذَّراه من أن يذكر أيَّ شيءٍ عمّا رآه.

ولم يهتم المسافرون بما آلت إليه الأمور، لأنَّه في ذلك الوقت كانت جوّابة الفجر تنساب على قسمٍ من البحر بدا أنَّه خالٍ من السكّان. ولم يكن أحدٌ غير لوسي قد رأى المزيد من أحوال أهل البحر، بل إنَّها هي أيضاً لم تُشاهِد إلّا لمحةً بسيطة لهم. وفي صبيحة اليوم التالي بكاملها، أبحروا في مياه قليلة العمق تكسو الطحالبُ قاعَها. وقُبَيل الظُّهر شاهدَت لوسي فوجاً من الأسماك كبيراً يَرعى بين الطحالب، وقد كانت الأسماك كلُّها تأكل باستمرار

وتتحرَّك كلُّها في الاتّجاه نفسه. ففكَّرت لوسي: «كم تُشبِه هذه الأسماك قطيعاً من الغنم!» وفجأةً رأت فتاةَ بحر صغيرة، بِعُمرها تقريباً، وسط فوج السمك: وكانت فتاة هادئة تبدو عليها الوحدة، وفي يدها ما يُشبِه عصا الراعي المعقوفةَ الطَرف. وتأكّدت لوسي تماماً أن تلك الفتاة لا بُدَّ أن تكون راعية (لا راعية غَنَم، بل راعية سَمَك) وأنَّ فوج السمك كان بالحقيقة قطيعاً يَرعى. وقد كانت الفتاة والسَّمك جميعاً على مسافة قريبة جدّاً من سطح الماء. وما إن باتت الفتاة المُنسابة في المياه غير العميقة ولوسي، وهي مُتَّكئة على حاجز أعلى السفينة، إحداهما مُقابِل الأخرى، حتَّى رفعت الفتاة عينيها وحدَّقت إلى وجه لوسي مباشرةً. ولم تتمكَّن كِلتاهما من مخاطبة الأخرى، ثمَّ توارت فتاة البحر خلف مؤخَّر السفينة. إلّا أنَّ لوسي لن تنسى وجهها أبداً. إذ لم يبدُ عليه الخوف ولا الغضب كوجوه أهل البحر الآخرين. وقد أحبَّت لوسي تلك الفتاة، وتأكَّدت أنَّ الفتاة قد أحبَّتها. ففي تلك اللحظة صارتا صديقتين بطريقةٍ ما. ولا يبدو أنَّ فرصة التقائهما ثانيةً كبيرةً، لا في هذا العالم ولا في أيِّ عالمَ آخر. ولكنَّهما إذا تلاقَتا يوماً فلا بُدَّ أن تندفعا إحداهما نحو الأُخرى بذراعين مفتوحتين.

بعد ذلك مرَّت بضعة أيّام وجوّابة الفجر تنساب نحو الشرق بهدوء، بِلا رياحٍ تنفخ أشرعتها ولا أمواج مُزبِدة تضرب جوانبها. وكان النور كلَّ يوم وكلَّ ساعة يزداد

بهاءً وضياءً، ومع ذلك ظلُّوا قادرين على تحمُّله. ولم يأكل أيٌّ منهم أو يشرب أو ينَم، ولا رغب أيٌّ منهم في ذلك كلِّه، بل ظلُّوا ينتشلون من البحر دِلاءً من المياه الباهرة التي كانت أقوى من النبيذ المُنعِش، وعلى نحوٍ ما أكثر رطوبةً وسيولةً من المياه المعتادة، ويتبادلون بعضُهم أنخابَ بعض في سكون بجرعاتٍ كبيرة منها. حتّى إنَّ واحداً أو اثنين من البحّارة كانا مُسِنَّين بعضَ الشيء عند بداية الرحلة أخذا يصيران أكثر شباباً كلَّ يوم. وغمرت البهجة والفرحة جميعَ رُكّاب السفينة، إلّا أنَّهما لم تكونا من نوع التأثُّر الذي يدفع المرء إلى الكلام. فكلَّما قطعوا مسافةً أطول في إبحارهم، قلَّ كلامُهم؛ وإذا تكلَّموا فهمساً. إذ إنَّ سكون ذلك البحر الأخير استولى عليهم وأسرهم بسِحره العجيب.

وذات يومٍ قال كاسپيان لِدرينيان: «سيِّدي اللورد، ماذا ترى قُدّامك؟»

فأجاب دِرينيان: «مولاي، أرى بياضاً: على طول الأفق كلّه من الشمال إلى الجنوب وإلى المدى الذي تراه عيناي».

وقال كاسپيان: «ذلك هو ما أراه أنا أيضاً، ولا يمكنني أن أتصورَ ماذا يكون».

فأجاب دِرينيان: «يا صاحب الجلالة، لو كُنّا على ارتفاع أعلى، لقلتُ إنّه جليد. ولكنْ لا يمكن أن يكون جليداً، ولا سيَّما هُنا. ومع ذلك، فخيرٌ لنا أن نأمر المجذِّفين

بالعمل على كبْح السفينة في مواجهة التيّار. فمهما كان ذلك، لا نريد أن نصطدم به ونحن نجري بهذه السرعة!»

فتمَّ العمل بنصيحة درينيان، وهكذا أخذوا يجرون بسرعةٍ أقلَّ فأقلّ. ولم يقلَّ غموض البياض قطُّ عندما اقتربوا إليه. فإذا كان أرضاً، ينبغي أن تكون أرضاً غريبة جدّاً، لأنّها بدت ملساء كالماء، وعلى مُستواه تماماً. ولمّا صاروا قريبين منه جدّاً، أدار درينيان مسكة الدفّة بقوّة وعَطَفَ جوّابة الفجر نحو الجنوب بحيث صار جانبُها مواجِهاً للتيّار، وجعل الرجال يجذّفون قليلاً إلى الجنوب بمحاذاة طرف البياض. وإذ فعل ذلك، تبيَّنَ له أمرٌ مهمّ، وهو أنَّ التيار لم يكُن يزيد عرضاً عنِ اثني عشر متراً، فيما كان باقي البحر ساكناً كأنّه بِركة. وكان ذلك خبراً سارّاً للبحّارة الذين كانوا قد بدأوا يحسبون أنَّ رحلة العودة إلى أرض رَمَندو ستكون مُجهِدة لهم جدّاً إذ يُضطرُّون إلى التجذيف بعكس التيار طول الطريق. (وقد أوضح ذلك أيضاً سبب هبوط راعية السمك بسرعة خلف مؤخَّر السفينة: فهي لم تكُن في مجرى التيّار؛ ولو كانت فيه لتحرَّكت نحو الشرق مثل سرعة السفينة.)

ومع ذلك لم يقدر أحد أن يحزر حقيقة تلك الرقعة البيضاء الشاسعة. ثُمَّ أنزلوا القارب، فانطلق للاستكشاف. وتمكَّن الذين ظلُّوا على متن جوّابة الفجر أن يرَوا القارب وهو يندفع وسط ذلك البياض مباشرةً. ثمَّ استطاعوا أن يسمعوا أصوات راكبي القارب (بوضوح

أكثر عبر المياه الساكنة) وهم يتحدّثون بأصوات حادّة تبدو عليها المفاجأة. وبعدئذٍ جرى بعض التمهُّل ريثما يقيس راينِلف من أعلى مقدّم القارب عُمقَ الماء. ولمّا رجع القارب وسط ضرب المجاذيف، بدا أنّ فيه كثيراً من تلك المادّة البيضاء. واحتشد الجميع على حافة السفينة لسماع الأخبار. فصاح راينلف وهو واقفٌ في مُقدّم القارب:

«زنابق، يا صاحب الجلالة!»

وسأله كاسپيان: «ماذا قلت؟»

فقال راينِلف: «زنابق مُزهرة، يا صاحب الجلالة. مثل الزنابق في بِركة أو في حديقة قُربَ البيت».

ثمّ رفعت لوسي ذراعيها المبلّلتَين وهما مملوءتان بالتُويجات البيضاء والأوراق العريضة المُفلطحة، وقد كانت واقفةً في مؤخَّر القارب، وقالت: «انظروا!»

وسأل درينيان: «ما العُمق، يا راينِلف؟»

فأجابه راينلف: «هذا هو الأمر المُضحِك، يا رُبّان! فالمياه ما تزال عميقة: ثلاثُ قامات ونصفُ قامة بالتمام!»

وقال يُسطاس: «لا يمكن أن تكون زنابق حقيقيّة، كتلك التي ندعوها نحن زنبقاً».

ولعلّها لم تكُن كتلك، إلّا أنّها كانت شبيهةً بها جداً. ثُمّ عندما انعطفت جوّابة الفجر، بعدَ بعضِ التشاوُر، فعادت إلى مجرى التيّار، وأخذت تنساب نحو الشرق وسط بُحيرة الزنبق، أو بحر الفضّة (وقد جرّبوا كِلا هذين الاسمين، فكان الثاني هو الأغلب؛ والاسمُ الظاهر على

خريطة كاسپيان الآن هو بحر الفضّة) عندئذٍ بدأ أغربُ جزء من سَفراتهم. وسرعان ما غدا البحر الذي كانوا يُغادِرونه مجرَّد إطارٍ أزرق رقيق على الأفق الغربيّ. وقد انتشر اللون الأبيض، مُوشحاً بأبهتِ لونٍ ذهبيّ، حوالَيهم من كلّ جهة، إلّا خلفَ المؤخّر مباشرةً، حيث كان مرورهم قد شقّ الزنابق وخلّف طريقاً ضيّقاً وسط الماء تألّق كزجاجٍ أخضر داكن. وعند النظر إلى ذاك البحر الأخير، بدا شبيهاً بالقطب الشماليّ. ولو لم تكن عيونهم الآن قد صارت قويّةً كعيون النسور، لما احتملوا النظر إلى وهج الشمس على ذلك البياض كلّه، ولا سيّما في الصباح الباكر حين تكون الشمس في أضخم حجمٍ لها. وكان ذلك البياض نفسُه، في كلّ مساء، يجعل ضوء النهار يدوم أكثر. فقد بدا أنّ تلك الزنابق ليست لها نهاية. ويوماً بعد يوم، فاحت من أميال تلك الزهور المترامية رائحةٌ وجدت لوسي أنّ وصفها صعب جدّاً: فإنّها كانت زكيّة بالطبع، ولكنّها ليست طاغيةً ولا باعثةً على النعاس، بل مُنعِشة وبرّيّة ومُشعِرة بالتوحُّد والعزلة بحيث يبدو أنّها تدخل عقلك وتجعلك تحسّ أنكَ تستطيع أن تتسلّق الجبال ركضاً أو تُصارع فيلاً. وقد قالت هي وكاسپيان بعضُهما لبعض: «أشعر بعدم قُدرتي على احتمال المزيد من هذا، ومع ذلك لا أُريد له أن يتوقّف».

وظلّوا يقيسون عمق المياه مراراً وتكراراً، ولكنّها لم تُصبح أقلّ عُمقاً إلّا بعد بضعة أيّام. وبعد ذلك ظلّت

تتناقص عُمقاً، حتّى جاء يومٌ اضطُرّوا فيه إلى التجذيف للخروج من مجرى التيّار، وإلى تلمُّس طريقهم بمُنتهى البطء وهم يُجذّفون. وسرعان ما بدا واضحاً أنَّ جوّابة الفجر لم تعُد تستطيع أن تُواصِل إبحارَها نحو الشرق. وبالحقيقة أنّهم لولا مهارتُهم في الملاحة لم يقدروا أن يُنقِذوها من الارتطام بقاع البحر.

ثمّ صاح كاسپيان: «أنزِلوا القارب، ثمّ ادعُوا الرجال إلى مؤخّر السفينة، إذ ينبغي أن أُكلّمهم».

فهمس يُسطاس في أُذن إدمون: «ماذا ينوي أن يفعل؟ في عينيه نظرة غريبة!»

أجاب إدمون: «أظنُّ أنّنا جميعاً نبدو بالمنظر نفسه».

فانضمُّوا إلى كاسپيان على سُطَيحة المؤخَّر، وسرعان ما احتشد جميع الرجال معاً عند أسفل السلّم ليسمعوا خطاب الملك، إذ قال:

«يا أصحاب، لقد أنجزنا الآن المهمّة التي لأجلها أبحرتم. فاللوردات السبعة عُرِف مصير كلٍّ منهم. ولمّا كان السيّد ريبيتشيب قد حلف ألّا يرجع أبداً، فعندما تصلون إلى أرض رَمَندو، فلا شكَّ أنّكم ستجدون اللوردات ريڤليان وأرغوز ومَقرَمورن مستيقِظين. ففي عُهدتك، سيّدي اللورد درينيان، أضع هذه السفينة، طالباً إليك أن تُبحِر إلى نارنيا بأقصى سرعة ممكنة، وأوّلَ كلّ شيء ألّا ترسيَ عند شواطئ جزيرة ماء الموت. وأوصِ نائبي الملوكيّ، القزمَ طرمبكِن، بأن يُعطيَ جميع زملائي الملّاحين هؤلاء

ما وعدتُهم به من مكافآت. فإنّهم استحقّوها بجدارة. وإن لم أرجع، فإنّي أشاء أن يعمد نائبي الملوكيّ والأُستاذ كُرنيليوس وجانيكما الغُرير واللورد درينيان إلى اختيار ملكٍ لنارْنيا بإجماع الآراء..».

عندئذٍ قاطعه درينيان قائلاً: «ولكنْ، يا مولاي، هل تتنازل عن العرش؟»

فقال كاسپيان: «أنا ذاهب مع ريبيتشيب لرؤية آخِر العالم».

وسرَت بين البحّارة هَمهمةُ خيبةِ أملٍ خافتةٌ، فيما قال كاسپيان:

«سنأخذ القارب. فلن تحتاجوا إليه في هذه البحار الرقيقة؛ ويجبُ أن تصنعوا واحداً غيره في جزيرة رَمَندو. أمّا الآن..».

وقال إدمون فجأةً وبحَزْم: «كاسپيان، لا تقدر أن تفعل هذا!»

فقال ريبيتشيب: «بكلّ تأكيد، جلالتُه لا يقدر على هذا».

وقال دِرينيان: «كلّا، فعلاً!»

فسأل كاسپيان: «الا أقدر حقّاً؟» وقد بدا لحظةً شبيهاً بعمّه ميراز.

وقال راينِلف من ظهر السفينة في الأسفل: «أرجو صَفح جلالتك، ولكنْ إذا فعل ذلك واحدٌ منّا يُدعى فِعلُه خُذلاناً وفراراً».

فقال كاسپيان: «إنّك تستغلُّ كثيراً واقع خدمتك الطويلة المُدَّة، يا راينِلف!»

وقال دِرينيان: «لا، يا مولاي! إنَّه على حقٍّ تماماً».

فردَّ كاسپيان: «وحقِّ أصلان، كنتُ أعتبرُكم جميعاً رعاياي هنا، لا مُعلِّميَّ!»

وقال إدمون: «أنا لستُ كذلك؛ وأنا أقول إنّك لا تقدر أن تفعل هذا!»

فردَّ كاسپيان: «إنّي أسمع 'لا تقدر' مرَّةً أُخرى! فماذا تعنون؟»

وقال ريبيتشيب بانحناءةٍ منخفضة جدّاً: «إذا سرٌّ هذا جلالتك، نَعني أنَّه لا ينبغي لك أن تفعل ذلك. فأنت مَلِك نارْنيا. وإن كنتَ لا ترجع، فإنّك تنقض عهدك مع جميع رعاياك، وخصوصاً طرَمبكِن. إذ لا ينبغي لك أن تستمتع بالمغامرات كما لو كنت شخصاً عاديّاً. وإن لم تُصغِ إلى صوت العقل، يكون من قَبيل الولاء الأخلص على كلِّ رجُلٍ في هذه السفينة أن ينضمَّ إليَّ لتجريدك من سلاحك وتقييدك حتّى ترجع إلى صوابك».

فقال إدمون: «صحيحٌ تماماً! كما فعل بأوليس* بحّارتُه عندما أراد أن يتبع السّيرانات** المُغويات».

* أوليس: شخصية أسطورية يونانية، كان ملك جزيرة تُدعى إيثالة.

** السيرانات: شخصيات أسطورية يونانية، تمثل كائنات برؤوس فتيات وأجساد طيور. كن يغرين البحارة بغنائهن، فتتحطم سفنهم على شاطئ البحر.

وكانت يد كاسپيان قد امتدَّت إلى مِقبَض سيفه، حينئذٍ قالت لوسي: «ولقد وعدتَ تقريباً ابنة رَمَندو بأن ترجع!»

فتمهَّل كاسپيان قليلاً، وقال: «حسناً، نعم! قد حصل ذلك». ووقف حائراً هُنيهة، ثمَّ صاح مخاطباً ملّاحي السفينة عموماً:

«حسناً، ليكُن لكم ما تريدون. لقدِ أُنجِزتِ المهمَّة. سنعودُ كلُّنا. أصعِدوا القارب من جديد».

فقال ريبيتشيب: «مولاي، لن نعود كلُّنا. فأنا، كما سبق أن شرحتُ..».

وجأر كاسپيان: «سكوتاً! لقد تقبَّلتُ التأنيب، ولكنّي لن أقبل التعذيب. ألَن يُسكِت أحدٌ هذا الفأر؟»

فقال ريبيتشيب: «لقد وعدتَ جلالتُك بأن تكون سيِّداً صالحاً لحيوانات نارْنيا الناطقة».

فردَّ كاسپيان: «الحيوانات الناطقة، نعم! ولكنْ لم أقُل شيئاً عن الحيوانات التي لا تكفُّ ألسنتُها عن النُطق». ثمَّ اندفع مُسرِعاً على السُّلَّم هبوطاً بانفعالٍ ظاهر، وذهب إلى الحُجرة، وسفق الباب وراءه.

ولكنْ لمّا انضمَّ إليه الآخرون ثانيةً وجدوه قد تغيَّر، إذ كان وجهه قد عاد أبيض وبَدَت في عينيه دموع. وقد قال:

«لا فائدة! كان يمكن أيضاً أن أتصرَّف بلباقة بدلاً من إطلاق العِنان لغضبي وتهديدي. لقد كلَّمني أصلان. لا،

لستُ أعني أنّه جاء إلى هُنا فعلاً. فهو على الأقل أكبرُ حجماً من أن تَسَعَه الحُجرة. ولكنّ رأسَ الأسدِ الذهبيّ ذاك المُعلّق على الحائط انبعث حيّاً وتكلّم إليّ. وما كان أرهب عينيه! ليس أنّه عاملني بخشونة على الإطلاق، بل إنّما كان صارماً قليلاً أوّلَ الأمر. ولكنّ الخبر كان رهيباً رُغم ذلك. فإنّه قال... قال... آه، لا أقدر أن أحتمل الأمر. إذ كان ذلك أقسى ما قد يقوله. فعليكم أنتم — ريب وإدمون ولوسي ويُسطاس — أن تُتابِعوا السَفَر. وعليّ أنا أن أرجع، وحدي وفي الحال! فما الفائدة في أيّ شيءٍ من ذلك كُلّه؟»

فقالت لوسي: «يا كاسبيان العزيز، كنتَ تعرف أنّ علينا أن نرجع إلى عالَمِنا، عاجلاً أو آجلاً».

وقال كاسبيان متنهّداً: «نعم، ولكنّ هذا كان عاجلاً جدّاً!»

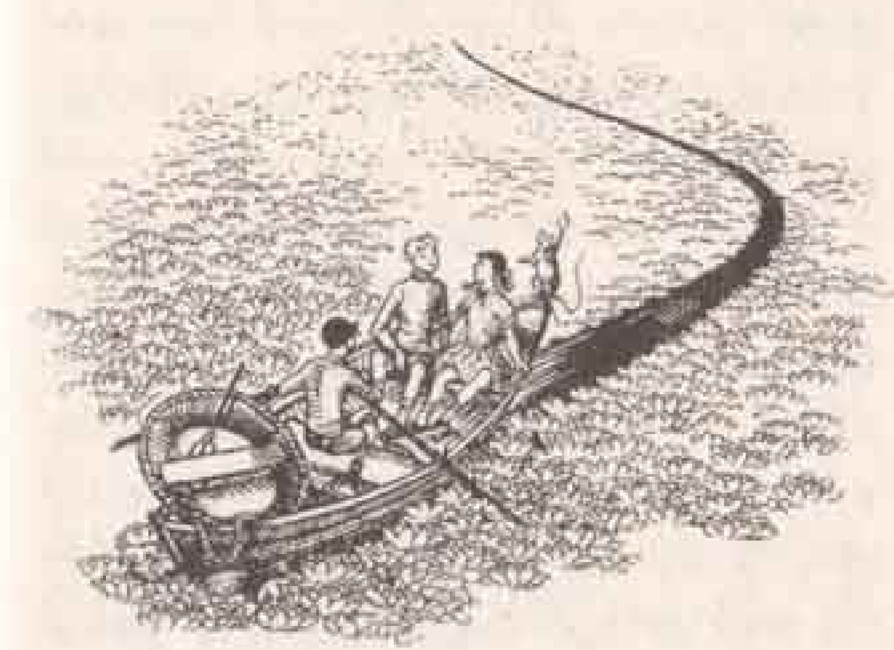
فقالت لوسي: «ستتحسّن حالُك عند رجوعك إلى جزيرة رَمَندو».

وفي ما بعد خفّ عنه الحزن قليلاً. إلّا أنّ الفراق كان مُحزناً لِكلا الفريقين، ولَن أُطيل الكلام عنه. فنحو الساعة الثانية بعد الظُهر، وبعد التزوّد جيّداً بالمؤونة والماء (مع أنّهم حسبوا أنّهم لن يحتاجوا إلى أيّ طعامٍ أو شراب) ووضْع قُرقِل ريبيتشيب على متنِ القارب، انزلق هذا الأخير عن جوّابة الفجر ليُبحِر تجذيفاً عبر سجّادة الزنبق التي لا نهاية لها. أمّا جوّابة الفجر فقد نَشرت كلّ أعلامها

وعلّقت جميع أتراسها تكريماً لرحيلهم. وقد بَدت عاليةً وكبيرة ومُريحة من موقعهم المنخفض والزنابقُ حواليَهم. ولكنْ قبل أن تغيب عن الأنظار، شاهدوها وهي تنعطف وتبدأ التجذيف ببطء نحو الغرب. مع ذلك ذرفت لوسي بعض الدموع، إلّا أنّها لم تشعر بذلك كما قد تتوقّع أنت. فإنّ النور والسكون ورائحة بحر الفضّة المُدَغدِغة، بل عُزلة ذلك المكان أيضاً (بطريقةٍ غريبةٍ)، كانت كلُّها مؤثّرة ومشوِّقة للغاية.

ولم يكُن داعٍ للتجذيف، لأنّ التيّار ساقهم باطّراد نحو الشرق. كما لم ينَم أيٌّ منهم ولا أكل شيئاً. فطوال تلك الليلة وطوال اليوم التالي أنسابوا نحو الشرق. ولمّا بزغ فجر اليوم الثالث — بضياء لا نستطيع أنا أو أنت أن نحتمله ولو كان على أعيُنِنا نظّارات سوداء — رأوا أمامهم عجباً. فقد بدا كأنّ سوراً قام بينهم وبين الفضاء، سوراً متألّقاً مرتعشاً رمادياً ضارباً إلى الخُضرة. ثمّ طلعتِ الشمس، وعند شروقها أوّلاً شاهدوها من خلال السُور فتحوّلت إلى ألوان قوس قُزَح خلّابة. وبعدئذٍ عرفوا أنّ ذلك السُور كان بالحقيقة موجةً عالية طويلة: موجة ثابتةً دائماً أبداً في مكانٍ واحد كالمياه التي قد تراها غالباً عند حافةِ شلّال. وبدا ارتفاعُها يُقارِب عشرة أمتار، فيما كان التيّار يسوقهم بسرعة نحوها. ولعلّك تظنّ أنّهم فكّروا في الخطر المُقبِل عليهم. إلّا أنّهم لم يفعلوا ذلك. ولا أعتقد أنّ أحداً في موقعهم يمكن أن يُفكّر بالخطر، لأنّهم الآن

شاهدوا شيئاً، لا وراءَ الموجة وحدها، بل وراء الشمس. وما كانوا ليقدروا أن يُشاهِدوا حتّى الشمسَ، لو لم تكُن أعينُهم قد تقوّت بفضل مياه البحر الأخير. غير أنّهم الآن استطاعوا أن ينظروا إلى الشمس الطالعة فيَروها بوضوح ويَروا ما وراءها أيضاً. وما رأوه — إلى جهة الشرق خلف الشمس — كان سلسلة جبال. وقد كانت عالياً جداً حتّى إنّهم إمّا لم يروا قمّتها وإمّا نسُوها. فلا أحد منهم يتذكّر رؤية أيّ سماء في ذلك الاتّجاه. ثمّ إنّ تلك الجبال بالحقيقة لا بدّ أنّها كانت خارجَ العالم. إذ إنّ أيّة جبال يبلغ علوُّها ولو واحداً بالمئة نسبةً إلى علوّ تلك الجبال كان ينبغي أن يُغطّيها الجليد والثلج. ولكنّ هذه كانت دافئة وخضراء ومكسوّة بالغابات والشلاّلات مهما كان العلوُّ الذي نظرتَ إليه. وفجأةً هبّت نسمة من الشرق، جاعلةً أعلى



الموجة يتحوّل إلى أشكال مُزبِدة والمياه حوالَيهم تترقرق. وقد دام ذلك ثانيةً واحدة أو نحوَها، ولكنّ ما حملته تلك النسمة في تلك الثانية إلى أولئك الأولاد الثلاثة لن ينساه أيٌّ منهم. فقد حملت إليهم رائحةً وصوتاً في آنٍ واحد، صوتاً موسيقيّاً. ولم يكُن إدمون ويُسطاس ليتحدّثا عن ذلك بتاتاً في ما بعد. أمّا لوسي فاستطاعت فقط أن تقول: «من شأن ذلك أن يفطر قلبك». وسألتُها: «لماذا؟ أكان مُحزِناً جداً؟» فقالت: «مُحزِناً!! كلاّ».

لم يشكَّ أحدٌ على متن ذلك القارب أنّهم كانوا يشاهِدون داخلَ بَلَد أصلان من وراء آخِر العالَم.

وفي تلك اللحظة، ارتطم القارب بالأرض مُحدِثاً صوتَ تحطُّم. فقد صارتِ المياه أقلّ عُمقاً من أن تصلُح للتجذيف. وقال ريبيتشيب: «هُنا ينبغي أن أتابع سفري وحيداً».

إلاّ أنّهم لم يحاوِلوا حتّى إيقافه، إذ شعر الجميع كما لو كان كلُّ شيء محتوماً، أو كأنّه حدث من قبل. فساعدوه إلى إنزال قُرقلِه الصغير ثمّ نزع سيفه وطوّحه بعيداً فوق بحر الزنابق (قائلاً: «لن أحتاج إليه بعداً!»). ووقف السيف قائماً في مكان سقوطه ومقبضُه فوق سطح الماء. ثمّ ودّعهم، مُحاوِلاً أن يُبديَ الحزن لأجل خاطِرهم، غير أنّه كان يرتعش من فرط سعادته. وعندئذٍ فعلت لوسي، أوّلَ مرّة وآخِر مرّة، الأمرَ الذي طالما تمنّت أن تفعله، فطوّقته بذراعيها ولاطفتْهُ قليلاً. ثمّ دخل قُرقلَه على

عجل، وحمل مجذافه، فأمسك به التيّار ومضى مبتعداً، وقد بدا شديد السواد على صفحة الزنبق. ولكنّ الموجة كانت خاليةً من الزنبق، بل كانت مُنحدراً أخضر أملس. وسار القُرقل بسرعة متزايدة، ثمّ اندفع صعوداً على جانب الموجة بصورة رائعة. وفي لُحيظة شاهدوا شكل القارب الصغير وريبيتشيب على أعلى الموجة تماماً، ثمّ اختفى! ومنذ تلك اللحظة لم يعُد أحد يستطيع أن يقول بحقّ إنّه رأى ريبيتشيب الفأر. ولكنّني أعتقد أنّه وصل سالماً إلى بلَد أصلان وأنّه ما زال حيّاً حتّى اليوم.

وإذ أشرقت الشمس، تلاشى منظر تلك الجبال خارج العالم. وبينما بقيت الموجة، لم يظهر وراءها إلّا السماءُ الزرقاء وحدها.

ثمّ نزل الأولاد من القارب، وخوّضوا في الماء؛ لا نحو الموجة، بل صوب الجنوب، وسورُ الماء إلى يسارهم. وما كان في وسعهم أن يُخبروك بسبب قيامهم بذلك: فقد كان ذلك هو قدَرهم. ومع أنّهم كانوا قد شعروا بأنّهم ناضجون جداً وهم على متن جوّابة الفجر — وقد كانوا كذلك فعلاً — فقد أحسّوا الآن عكس ذلك تماماً، وأمسكوا بعضهم بأيدي بعض وهم يُخوّضون بين الزنابق. ولم يشعروا بالتعب قطّ. وقد كان الماء دافئاً، وظلّ يتناقص عُمقاً باستمرار. وأخيراً وصلوا إلى الرمال الجافّة، ثمّ وطئوا العُشب: سهلاً فسيحاً جداً من العشب الناعم القصير، على مستوى بحر الفضّة تقريباً مُنتشراً في كلّ اتّجاه بغير

أدنى نتوء ولو مثلَ كومة التراب التي يُنشئها الخُلد.

وبطبيعة الحال، كما يحدث دائماً في مكانٍ واسع مُنبسط خالٍ من الشجر، بدا كأنّ السماء هبطت لتُلاقيَ العُشبَ قُدّامهم. ولكنْ بينما هم يُواصلون سيرهم تكوّنت لديهم أغربُ انطباع بأنّ السماء هناك أخيراً قد هبطت فعلاً لتنضمّ إلى الأرض، في سُورٍ أزرق متألّق جداً، لكنّه حقيقيٌ وصُلب، أشبه بالزجاج منه بأيّ شيءٍ آخر. وسرعان ما باتوا متأكّدين من ذلك تماماً. فقد كان السور آنذاك قريباً منهم جداً.

ولكنْ كان بينهم وبين أسفل السماء شيءٌ على العشب أبيض بياضاً فائقاً، حتّى إنّهم بأعيُنهم الشبيهة بعينَي النسر لم يكادوا يقدرون أنْ ينظروا إليه. ثمّ تقدموا، فتبيّن لهم أنّ ذلك كان حَمَلاً، ما لبث أن قال بصوته العذب الرقيق:

«تعالَوا تناوَلوا الفَطور!»



عندئذٍ لاحظوا، أوّلَ مرّة، أنَّ على العُشب ناراً مشتعلة وفوقها سمكٌ يُشوى. فقعدوا وأكلوا السمك، بعدما شعروا بالجوع أوّل مرّة منذ أيّام كثيرة. وكان ذلك أشهى طعامٍ تذوّقوه على الإطلاق.

ثمّ سألت لوسي: «رجاءً، يا حَمَل، أهذا هو الطريق إلى بلد أصلان؟»

فقال الحمل: «ليس بالنسبة إليكم. فالبابُ عندكم لدخول بَلَد أصلان هو من عالمكم أنتم».

وقال إدمون: «ماذا؟ هل من طريقٍ إلى داخل بَلَد أصلان من عالمنا أيضاً؟»

فأجاب الحمل: «هنالك طريقٌ إلى داخل بَلَدي من العوالم كلِّها». ولكنْ بينما هو يتكلّم، تحوّل بياضُه الثلجيُّ فجأةً إلى لونٍ ذهبيّ مُسمرٍّ، وتغيّر حجمه، فإذا به أصلان نفسه وقد بدا عالياً فوقهم وأخذ يبعث النور من لُبدته.

وقالت لوسي: «حبّذا، يا أصلان، لو تقولُ لنا كيف ندخل بَلَدك من عالمنا؟»

فقال أصلان: «سأظلُّ أقول لكم ذلك كلَّ حين. ولكنّي لن أقول لكم أبداً كم سيكون الطريق طويلاً أو قصيراً، ما عدا كونه واقعاً وراء نهر. ولكنْ لا تخافوا من ذلك، لأنّني أنا باني الجسرِ العظيمُ. والآن هيّا؛ فسأفتح البابَ في السماء وأرسلكم إلى دياركم».

وقالت لوسي: «رجاءً، يا أصلان: هلّا تقول لنا، قبل أن نذهب، متى يمكننا أن نرجع إلى نارْنيا من جديد؟

وأرجو منك رجاءً حارّاً جدّاً أن تجعل ذلك قريباً».

فقال أصلان بكلّ رقّة: «عزيزتي الغالية جدّاً، أنتِ وأخوكِ لن ترجعا إلى نارْنيا أبداً».

وقال إدمون ولوسي كلاهما بصوتين يائسين: «أُوه، أصلان!»

فقال أصلان: «لقد كبرتما كثيراً، يا وَلَديَّ. ويجب أن تبدآ بالاقتراب من عالمكما الآن».

وردّت لوسي باكيةً بتقطُّع: «ليست نارْنيا هي المهمّة، بلِ المهمُّ أنت. فلن نُقابلك أنت هناك. وكيف يمكن أن نعيش بغير أن نلقاك؟»

فقال أصلان: «ولكنّك ستُقابلينني، يا حبيبة قلبي!»

وسأل إدمون: «أ... أأنتَ هناك أيضاً، يا سيّد؟»

فأجاب أصلان: «أنا هُناك. ولكنَّ لي هناك اسماً آخر. ويجب أنْ تتعلّما أن تعرفاني بذلك الاسم. لهذا السبب جيء بكما إلى نارْنيا: حتّى إذا عرفتُماني هنا مدّةً قصيرة يمكنكما أن تعرفاني أفضلَ هُناك».

وسألت لوسي: «وهل ليُسطاس أن يعود إلى هُنا يوماً؟»

فقال أصلان: «بُنيّتي، هل يلزمكِ فعلاً أن تعرفي ذلك؟ تعالَي، ها أنا أفتح الباب في السماء». ثمّ في لحظةٍ واحدة انشقَّ السور الأزرق (وكأنّما ستارةٌ تُمزَّق)، وشعَّ نور أبيض باهر ممّا وراء السماء، وأحسُّوا ملمس لُبدة أصلان وقُبلةً أسد على جباههم، وبعد ذلك وجدوا أنفسهم في

غرفة النوم الخلفيّة ببيت الخالة ألبرتا في مدينة كَمبرِدج.

يبقى أن نقول أمرَين آخرَين بعد. أحدُهما أن كاسپيان وجميع رجاله رجعوا سالمين إلى جزيرة رَمَندو، واللوردات الثلاثة استيقظوا من نومهم، وكاسپيان تزوّج بابنة رَمندو، ووصلوا جميعاً إلى نارنيا في الأخير، وصارت ابنةُ رَمَندو ملكة عظيمة وأُمّاً وجدّةً لملوكٍ عُظماء. وثاني الأمرين أنّه في عالمنا من جديد بدأ الجميع بسرعة يقولون عن يُسطاس كيف أنّه تحسّن، وكيف «أنّك لن تعرف أبداً أنّه الصبيُّ عينُه». وحين نقول «الجميع»، نستثني الخالة ألبِرتا، إذ قالت إنّه قد صار مُبتَذلاً ومُزعِجاً، ولا بدّ أنّ ذلك حصل من جرّاء تأثير وَلَدي آل پيڤنسي فيه.

الكرسيُّ الفضيُّ

تشعر جِل ببؤسٍ شديدٍ في يومٍ من أيام فصل الخريف الكئيبة في مدرستها الرهيبة. وبينما كان يسطاس يحاول التفريج عنها بحكايةٍ قصصٍ عن بلدٍ سحريٍّ زاره في العطلة السابقة، رأت أن رجاءها الوحيد هو بالهروب وإيجاد الأرض السحرية. فاستجمعت كل إرادتها، واندسا تحت أشجار الغار، واندفعا إلى الباب في السور الحجري.

وإذ خرجا من أرض المدرسة، من إنكلترا، من عالمنا إلى ذلك المكان، بدأت واحدةٌ من أكثر المغامَرات إثارةً ودِقَّةً في نارنيا. فقد أعطى أصلان الولدين مهمة إيجاد ريليان، الابن المحبوب للملك كاسبيان، الذي اختفى بينما كان يبحث عن قاتل أمه. ولمساعدة جِل ويسطاس في مهمتهما في البحث عن ريليان وإنقاذه، يعطيهما أصلان أربع علامات عليهما السير بموجبها. ينبغي لهما الإسراع لكون الملك كاسبياً مُسناً، ولكنّهما في استعجالهما، ينسيان ثلاثاً من العلامات الأربعة الهامة. قد بدا أن الوقت والفرص غير مواتية لهما منذ البداية.

هذه مغامرة سادسة في روايات «عالم نارنيا» المثير.